دراسات في تاريخ وحضارة المغرب الإسلامي

الأستاذ الدكتور
عبد الواحد ذنون طه



دراسات في
تاريخ وحضا رة
المغرب الإسلامي

دراسات في
تاريخ وحضا رة
المغرب الإسلامي

دراسات في تاريخ وحضارة المغرب الإسلامي

تأليف

أ. د. عبد الواحد ذنون طه

دار المدار الإسلامي

الطبعة الأولى

حزيران/يونيو/الصيف 2004 إفرنجي

رقم الإيداع المحلي 5927/ 2004

ردمك (رقم الإيداع الدولي) ISBN 9959-29-211-8

دار الكتب الوطنية/ بنغازي ـ ليبيا

تصميم الغلاف: نقوش

دار المدار الإسلامي

أوتوستراد شاتيلا ـ الطيونة، شارع هادي نصر الله ـ بناية فرحات وحجيج، طابق 5،

خليوي: 933989 ـ 03 ـ هاتف وفاكس: 542778 ـ 1 ـ 00961 ـ بريد إلكتروني: szrekany@inco.com.lb

ص.ب. 14/6703 ـ بيروت ـ لبنان

الموقع الإلكتروني www.oeabooks.com

توزيع دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع والتنمية الثقافية: زاوية الدهماني، السوق الأخضر، ص.ب: 13498،

هاتف: 4448750 ـ 4449903 ـ 3338571. 21 . 00218 ـ فاكس: 4442758 . 21 . 00218،

طرابلس ـ الجماهيرية العظمى ـ oeabooks@yahoo.com

الإهداء

إلى ابنتي الوحيدة آلاء الشاعرة

التي سارت على طريق العلم والأدب

تقديم

كان للمغرب الإسلامي دور فاعل في تاريخ وحضارة الدولة العربية الإسلامية، لاتصاله الوثيق بالمشرق من جهة، وبالأندلس من جهة أخرى. وما الأحداث التي مرت به إلا صدى للأوضاع العامة في الطرفين. وهذه الدراسات في تاريخ وحضارة هذا الجزء الهام من الدولة العربية الإسلامية، تعبر بشكل لا يقبل اللبس عن هذا الدور، وهذه الفعالية. فهي تبدأ بالأصل والجذور، فتعطي صورة واضحة لأحوال هذه المنطقة وساكنيها قبيل دخول الإسلام، فتتحدث عن تنظيماتهم الاجتماعية، وتشير إلى مختلف القبائل المغربية التي عاشت في المنطقة، وما هي أوجه نشاطها الاقتصادي، وتعاملها فيما بينها، والديانات السائدة في المنطقة، لتبيان الخلفية التاريخية، والأرضية التي تعامل معها الفاتحون العرب.

وتتناول الدراسة الثانية طبيعة الجهد العسكري العربي الإسلامي في جهة المغرب، والتي هي طبيعة خاصة تختلف عن غيرها من الإنجازات العسكرية العربية في المشرق. فقد استغرق تحرير المغرب من السيطرة البيزنطية وقتا يزيد عن السبعين عاما، عانى فيها العرب من هذه القوة الغاشمة، ومن مقاومة بعض السكان المحليين. فهل كان في هذا التوجه للمغرب، وهذا العناء، ما يستحق مثل تلك التضحية والجهود التي قدمت في سبيل إعلاء كلمة الله في أرضه؟ من الواضح أن جواب هذا السؤال هو بالإيجاب، نظرا

لما أصبح يمثله المغرب من قوة حقيقية ووزن في العالم الإسلامي. وقد تم تحديد الطرق والأساليب التي اتبعها القادة والولاة في سبيل إنجاز هذا التحرير، والتي قامت بداية على محاولات أولية استكشافية، ثم أعقبتها محاولات دائمة ومستمية لكسب المنطقة إلى صف الإسلام.

وبعد انتهاء مرحلة الفتح المنظم، ودخول المغرب في فلك الدولة العربية الإسلامية، مرّ بعهود مختلفة، منها عصر الولاة، الذي امتد من نهاية الفتح إلى أواخر أيام الدولة الأموية، وبدايات العصر العباسي. ولكن البعد الجغرافي لهذا الإقليم الواسع عن مركز الخلافة، وتنوع عناصر سكانه، وتطلعاتهم، أدى إلى قيام بعض الكيانات والدول المستقلة، التي انتهجت كل واحدة منها نهجا خاصا. وقد تم الحديث عن أول هذه الدول التي قامت على أطراف الصحراء، شمال وادي درعة، في المغرب الأقصى، بتأثير الخوارج الصفرية، بقيادة أحد زعماء أسرة بني مدرار. وأنشأت لها مدينة لتكون حاضرتها في ذلك الطرف النائي، هي مدينة سجلماسة، التي أصبح لها دور كبير في المنطقة، لا سيما في النواحي السياسية والاقتصادية والثقافية.

ومن الدول التي نشأت في المغرب قريبا من هذه الحقبة، وعاصرت أيضا دولة بني واسول أو بني مدرار في سجلماسة، هي دولة الأدارسة، التي تطرق إليها البحث الرابع من هذا الكتاب، مبيِّنا أصلها، وكيفية قيامها، والأسرة الحاكمة فيها، وعوامل سقوطها. ثم الوقوف بشكل تفصيلي على أسباب نهضتها وحضارتها، لا سيما بناء مدينة فاس، التي اصبح لها شأن كبير في تاريخ المغرب الأقصى وثقافته. واختتم البحث بدراسة مساهمة الأدارسة في تنمية الحضارة العربية في المغرب، وجهودهم في نشر الإسلام واللغة العربية، وإقامتهم لكثير من المدن، وتشييدهم للجوامع، لا سيما جامع القرويين في فاس، الذي أثر بشكل فعال في حضارة وفكر المغرب الإسلامي.

وتتبعت الدراسة الخامسة ضمن هذه المجموعة، تاريخ وحضارة دولة

بني الأغلب، التي قامت في إفريقية سنة 184هـ/ 800م، بموافقة الخلافة العباسية، بعد أن شعر الخليفة هارون الرشيد، أن مصلحة الدولة العباسية تقتضي منح إبراهيم بن الأغلب استقلالا جزئيا، ليكون مسؤولا أمام الخلافة عن هذه المنطقة. وكان لشخصية ابن الأغلب وجهوده، وجهود أبنائه من بعده دور كبير في تثبيت أركان هذه الدولة، فبنيت فيها المدن العربية، وتواصل الاهتمام بالجيش والأسطول. وقد أثمرت هذه الجهود عن افتتاح جزيرة صقلية، وضمها للدولة العربية الإسلامية، ونشر الإسلام فيها. وقد حقق هذا الفتح الذي أنجز في عهد الأغالبة نتائج هامة على كل الأصعدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، حيث أصبحت صقلية مركزا للآداب والعلوم في البحر المتوسط، وكانت مساجدها مراكز مهمة لهذه النشاطات الفكرية. وأصبحت هذه الجزيرة، بحكم موقعها أحد المعابر الرئيسة لنقل الحضارة والثقافة العربية الإسلامية إلى أوربا.

وتستمر هذه السلسلة من البحوث في الحديث عن تاريخ وحضارة المغرب الإسلامي، من خلال تناول جهود الدول التي قامت فيه، وجهود مؤسسيها. وفي هذا السياق يبرز دور القائد المجاهد يوسف بن تاشفين، الذي تزعم قوة جديدة في المغرب الأقصى، واستطاع أن يوحده تحت سلطة قوية تمثلت بدولة المرابطين. ولم يكتف يوسف بالمغرب حسب، بل تطلع إلى استكمال وحدته الطبيعية بضم الأندلس، التي كانت تعاني من مصاعب داخلية، وأخطار خارجية تتمثل في طغيان المد الصليبي، الذي قاده القشتاليون، والذي كان يهدد بابتلاع دويلات الطوائف الواحدة تلو الأخرى، وإنهاء الوجود العربي الإسلامي في شبه الجزيرة الآيبيرية. ولقد ركز البحث السادس على هذا الأمر، وعلى دور الزعيم المرابطي في التصدي لهذا الخطر الماحق، ودحره، وتحقيق وحدة الغرب الإسلامي.

كان لدولة المرابطين الفتية، ولدولة الموحدين التي أعقبتها جهود لا يمكن نكرانها في تطور المغرب الإسلامي ووحدته. ويرجع الفضل في إقامة

الدولة الأخيرة، والتخطيط لها إلى الداعية محمد بن تومرت، الذي أدرك ظروف الانهيار التي كانت تعانيها إمارات بلاد المغرب، واقتنع بأن الإسلام، لا سيما في بلاد المغرب الأقصى لم يكن كما ينبغي أن يكون، وأن واجبه الدعوة لإصلاح هذه الحال، والعمل على إقامة دولة قوية تستولي على مقاليد الأمور. وفعلا نجح هو ومن جاء بعده من زعماء الموحدين في هذا المجال، ووحدوا المغرب لأول مرة تحت سلطة سياسية واحدة من إفريقية إلى المحيط الأطلسي، وضموا إليه أيضا الأندلس. ونتيجة لاستتباب الأمن الذي حققه الموحدون، قامت في عهدهم نهضة اقتصادية كبيرة سواء في الميدان الزراعي، أم الصناعي، أم التجاري. كما شجعوا الحركة الفكرية في جميع مظاهرها.ويمثل عهدهم ذروة النشاط الفكري في بلاد الغرب الإسلامي. لقد تناول البحث الخاص بالموحدين، هذه المسائل بالتفصيل، ولم يهمل الجانب السياسي، الذي أخذ نصيبه من الدراسة، فضلا عن الحضارة، لا سيما في مجال الفن، والعمارة، وإنشاء المدن، وبناء الموانئ والحصون والقناطر.

وأخيرا ارتأينا اختتام هذه الدراسات بثلاثة بحوث تشير إلى تميز المغرب في ناحية ثقافية وفكرية، أخذت حيزاً كبيراً من اهتمام بعض العلماء من أبنائه، وهي ظاهرة التدوين التاريخي التي استطعنا عن طريقها فهم الكثير من مظاهر الحضارة والأحداث التي مرت على هذا الجزء من العالم الإسلامي. ونظرا لأهمية التاريخ المغربي في العصور الإسلامية، وفقدان الكثير من مصادره الأولية، كان لا بد من التطرق إلى بعض ما تبقى من هذه النصوص وتحليلها، واستخلاص نتائجها. وهذا ما أشار إليه البحث الثامن عن نصوص محمد بن يوسف الوراق، الذي فُقد كتابه عن تاريخ المغرب. وكذلك عن كيفية الاستفادة من موارد أبي عبيد البكري عن تاريخ إفريقية والمغرب. واختتمت هذه الأبحاث ببيان الأثر الذي تركه المشرق الإسلامي في التدوين التاريخي على المغاربة، لا سيما تأثير المؤرخ الكبير أبو جعفر

محمد بن جرير الطبري، ومقارنة أسلوبه في التدوين مع العمل التاريخي العظيم الذي أنجزه أبو العباس أحمد بن محمد بن عذاري المراكشي، المتمثل في كتابه الشامل عن المغرب والأندلس، منذ الفتح، وإلى نهاية عهد الموحدين، بعد منتصف القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر الميلادي.

نرجو أن نكون قد وفقنا في إعطاء صورة شاملة لجوانب من تاريخ وحضارة المغرب الإسلامي، من خلال هذه الأبحاث التي تمت دراستها، وأُعدّت في أوقات مختلفة للتقديم في بعض الندوات العلمية والمؤتمرات، أو نُشرت في مجلات عربية مختلفة. ومن الله التوفيق.

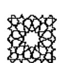
عبد الواحد ذنون طه

الموصل 5 جمادى الأولى 1424 هـ

5/ 6/ 2003م



استيطان القبائل البربرية
في شمال إفريقيا قبل الإسلام



نشر هذا البحث في مجلة حوليات الجامعة التونسية
العدد 18، تونس، 1980

يقدم المؤرخون والكتاب العرب تفسيرات عديدة، يغلب على معظمها الطابع الأسطوري، فيما يتعلق باشتقاق اسم البربر، وأصولهم التي انحدروا منها. فالبربر حسب رأيهم أقوام هاجروا من فلسطين أو من اليمن، وأنهم يرجعون إلى أصول كنعانية أو حميرية[1]. وعلى الرغم من أن ابن حزم قد

(1) ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، نيوهيفن، 1922، ص 170؛ البلاذري، فتوح البلدان، ليدن، 1866، ص 226؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ليدن، 1879 ـ 1901، ج1، ص ص219 ـ 516؛ الإدريسي، كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ليدن، 1866، ص75؛ المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، امستردام، 1968، ص254؛ عبيد الله بن صالح، كتاب الأنساب، مخطوط الخزانة العامة في الرباط، رقم: 1275 ك، ص 19 ـ 20، 22 ـ 23؛ مفاخر البربر، (مجهول المؤلف) نشر ليفي بروفنسال، الرباط، 1937، ص 1، 64، 75، 76؛ ابن خلدون، كتاب العبر، =

رفض معظم هذه النظريات لأنها خاطئة إلا أنه لم يقدم أي تفسير بديل عن الموضوع[2]. وعلى أية حال فمهما يكن رأي المؤرخين العرب، فإن لفظة (بربر) قد اشتقت من غير شك من (Barbarian) اللاتينية وهي اللفظة المقابلة للكلمة الإنكليزية (Barbari)التي أطلقها الرومان على الأقوام التي لا تتكلم اللاتينية أو اليونانية[3]. وتشير إحدى الفرضيات إلى أن البربر عنصر مركب من جماعات غير متجانسة بالأصل ظهروا في شمال إفريقيا خلال الألف الثاني أو الثالث قبل الميلاد[4]. ولكن على الرغم من هذه الفرضية، وغيرها، فإن الأصل الدقيق للبربر ما يزال غير معروف بالنسبة لنا. كل ما يمكن أن يقال على وجه التأكيد هو أن البربر من الأقوام التي عاشت في الشمال الإفريقي منذ أزمنة بعيدة قبل الفتح العربي الإسلامي[5].

كان التنظيم الاجتماعي للبربر قبليا منذ أقدم العهود التاريخية ويصنّف المؤرخون العرب قبائل البربر إلى الصنفين الآتيين : البتر، والبرانس، وكل من هاتين الجماعتين مقسم إلى قبائل عديدة، وبالإمكان تمييز بعض الجماعات الكبيرة والقوية زمن الفتح الإسلامي. مثال ذلك القبائل البترية : لواتة، نفوسة، نفزاوة، مغراوة، زناتة، مطغرة، مغيلة، مكناسة، مديونة، زواغة. والقبائل البرنسية من أمثال صهناجة، مصمودة، هسكورة، أوربة، كتامة، هوارة، غمارة، ازداجة، مسطاطة، جزولة[6]. وكما سنرى فيما بعد عند الحديث عن أماكن استقرار البربر، فإن معظم البتر عاشوا في مناطق

= بيروت، 1956 ـ 1961، ج6، ص 181 ـ 183؛ الفاسي، الجمان في أخبار الزمان، مخطوط المكتبة الوطنية في تونس، رقم: 18407، الورقة 98أ.

(2) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة 1962، ص 495.

(3) 'Abu - n - Nasr: A History of the Maghrib, Cambridge, 1971, p.7.

(4) Ibid, p.7,B. Davidson: Africa in History, London, 1968, p. 42.

(5) Art. "Berbers" in E. I. 2.

(6) ابن عبد الحكم، ص 205، جمهرة الأنساب، ص 495 ـ 498، ابن خلدون، ج6، ص 176 ـ 181.

السهول التي تتمتع بمناخ معتدل، بينما استقر البرانس في مناطق الجبال الباردة. ويرجح بعض المؤرخين المحدثين أن كلا من لفظتي البتر والبرانس قد جاءتا من التمييز بين اللباس القومي الذي يرتديه هؤلاء الجماعات(7). فسكان الجبال كانوا يرتدون برنسا كاملا، أي بغطاء الرأس، ومن هنا جاءت اللفظة برانس، بينما لم يكن من الضروري للآخرين، أي سكان السهول، أن يلبسوا هذا اللباس، فاكتفوا بالبرنس من غير غطاء الرأس، أي أبتر، ولهذا سمو بالبتر.

لقد كانت غالبية هذه القبائل وثنية(8)، وظل بعضهم هكذا إلى ما يقارب الثلاثة قرون بعد الفتح، كما هو الحال بالنسبة لجماعات من صهناجة غربي الصحراء الكبرى(9). ومع هذا فقد انتشرت بينهم الديانة المسيحية، وبشكل خاص في المناطق الساحلية حيث تأثروا بكل من الرومان والبيزنطيين. ولقد تحولت قبائل عديدة إلى الديانة المسيحية وبخاصة قبائل زناتة في موريتانيا القيصرية، وقبائل أوربة في جبال الأوراس، ونفوسة في منطقة طرابلس(10). واستطاعت الديانة اليهودية أيضا أن تحصل على بعض

(7) انظر: أحمد مختار العبادي، من تاريخ المغرب والأندلس، الإسكندرية، مؤسسة الثقافة الجامعية، ص 16 ـ 17.

(8) ابن عذاری، البيان المغرب، ليدن، 1948 ج1، ص26؛ ابن خلدون، ج6، ص 212.

(9) المصدر نفسه، ج6، ص 373.

(10) ابن عبد الحكم، ص201؛ الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق المنجي الكعبي، تونس، 1968، ص 61، 64؛ المالكي، رياض النفوس، تحقيق حسين مؤنس القاهرة، 1951، ج1، ص 53؛ البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، الجزائر، 1857، ص 32، 190؛ ياقوت، معجم البلدان، بيروت، 1957، ج5، ص 297؛ الدباغ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق إبراهيم شبوح، القاهرة، 1968، ج1، ص 64 ـ 66؛ التجاني، رحلة التجاني، تحقيق: حسن حسني عبد الوهاب، تونس، 1958، ص 293؛ ابن عذارى، المصدر السابق، ج1، ص 36 ـ 38؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 214، 219 ـ 220، ج7، ص 15؛ الاستبصار في عجائب الأمصار، (مجهول المؤلف) تحقيق: سعد زغلول عبد الحميد، الإسكندرية، 1958، ص 121، 208؛ الأندلسي، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تونس، =

الأنصار من صفوف البربر في شمال إفريقيا، فقد اعتنقت جراوة قبيلة الكاهنة القوية، الديانة اليهودية، وكذلك فعلت جماعات من نفوسة في منطقة طرابلس، ومجتمعات صغيرة تقع في المناطق الغربية من الشمال الإفريقي، حيث ظلت هذه المجتمعات باقية في العهود الإسلامية بعد الفتح[11].

في عشية الفتح العربي الإسلامي، كانت قبائل البربر تتوزع بصورة عامة في شمال إفريقيا على الشكل الآتي:

قبائل لواتة[12]، نفوسة[13]، هوارة[14]، وبعض من جماعات زناتة[15]، ونفزة[16]، وزواغة[17]، كانوا في مقاطعة طرابلس (Tripolitania) والصحراء

= 1287هـ، ص 237؛ ذكر حدود بلاد إفريقية، (مجهول المؤلف) مخطوط الخزانة العامة في الرباط، رقم 787د، الورقة 8أ.

(11) البكري، المصدر السابق، ص9، 85، 90، 115، 124، 148 ـ 149؛ الإدريسي، المصدر السابق، ص69، 132، 134؛ ابن خلدون المصدر السابق، ج6، ص214، مفاخر البربر، ص 65، ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، تحقيق: محمد شمام، تونس، 1967، ص28، 34،

(12) ابن عبد الحكم، المصدر السابق ص170؛ اليعقوبي، كتاب البلدان، ليدن، 1892، ص342 ـ 343، 344، 345؛ الكندي، كتاب الولاة والقضاة، بيروت، 1908، ص32؛ البكري، المصدر السابق، ص 5، 8؛ الإدريسي، المصدر السابق، ص57؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص204، 235؛ الفاسي، الجمان، الورقة، 19أ.

(13) ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص170؛ اليعقوبي، المصدر السابق، ص346؛ البكري، المصدر السابق، ص9؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص230.

(14) ابن عبد الحكم؛ المصدر السابق، ص170؛ اليعقوبي، المصدر السابق، ص346؛ الكندي، المصدر السابق، ص32؛ المسعودي، مروج الذهب، بيروت، 1973، ج2، ص ص95 ـ 96؛ البكري، المصدر السابق، ص ص7، 12؛ الإدريسي، المصدر السابق 130؛ ياقوت، المصدر السابق، ج5، ص366، ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 284، 290.

(15) ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص 219، 224؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص ص104 ـ 109.

(16) المصدر نفسه، ج6، ص189.

(17) البكري، المصدر السابق، ص17؛ ابن خلدون، المصدر السابق ج6، ص 264، 308.

التابعة لها في الجنوب[18]. وكان قسم من هؤلاء قد استقروا في المناطق الساحلية، خاصة في طرابلس، بينما كانت الغالبية العظمى من الآخرين بدواً في المناطق الصحراوية[19]. وكان بربر هذه المناطق يزاولون التجارة الصحراوية بين المناطق الداخلية والساحل، ففي الجنوب، كانت زويلة محطة شهيرة لتقاطع طرق القوافل القادمة من كل الأماكن المجاورة، وكانت تمثل بداية بلاد السودان[20]. وكانت لبدة وكثير من الموانئ الأخرى على الساحل في الوجود، ومنذ قرون، كمنافذ للتجارة الصحراوية على البحر المتوسط[21]. يضاف إلى ذلك أن هناك علاقات تجارية كثيرة مع المناطق المجاورة، وخاصة مصر، التي كان يحمل إليها مواد كثيرة من برقة، مثال ذلك: المواشي، والأغنام، والأصواف، والزيوت، والعسل، والقار[22]. وكان بربر كوار في الصحراء الجنوبية، يتاجرون بالشب الذي كان من أشهر المعادن الموجودة في منطقتهم، وقد غطت فعالياتهم التجارية مناطق واسعة بين مصر و ورجلان، ووصلت إلى المغرب الأقصى[23].

عاشت جماعات عديدة من البربر في مقاطعة إفريقية البروقنصلية (Proconsular Africa) و (Byzansia) في الجنوب، أي جنوبي تونس الحالية. وتعد زناتة، ونفزاوة، ونفوسة، ولواتة، من القبائل الكبيرة هناك. كما كانت

(18) ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص170؛ اليعقوبي، المصدر السابق، ص344؛ البكري، المصدر السابق، ص ص5،7، 9؛ ياقوت، المصدر السابق، ج1، ص100، ج4، 25.

(19) البكري، المصدر السابق، ص7؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 235، ج7، ص109؛

(20) البكري، المصدر السابق، ص10؛ الإدريسي، المصدر السابق، ص132 ـ 133؛ ياقوت المصدر السابق ج3، ص160.

(21) Davidson: op.cit. p.47.

(22) ابن حوقل، صورة الأرض، بيروت، ص69؛ البكري، المصدر السابق، ص5؛ الإدريسي، المصدر السابق ص131.

(23) المصدر نفسه، ص 39 ـ 40؛ ياقوت، المصدر السابق، ج4، ص486.

هناك أيضا كثير من العشائر الصغيرة التي تعود إلى هوارة، قرب مرماجنة، في وادي مجردة الأعلى[24]، ووزداجة في منطقة باجة[25]، في الشمال الغربي من تونس، ومطماطة، غربي قابس[26]. لقد كان بربر زناتة أشباه بدو يعيشون حياة الرعي والزراعة في مناطق السهول[27]، بينما كانت جماعة زناتة الأخرى، ونفزاوة وبشكل خاص تلك التي تعيش في مناطق الجريد، جنوبي تونس، وبالقرب من نفطة وتوزر وقفصة، بدوية خالصة[28]. وعاشت بعض قبائل لواتة ونفوسة بالقرب من قابس وصفاقس[29]، ولكن من المحتمل بأن معظم هذه القبائل كانت تتجول بين طرابلس الغرب (Tripolitania) في الشرق وإفريقية البروقيصرية و (Byzacenia) في الغرب.

اشتهرت إفريقية البروقيصرية بمنتجاتها الزراعية، وذلك نظرا لخصوبة سهولها[30]. فإلى جانب الزيتون[31]، كانت تزرع مواد عديدة وتصدر إلى موانئ البحر المتوسط، وبشكل خاص إلى اسبانيا، ومن هذه المواد على

(24) ابن حوقل، المصدر السابق، ص84، البكري، المصدر السابق، ص146؛ الإدريسي، المصدر السابق، ص119؛ ياقوت، المصدر السابق،ج5، ص109.

(25) اليعقوبي، المصدر السابق، ص349؛ البكري، السابق، المصدر السابق ص56.

(26) ابن خلدون ؛المصدر السابق، ج6، ص251.

(27) المصدر نفسه، ج7، ص 48 ـ 49.

(28) البكري، المصدر السابق، ص48 ـ 49؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص199، ج7 ،ص 26 .

(29) ياقوت، المصدر السابق، ج5، ص289؛ ابن خلدون، المصدر السابق؛ ج6، ص204، 236.

(30) ابن حوقل، المصدر السابق، ص72، 74، 75، 86؛ البكري، المصدر السابق، ص 37، 41، 56 ـ 57؛ ياقوت، المصدر السابق، ج1، ص ص314 ـ 315، ج2، ص58، ج3، ص223، ج4، ص289؛ الاستبصار، ص121؛ العمري، وصف إفريقية والمغرب والأندلس، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب، تونس، ص ص4 ـ 5؛ ذكر حدود إفريقية، الورقة14أ.

(31) ابن حوقل، المصدر السابق، ص73؛ البكري، المصدر السابق، ص20؛ الإدريسي، المصدر السابق، ص ص106 ـ 107، 109.

سبيل المثال، الحنطة[32] والتين[33] والعنبر[34] والزعفران[35] والفستق[36]. وكان كل من طبرقة وتونس، وهما الميناءان الرئيسان في هذه المنطقة، يعدّان منفذين للتجارة مع بلاد الأندلس (إسبانيا)[37]. ولقد كوَّن الملح مادة أخرى من مواد التجارة في الساحل الشرقي قرب المنستير، حيث كان يصدر من منجم للملح يمتلكه بربر لمطة، إلى الأقطار المجاورة[38].

وكما هو الحال بالنسبة إلى إفريقيا البروقنصلية، فإن منطقة نوميديا، أي غربي تونس وشرقي الجزائر، كانت تتمتع أيضا بمناطق خصبة وكميات كافية من مصادر المياه[39]. وقد شجع هذا على استقرار قبائل كتامة وفرعها زوارة في منطقة قسنطينة الزراعية، وفي المناطق التي تمتد إلى شاطئ البحر المتوسط قرب بجاية في الشمال، وإلى سفوح جبال الأوراس في الجنوب[40]. ويمكن أن نجد أيضا بعض المجموعات الصغيرة التي تعود إلى

(32) البكري، المصدر السابق، ص47، 56، 57؛ الإدريسي، المصدر السابق، ص ص109، 111، 115، 118؛ ياقوت، المصدر السابق، ج1، ص 314 ـ 315؛ ذكر حدود إفريقية، الورقة، 14أ .

(33) البكري، المصدر السابق، ص75.

(34) المصدر نفسه، ص46؛ ياقوت، المصدر السابق،ج1، ص136.

(35) البكري، المصدر السابق، ص46، 53، 146؛ الإدريسي، المصدر السابق، ص117، ياقوت، المصدر السابق، ج1، ص136؛ الحلل السندسية، ص307.

(36) البكري، المصدر السابق، ص47؛ ياقوت، المصدر السابق، ج4، ص382؛ الاستبصار في عجائب الأمصار، ص103؛ ذكر حدود إفريقية، الورقة، 14أ.

(37) الاصطخري، كتاب المسالك والممالك، ليدن، 1870، ص38؛ المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن، 1906، ص239؛ البكري، المصدر السابق، ص47، 57؛ ياقوت، المصدر السابق، ج4، ص ص298.

(38) البكري، المصدر السابق، ص 36، 84.

(39) اليعقوبي، المصدر السابق، ص351؛ البكري، المصدر السابق، ص50، 63، 73؛ الإدريسي، المصدر السابق، ص96؛ ياقوت، المصدر السابق، ج4، ص349.

(40) ابن حوقل، المصدر السابق، ص ص87، 91؛ البكري، المصدر السابق، ص63، 82؛ الإدريسي، المصدر السابق، ص ص98 ـ 99؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج4، ص ص204، 262، 301.

لواتة، وزواغة، ومطغرة وهي فرع من زناتة[41].

أما جبال الأوراس فقد كانت موطنا للعديد من القبائل البربرية حيث سكنت فيها قبائل أوربة القوية،[42] وجراوة[43] - وهي فرع من زناتة - جنبا إلى جنب مع هوارة، ومكناسة، وكتامة، ولواتة، ونفزة[44]، منذ زمن بعيد قبل الفتح العربي الإسلامي. ولقد استقر فرع من لواتة، وهم مزاتة، وكذلك ضريسة، في منطقة الهضاب قرب باغاية، ولكن بسبب سوء الأحوال الجوية، كان على هؤلاء أن يرحلوا في كل شتاء إلى الصحراء لحماية إبلهم[45].

ويبدو أن نوميديا قد لعبت دورا كبيرا في تجارة الشمال الإفريقي، فقد كانت قبائل كتامة البربرية تسيطر على مناجم النحاس والحديد في المنطقة الجبلية التي تعيش فيها قرب الساحل[46]. وكانت مجانة تعرف بمدينة المعادن لكثرتها هناك[47]. كما أن أحد هذه المناجم، وهو منجم للفضة، كان تحت تصرف جماعات من بربر لواتة[48]. أما مدينتا بجاية وبونة، فقد كانتا مركز التجارة لهذه المنطقة. ومن مينائهما كان يتم تصدير العديد من المعادن

(41) البكري، المصدر السابق، ص63، 145؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص ص238، 264، ج7، ص100.

(42) اليعقوبي، المصدر السابق، ص351؛ البكري، المصدر السابق، ص50.

(43) ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص214، ج7، ص17، 22، 144.

(44) اليعقوبي، المصدر السابق، ص350؛ البكري، المصدر السابق، ص72، 144؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص ص231، 235، 238.

(45) البكري، المصدر السابق، ص 144 - 145.

(46) المقدسي، المصدر السابق، ص226 ح البكري، المصدر السابق، ص33، 83؛ ذكر حدود إفريقية، الورقة، 8أ.

(47) اليعقوبي، المصدر السابق، ص349؛ ابن حوقل، المصدر السابق، ص84؛ البكري، المصدر السابق، ص145 ح ياقوت، المصدر السابق، ج5، ص56.

(48) البكري، المصدر السابق، ص145.

والمنتجات الزراعية[49]. وكان هناك أسواق ومراكز تجارية في كل مكان في المناطق الداخلية[50]. وإلى الجنوب من جبال الأوراس، قرب باديس، التي كانت تشتهر بزراعة الشعير، كانت الطرق التجارية تتفرع لتربط السودان في الجنوب بطرابلس في الشمال، وبالسهول الشمالية الشرقية لإفريقية البروقيصرية[51].

امتدت موريطانيا الأولى من غربي بجاية إلى وادي الملوية في الغرب. وقد عرفت المنطقة فيما بعد باسم المغرب الأوسط. وتتفق المصادر على أن هذه البلاد كانت من أكبر مناطق استقرار قبائل زناتة البربرية المشهورة وفروعها الكثيرة[52]. ويعد ابن خلدون هذه القبيلة من أكبر القبائل البربرية في الشمال الإفريقي. فلقد ذكر بأن مناطق استقرارهم تمتد من طرابلس إلى الأوراس، وجنوبي نوميديا، وإلى موريتانيا الأولى وصولا إلى وادي نهر الملوية[53]. ولكن غالبيتهم العظمى كانت منتشرة في هذه المنطقة، أي المغرب الأوسط، الذي عرف باسم وطن زناتة[54].

(49) ابن حوقل، المصدر السابق، ص77؛ البكري، المصدر السابق، ص54 ـ 55، 82؛ الإدريسي، المصدر السابق، ص 90 ـ 91، 116 ـ 116؛ ياقوت، المصدر السابق،ج 1، ص512.

(50) البكري، المصدر السابق، ص63، 74 ـ 75؛ الإدريسي، المصدر السابق، ص 92، 95، 97، 103.

(51) البكري، المصدر السابق، ص74.

(52) اليعقوبي، المصدر السابق، ص352، 359؛ الاصطخري، المسالك، ص44؛ البكري، المصدر السابق، ص 76 ـ 77؛ الإدريسي، المصدر السابق، ص88؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص203، ج7، ص 3 ـ 4، 100، 114، 156؛ مفاخر البربر، ص46؛ السلاوي، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الدار البيضاء، 1954، ج1ص76؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثالث، تحقيق، حسن حسني عبد الوهاب، بالرمو، 1910، ص26.

(53) ابن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 14، 15، 22.

(54) المصدر نفسه، ج7، ص ص3 ـ 4.

وتشير المصادر إلى أن زناتة كانت قبائل بدوية،[55] ولكن هذا يمكن أن ينطبق فقط على أولئك الذين كانوا يعيشون في المناطق الداخلية من الصحراء، من منطقة تلمسان إلى نهر شلف، والتي تمتد جنوبا إلى أطراف الصحراء. وهؤلاء الجماعات كانوا يتألفون من مغراوة، وبعض من بني يفرن، وفروع أخرى صغيرة من زناتة[56]. أما الجماعات التي عاشت في المناطق الساحلية فإنهم لا بد أن يكونوا جماعات مستقرة وليست بدوية[57]. وعلى أي حال، فمهما كانت طبيعة هؤلاء البربر، فانهم جميعا ساهموا في تجارة هذا الجزء من الشمال الإفريقي. فمن ورجلان في الصحراء، اعتاد البدو البربر أن يتاجروا بالذهب مع السودان وغانة[58]. وكذلك فإن تلمسان كانت مركزاً شهيراً لتجارة قبائل زناتة في العصور الإسلامية[59]، وليس لدينا أدلة على أنها لم تكن كذلك قبل الإسلام. بل على العكس فإن البكري، الجغرافي العربي، يذكر بأن فكّان، القريبة من تلمسان، كانت إحدى الأسواق الكثيرة القديمة التابعة لزناتة[60]. ويمكن أن نضيف إلى هذه الحقيقة، وجود العديد من الأسواق والمراكز التجارية في المدن والمناطق المأهولة الأخرى[61].

---

(55) الإدريسي، المصدر السابق، ص88؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص50؛ مفاخر البربر، ص46.

(56) اليعقوبي، المصدر السابق، ص352؛ البكري، المصدر السابق، ص52؛ الإدريسي، المصدر السابق، ص87؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص ص22، 24، 50، 96، 100، 106، 114؛ مفاخر البربر، ص44.

(57) اليعقوبي، المصدر السابق، ص352 ـ 353؛ البكري، المصدر السابق، ص70 ـ 71، 75، 80، 142؛ الإدريسي، المصدر السابق، ص89؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص293، ج7، ص15.

(58) الإدريسي، المصدر السابق، ص121.

(59) البكري، المصدر السابق، ص76 ـ 77؛ الإدريسي، المصدر السابق، ص82؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص156؛ ذكر حدود إفريقية، الورقة، 27أ.

(60) البكري، المصدر السابق، ص79.

(61) المصدر نفسه، ص68، 69، 76؛ الإدريسي، المصدر السابق، ص 83، 85، 86.

وتنتشر على الساحل من بجاية إلى مصب نهر الملوية، وفي الحقيقة على طول الساحل الشمالي لإفريقية، المراسي العديدة، التي ما هي إلا مراكز تجارية بين شمال إفريقيا وبقية حوض البحر المتوسط. ولقد كانت الاتصالات قوية بين هذه المراسي وبين الموانئ الإسبانية على وجه الخصوص، قبل الفتح وبعده. وهناك العديد من الأدلة على أن هذه الموانئ كانت دائما مكتظة بالسفن والتجار القادمين من اسبانيا[62]. وهذه الحقائق دوَّنها بشكل واضح الكتّاب العرب، فالبكري على سبيل المثال، يذكر هذه المراسي ويدوِّن أسماء الموانئ التي تقابلها على الشاطئ الإسباني والمسافات التي تفصل بينهما. مثال ذلك، مرسى قصر الفلوس الذي يقابل قرطاجنة، ومرسى تنس الذي يقابل سانت بول (Santa Pola) في محافظة لقنت (Alicante)، ومرسى جزيرة وقور الذي يقابل لقنت، ومرسى جنابية الذي يقابل دانية (Denia)، ومرسى الدجاج الذي يقابل ميورقة (Mallorca)، ومرسى عجرود الذي يقابل (Dalias) في محافظة المرية (Almeria)، ومرسى ترنانا الذي يقابل (Pectina) في محافظة المرية، ومرسى جبال تماسمان الذي يقابل مالقة (Malaga)[63] وكانت السلع المختلفة تُجلب من المناطق الداخلية لكي تصدر في هذه المراسي[64]، مثال ذلك، الأنواع المختلفة من الفواكه، وبشكل خاص، التين والسفرجل، وكذلك الزيوت والأصواف، والعسل، والأغنام والمواشي، والقطن من وادي شلف، والكتان من متيجة قرب مدينة الجزائر الحالية، ومن منطقة طبنة، والحديد والزئبق من منطقة وهران، وأخيرا الحنطة والشعير، وهما المادتان الرئيسيتان في التجارة، واللتان كان يؤتى بهما من العديد من المناطق الخصبة في البلاد[65].

---

(62) البكري، المصدر السابق، ص 61، 65 ـ 66، 70، 86.

(63) المصدر نفسه، ص99، 81 ـ 84، 89 ـ 90، 105.

(64) ابن حوقل، المصدر السابق، ص76 ـ 79؛ البكري، المصدر السابق، ص65، 76 ـ 77، 78، 88، 143؛ الإدريسي، المصدر السابق، ص83 ـ 84، 100.

(65) ابن حوقل، المصدر السابق، ص77 ـ 79، 85؛ البكري، المصدر السابق، 65، =

وهناك بعض القبائل غير الزناتية التي كانت تعيش في أماكن مختلفة من هذه المنطقة. فمطغرة كانت تنزل قرب الشاطئ شرقي مصب نهر الملوية حيث تلتقي السفن بالقوافل القادمة من وجدة التي كانت ملتقى الطرق للتجارة الصحراوية في هذه المنطقة[66]. وإلى الشرق قليلا وعلى الشاطئ نفسه كانت هناك أرض قبيلة كومية البربرية[67]، وفي الأجزاء الداخلية سكنت قبيلة مديونة بالقرب من تلمسان، كما فعلت بعض الفروع من قبيلة مغيلة التي استقرت أيضا في منطقة تيهرت[68]. وكانت كل من قبيلتي لواتة ولماية تتجول جنوبيا بالقرب من الصحراء[69]. وبالقرب من مصب نهر شلف وعلى واديه أيضا عاشت تلكانة، وهي فرع من صهناجة. وعلى العكس من بقية صنهاجة البدو الذين كانوا يعيشون في منطقة الصحراء الغربية، فإن بربر هذه المنطقة كانوا تجاراً مستقرين[70]. ولقد كانت هذه المنطقة وما يجاورها من الجبال مأهولة بأبناء القبائل الأخرى، مثل مغيلة، هوارة، مطماطة، أوربة، مطغرة، كتامة، ومكناسة[71]. وامتدت الأراضي التي استقرت فيها كتامة في شمال نوميديا لتشمل إلى الداخل كل المناطق الغربية لبجاية وسطيف[72].

استنادا إلى التقسيم البيزنطي لشمال إفريقيا فإن موريتانيا الطنجية تشمل

= 69 ـ 70؛ الإدريسي، المصدر السابق، ص83، 89، 100، 120؛ ياقوت، المصدر السابق، ج5، ص53.

(66) البكري، المصدر السابق، ص87 ـ 88.

(67) ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص257.

(68) المصدر نفسه، ج6، ص256، ج7، ص25؛ عبيد الله بن صالح، المصدر السابق، ص21؛ مفاخر البربر، ص59.

(69) ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 236، 246.

(70) البكري، المصدر السابق، 68؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 311 ـ 312.

(71) اليعقوبي، المصدر السابق، ص356؛ البكري، المصدر السابق، ص69، 79؛ الإدريسي، المصدر السابق، ص85؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص ص252، 255، 256.

(72) الاصطخري، المسالك، ص39 ـ 40؛ ابن حوقل، المصدر السابق، ص93؛ البكري، المصدر السابق، ص65، 70؛ ياقوت، المصدر السابق، ج3، ص220، ج5، ص106.

سبتة والمناطق المحيطة بها فقط[73]. ولهذا فإنه من المستحسن أن يُبحث استيطان البربر في المناطق الواقعة اليوم ضمن المغرب، تبعا للتقسيم العربي لهذه البلاد. فالمناطق الشمالية من المغرب الواقعة بين نهر الملوية والمحيط الأطلسي كانت تدعى بالمغرب الأقصى[74]. وأُطلق على الأراضي التي تمتد جنوبا إلى الصحراء اسم السوس. وكانت هذه المنطقة بدورها مقسومة إلى قسمين: السوس الأدنى، الذي يشمل أيضا الأجزاء الجنوبية من المغرب الأقصى، والسوس الأقصى الذي يضم كل المناطق التي تقع إلى الجنوب[75].

إن هذه المنطقة الواسعة المساحة، كانت مأهولة بقبيلتين كبيرتين، وهما مصمودة وصنهاجة. أما غمارة، أشهر بطون مصمودة، فقد سيطرت على سهول البحر المتوسط ومعظم أجزاء جبال الريف، ومناطق المضايق الواقعة بين سبتة وطنجة[76]. وهذه المنطقة كانت مسكونة أيضا من قبل العديد من أفراد القبائل الأخرى[77]، مثل صنهاجة، مطغرة، ملوثة، هوارة، لواتة،

(73) Ch. - A. Julien: History of North Africa, translated by John Petric. London 1970, p. XI. Abu-n-Nasr: op.cit. p. 56.

(74) ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص201.

(75) ابن الفقيه الهمداني، مختصر كتاب البلدان، ليدن، 1885، ص81؛ الاصطخري، المسالك، ص39؛ المقدسي، المصدر السابق، ص216، 222؛ ياقوت، المصدر السابق، ج3، ص281، ابن عذارى؛ المصدر السابق، ج1، ص 5، 6، 26، 42 ـ 44؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص ص119، 189، 194، 199؛ الجزنائي، جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، الرباط، 1967، ص6 ح الاستبصار، ص ص211 ـ 212.

(76) البكري، المصدر السابق، ص90 ـ 91، 100، 104، 106 ـ 108، 109 ـ 110؛ الإدريسي، المصدر السابق، ص 170 ـ 171 ح عبيد الله بن صالح، المصدر السابق، ص 24 ـ 25؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 436 ـ 437، 439؛ الاستبصار، ص136.

(77) البكري، المصدر السابق، ص104، 106، 107، 108، 109 ـ 110، 112؛ الإدريسي، المصدر السابق، ص169؛ ابن عذارى، المصدر السابق، ج1، ص ص26، 52؛ عبيد

أوربة، وجماعات من كتامة كانت تنتسب إلى مصمودة[78].

لقد كان بربر مصمودة فلاحين مستقرين بالدرجة الأولى، وهذه الحقيقة تصدق أيضا بالنسبة إلى أولئك الذين سكنوا شمالي المغرب الأقصى، وبشكل خاص، المناطق الخصبة[79]. كما أن التجارة ازدهرت أيضا فيما بينهم، حيث كان نظام الأسواق السنوية والأسبوعية في مختلف مدنهم وقراهم[80]. واشتهرت سبتة باعتبارها مركزاً لتجارة المرجان الذي كان من أهم المواد المحمولة بين الصحراء وغانة وبلاد السودان[81]. أما بالنسبة إلى التجارة الخارجية، فإن موانئ سبتة وطنجة ومليلة كانت من أعظم المراكز التجارية بين إسبانيا وشمالي المغرب الأقصى[82]. وقد كانت للبربر القاطنين في هذه المنطقة علاقات وثيقة مع من يقابلهم في الجانب الإسباني. فبالإضافة إلى سبتة ومليلة وطنجة، استعمل البربر مراسي أخرى صغيرة على المضايق من أجل ربط الشاطئين. فمرسى مصمودة، على سبيل المثال، كان يُسمى مرسى قصر مصمودة[83]، بينما كانت صنهاجة تسيطر على مرسى بالش[84]، وجراوة على المرسى المسمى باسمها. وفي الحقيقة فإن السفن التجارية كانت موجودة بشكل كبير في المضايق زمن الفتح الإسلامي، ولهذا فقد كان من السهل على القائد طارق بن زياد أن ينفذ خطة الفتح الإسلامي

الله بن صالح، المصدر السابق، ص22، 25؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص239.

(78) البكري، المصدر السابق، ص 106 ـ 108، 112 ـ 113؛ الإدريسي، المصدر السابق، ص73، 147، 170.

(79) البكري، المصدر السابق، ص 88، 90، 92؛ ياقوت، المصدر السابق،ج1، ص213.

(80) ابن حوقل، المصدر السابق، ص76؛ الإدريسي، المصدر السابق، ص168.

(81) ابن حوقل، المصدر السابق، ص76 ح البكري، المصدر السابق، ص89، 109؛ الإدريسي، المصدر السابق، ص167 ـ 168.

(82) المصدر نفسه، ص166، 168.

(83) البكري، المصدر السابق،ص90.

(84) المصدر نفسه، ص89.

لإسبانيا والعبور مستخدماً السفن التجارية[85].

سيطرت برغواطة، وهي فرع آخر لمصمودة، على سهول المحيط الأطلسي الممتدة من وادي سبو إلى جنوبي نهر أم الربيع. وهذه البلاد كانت تدعى بالسوس الأدنى، أو بلاد تامسنا[86]. أما دكالة، وهي أيضا من مصمودة، فقد عاشت في جنوبي منطقة مدينة مراكش الحالية[87].

وتعد أغلبية قبائل مصمودة من سكنة الجبال، ويطلق على موطنهم اسم جبل درن[88]، أي جبال الأطلس في بلاد المغرب الحالية. إن هذه المنطقة الجبلية كانت دائماً مأهولة بسكان مستقرين، اشتهروا بمنتجاتهم الزراعية والحيوانية. ولهذا فقد كانت محط أنظار التجار من كل مكان[89]. أما القبائل الأخرى من مصمودة وبطونها مثل هسكورة، فقد استوطنت المناطق السهلية الخصبة المجاورة غربا حتى المحيط الأطلسي، وجنوبا إلى وادي السوس. واشتهرت هذه المنطقة أيضا بمراكزها التجارية سواء في المناطق الداخلية أو على السواحل[90].

وإلى جانب مصمودة كان المغرب الأقصى يزخر بالعديد من القبائل البربرية الأخرى. ففي الشرق، كان وادي الملوية منذ القدم موطنا لمكناسة، التي انتشرت قبائلها في أعالي هذا الوادي قرب منطقة سجلماسة، وحتى

---

(85) الرقيق القيرواني، المصدر السابق، ص74؛ ابن عذارى، المصدر السابق، ج2، ص6.

(86) البكري، المصدر السابق، ص140 ـ 141 ح ابن عذارى، المصدر السابق، ج1، ص ص26، 57؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 428 مفاخر البربر، ص47.

(87) ياقوت، المصدر السابق، ج2، ص459؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص556.

(88) البكري، المصدر السابق، ص160؛ الإدريسي، المصدر السابق، ص، 57، 63، 64، 70؛ ياقوت، المصدر السابق، ج2، ص452 ح ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص ص201، 217، 428، 437، 461؛ مفاخر البربر، ص76؛ الاستبصار، ص211؛ الجمان، الورقة، 98أ.

(89) البكري، المصدر السابق، ص 160 ـ 161؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص461.

(90) البكري، المصدر السابق، ص152 ـ 153، 161 ـ 162، 163؛ الإدريسي، المصدر السابق، ص62 ؛المصدر السابق، ابن خلدون، ج6، ص552.

المصب على البحر المتوسط[91]. ومن الجدير بالملاحظة، أنه على الرغم من هذه البيئة الزراعية، فإنّ بربر مكناسة كانوا بدواً في هذه المنطقة[92].

وإلى الغرب من وادي الملوية، وبشكل خاص قرب المنطقة الخصبة المحيطة بمدينة فاس الحالية، استوطنت مجموعات هائلة من القبائل البربرية. لقد كان هذا المكان موطنا آخر للالتقاء ومركزا تجاريا مهما للقوافل القادمة من الجنوب والغرب متوجهة نحو الشرق والشمال[93]. يُضاف إلى ذلك اشتهار هذه المنطقة بمناجم الذهب الموجودة بالقرب من تازى[94]. وتعد كل من صنهاجة، مغيلة، كتامة، غمارة، هوارة، أوربة، مكناسة، زرهونة، مطماطة، وزواغة، من أهم القبائل التي استقرت في هذا المكان[95]. وهناك جماعة أخرى من هوارة كانت تعيش بالقرب من منطقة أغمات، وكان أفرادها بشكل خاص تجاراً أغنياء بسبب ازدهار علاقاتهم التجارية مع السودان في الجنوب[96]. أما بالنسبة إلى زناتة، فيذكر ابن خلدون أن هناك الكثير منهم في المغرب الأقصى[97]، وكانت أراضيهم تمتد خلف جبال الأطلس في السهول المتاخمة للصحراء في جنوب شرقي وادي الملوية[98]. ومع هذا فإن بعضهم يمكن أن يكون في منطقة مراكش والسوس[99].

(91) البكري، المصدر السابق، ص88، 93، ج6، ص ص202، 265.

(92) المصدر نفسه، ج6، ص273.

(93) البكري، المصدر السابق، ص117، 149 ـ 142، 155؛ الإدريسي، المصدر السابق، ص79 ـ 81.

(94) البكري، المصدر السابق، ص118.

(95) المصدر نفسه، ص111، 113 ـ 114 ـ 117 ـ 147؛ الإدريسي، المصدر السابق، ص76 ـ 77، 78؛ ياقوت، المصدر السابق، ج1، ص 278؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص ص251، 255، 264.

(96) الإدريسي، المصدر السابق، ص66.

(97) ابن خلدون المصدر السابق، ج7، ص4.

(98) البكري، المصدر السابق، ص147.

(99) ابن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص100.

انتشرت قبائل صنهاجة البربرية في معظم أنحاء المغرب الأقصى والسوس، ولكن تجمعاتها الرئيسية كانت تعيش في منطقة سجلماسة ووادي درعة، ووادي السوس، وكذلك في المناطق الجنوبية في الصحراء وما وراءها حتى تخوم ممالك السودان وغانة. ويوصف هؤلاء البربر في مصادرنا عادة بأنهم رعاة للإبل، يضعون اللثام على وجوههم، ويعيشون حياة بدوية خالصة في المنطقة الغربية من الصحراء الكبرى[100]. لقد كان هؤلاء البربر على بينة من أهمية موقعهم بالنسبة لطرق التجارة بين جنوبي الصحراء وبقية الشمال الإفريقي، ومع هذا فليس لدينا دليل قوي على ممارسة هؤلاء لهذه التجارة بأنفسهم. بل على العكس، فإنّنا نجد بعضا من فروعهم، وبشكل خاص، لمطة، وجزولة، قد اعتادوا على مهاجمة القوافل التي تمر بالقرب من واحاتهم بين السوس والسودان[101]. ولهذا فقد كان على القوافل التجارية أن تضمن سلامتها بدفع رسوم معينة إلى بربر صنهاجة عن الجمال والأحمال التي تغادر أرض السودان أو تعود إليها[102].

وعلى الرغم من هذا فلقد كانت التجارة مزدهرة في منطقة الصحراء الغربية منذ مئات السنين قبل الفتح العربي الإسلامي، واستمرت هكذا لعدة قرون فيما بعد الفتح[103]. فإلى جانب الذهب والملح، وهما مادتان مهمتان

(100) اليعقوبي، المصدر السابق، ص359 ـ 360؛ ابن حوقل، المصدر السابق، ص97، 98، 99؛ البكري، المصدر السابق، ص149، 164، 157، 172؛ الإدريسي، المصدر السابق، ص58 ـ 59؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ص370 ـ 371.

(101) البكري، المصدر السابق، ص157، 161؛ ياقوت، المصدر السابق، ج2، ص312؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص240.

(102) ابن حوقل، المصدر السابق، ص99.

(103) المصدر نفسه، ص96؛ الإدريسي، المصدر السابق، ص4، 6، 8، 11، 12، 31، 32؛ ياقوت، المصدر السابق، ج2، ص ص12 ـ 13، ج4، ص184؛
H. Terrasse: History of Morocco, translated by Hilary Tee, Casablanca, 1962, p. 46.

في التجارة الصحراوية[104]، نقل التجار العديد من المواد والبضائع إلى الصحراء والسودان، كالحبوب، والفواكه، والزيت، والملابس، والمرجان، والخرز، والأصواف، والآس[105]. وبالمقابل حملوا العاج، والعنبر، والدروق الجلدية، والعقيق، والشب، والصمغ[106]، إلى الشمال من المغرب الأقصى حيث تقع الموانئ التجارية الكبيرة التي تربط هذا الجزء من الشمال الإفريقي بإسبانيا. ومن جهة أخرى، فقد ساهمت موانئ المحيط الأطلسي بجزء كبير من هذه التجارة الصحراوية، حيث كانت اتصالاتها بالدرجة الأولى مع السواحل الغربية من إسبانيا[107].

مما تقدم يمكننا استخلاص عدة حقائق عن استيطان البربر في شمال إفريقيا. فمجموعات البربر الرئيسية يمكن أن تُصنف تبعا لمواقع استيطانها، ولفعالياتها في أماكن معينة من شمال إفريقيا. وبطبيعة الحال هناك بعض الاستثناءات، من ذلك مثلا، وجود عشائر معينة في مناطق مأهولة بشكل رئيس بقبائل مختلفة. ولكن هذا لا يمكن أن يحجب حقيقة انقسام الشمال الإفريقي إلى عدة مناطق نفوذ بربرية. فمواقعهم سواء كانت على الشاطئ أو في الداخل، أو في كلا المنطقتين، هي التي حددت علاقاتهم بالجماعات الأخرى. فكان على أولئك الذين يسيطرون على الساحل فقط، والجماعات التي كانت سيطرتها مقتصرة على الداخل بدون أية منافذ على البحر، أن

---

(104) الاصطخري، المسالك، ص39؛ الاصطخري، كتاب الأقاليم، Gotha، 1939، ص20؛ ابن حوقل، المصدر السابق، ص98 ح المقدسي، المصدر السابق، ص231؛ البكري، المصدر السابق، ص158، 171، 173، 174، 176 ـ 179، 183؛ الإدريسي، المصدر السابق، ص8، ياقوت المصدر السابق، ج2، ص ص12 ـ 13، ج3، ص192.

(105) البكري، المصدر السابق، ص158، 159، 171؛ الإدريسي، المصدر السابق، ص3؛ ياقوت، المصدر السابق، ج2، ص12.

(106) ابن حوقل، المصدر السابق، ص76، البكري، المصدر السابق، ص158 ـ 159، 171، 171، 173، 177، 182 ـ 183؛ الإدريسي، المصدر السابق، ص59، 168.

(107) الاصطخري، المسالك، ص39؛ البكري، المصدر السابق، ص153، 158؛ الإدريسي، المصدر السابق، ص73.

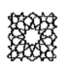
يتعاونوا مع من يحيط بهم لأجل استمرار تجارتهم في كلتا المنطقتين. وبدون مثل هذا التعاون كان من الصعب على قاطني الصحراء أن يصلوا إلى الساحل، وعلى سكان الشواطئ أن يستفيدوا من التجارة في أراضيهم وموانئهم. وتعد قبائل لواتة في الجهات الشرقية محظوظة في هذا المجال لأن مناطق استيطانهم كانت تمتد على سواحل طرابلس الغرب (Tripolitania) وبرقة (Cyrenaica)، هذا بالاضافة إلى سيطرتهم على كل المناطق الداخلية الممتدة إلى الصحراء. وبعبارة أخرى، فقد كانوا في موقف فريد ساعدهم على المساهمة والسيطرة بأنفسهم على الفعاليات التجارية بين السودان في الجنوب، وموانئ البحر المتوسط على الساحل، إضافة إلى مصر في الشرق. ولقد سيطرت بشكل رئيس قوتان على المناطق الساحلية التي تقع اليوم ضمن أراضي الجزائر: وهما كتامة في الشرق، وزناتة في الغرب. وعلى العكس من كتامة، فإن قبائل زناتة توغلت في الجهات الجنوبية نحو الصحراء، ولكن ليس إلى حدود بلاد السودان، حيث كانت قبائل صنهاجة هي التي تسيطر هناك على كل المناطق الصحراوية، ويمتد نفوذها نحو الجهات الغربية والجنوبية الغربية من المغرب، أي السوس الأقصى ووادي درعه. ومن الواضح أن مناطق نفوذ صنهاجة تركزت بالدرجة الأولى في المناطق الداخلية. وكذلك سيطرت مصمودة، وهي أيضا من القبائل القوية، على المناطق الداخلية الواقعة ضمن منطقة جبال الأطلس. وكان على مصمودة أن تتعاون مع فروعها على ساحل المحيط الأطلسي، وبشكل خاص، هسكورة، وبرغواطة، وغمارة، في منطقة المضائق وساحل البحر المتوسط، هذا بالإضافة إلى قبائل مكناسة الكبيرة التي كانت تسيطر على وادي نهر الملوية، الذي يعد مفترق طرق بين المغرب الأقصى والمغرب الأوسط، أي المناطق الشمالية من الجزائر الحالية.

مصادر البحث ومراجعه

* الإدريسي، كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ليدن، 1866.
* الاستبصار في عجائب الأمصار، (مجهول المؤلف)، تحقيق: سعد زغلول عبد الحميد، الإسكندرية، 1958.
* الاصطخري، كتاب الأقاليم، Gotha، 1939.
* الاصطخري، كتاب المسالك والممالك، ليدن، 1870.
* الوزير السراج الأندلسي، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تونس، 1287هـ.
* البلاذري، فتوح البلدان، ليدن، 1866.
* البكري، المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب، الجزائر، 1857.
* التجاني، رحلة التجاني، تحقيق: حسن حسني عبد الوهاب، تونس، 1958.
* الجزنائي، جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، الرباط، 1967.
* ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة، 1962.
* ابن حوقل، صورة الأرض، بيروت، 1979.
* ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثالث، تحقيق: حسن حسني عبد الوهاب، بالرمو، 1910 ـ 1914.
* ابن خلدون، كتاب العبر، بيروت، 1956 ـ 1961.
* الدباغ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق: إبراهيم شبوح، القاهرة، 1968، ج1.
* ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، تحقيق: محمد شمام، تونس، 1967.
* ذكر حدود بلاد إفريقية، (مجهول المؤلف)، مخطوط الخزانة العامة في الرباط، رقم: 787 د.
* الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق: المنجي الكعبي، تونس، 1968.
* السلاوي، الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى، الدار البيضاء، 1954.

* الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ليدن، 1879 ـ 1901.
* ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، نيوهيفن، 1922.
* ابن عذارى، البيان المغرب، ليدن، 1948.
* ابن فضل الله العمري، وصف إفريقية والمغرب والأندلس، تحقيق: حسن حسني عبد الوهاب، تونس.
* عبيد الله بن صالح، كتاب الأنساب، مخطوط الخزانة العامة في الرباط، رقم: 1275 ك.
* الفاسي، الجمان في أخبار الزمان، مخطوط المكتبة الوطنية في تونس، رقم: 18407.
* ابن فقيه الهمداني، مختصر كتاب البلدان، ليدن، 1885.
* الكندي، كتاب الولاة والقضاة، بيروت، 1908.
* المالكي، رياض النفوس، ج1، تحقيق: حسين مؤنس، القاهرة، 1951.
* المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، امستردام، 1968.
* المسعودي، مروج الذهب، تحقيق: محيي الدين عبد الحميد، بيروت، 1973، ج2.
* مفاخر البربر، (مجهول المؤلف)، نشر: ليفي بروفسنال، الرباط، 1937.
* المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن، 1906.
* ياقوت، معجم البلدان، بيروت، 1957.
* اليعقوبي، كتاب البلدان، ليدن، 1892.
* Abu-n-Nasr: A History of the Maghrib, Cambridge, 1971.
* The Cambridge History of Islam, Cambridge, 1970.
* B. Davidson: Africa in History, London, 1968.
* E. I. 2: Encyclopedia of Islam, 2nd edition.
* Ch. -A. Julien: History of North Africa, London, 1970. .
* العبادي (أحمد مختار) من تاريخ الأندلس والمغرب، الإسكندرية، مؤسسة الثقافة الجامعية.

اتجاهات الجهد العسكري العربي ـ الإسلامي في جبهة المغرب



ألقي البحث في ندوة تاريخ العرب العسكري
التي نظمت في بغداد أيلول (سبتمبر) 1981

للجهد العسكري العربي الإسلامي في جبهة المغرب طبيعة خاصة تختلف عن بقية الإنجازات العسكرية العربية في المشرق. فقد استغرق العرب وقتا طويلا يزيد على سبعين سنة في إتمام تحرير شمال إفريقيا من السيطرة البيزنطية، ومقاومة البربر. وإذا ما تذكرنا أن تحرير العراق وبلاد الشام ومصر قد أنجز في سنوات قليلة جداً تبين لنا مدى الفرق الشاسع في هذا المضمار. فهل كان في التوجه إلى تحرير شمال إفريقيا أو المغرب ما يستحق مثل هذا العناء؟

وقبل الإجابة على هذا السؤال يستحسن تحديد المصطلحات التي سترد في هذا البحث. إن اصطلاح شمال إفريقيا يعد مرادفا لكلمة المغرب التي

استعملها الجغرافيون والمؤرخون العرب لوصف معظم المناطق التي تمتد من حدود مصر الغربية حتى شواطئ المحيط الأطلسي[1]. وسوف يُستعمل اصطلاح شمال إفريقيا في هذا البحث ليشمل كل الأراضي التي تقع اليوم ضمن ليبيا، تونس، الجزائر، والمغرب. ولقد استعمل العرب أيضا لفظة (إفريقية) التي تختلط أحيانا بالمفهوم الكلي لكلمة (المغرب)[2]. ولكن أصبح واضحا فيما بعد أن (إفريقية) تعني تقريبا كل المنطقة التي تشمل تونس الحالية، وقسما من شرقي الجزائر[3].

ولنرجع الآن إلى سؤالنا السابق لتوضيح العوامل التي دفعت العرب إلى التوجه نحو المغرب. والحق أنه لا يمكن تصور خط فاصل بين أسباب توجه العرب نحو تحرير مناطق المشرق، وبين تحريرهم لمناطق المغرب. فرسالة العرب واحدة تكمن في نشر مبادئ الإسلام بين الشعوب المجاورة وتحريرها من السلطة الأجنبية، وهي نابعة من حقيقة شعور العرب بمسؤولياتهم إزاء هذه الشعوب، لأنهم حملة رسالة سماوية مقدسة. ولكن تبقى للمغرب خصوصية معينة حفزت العرب على مد نشاطهم العسكري إليه. فلقد أنجز العرب تحرير مصر من سلطة البيزنطيين، وما أن تم لهم ذلك، لا سيما بعد سقوط الإسكندرية في عام 22هـ/642م، حتى أدركوا أن الحفاظ على ما حققوه في مصر لا يتم إلا بالقضاء على كل خطر محتمل يهدد سلامة الوجود العربي فيها. لقد كان الخطر يكمن في قوة البيزنطيين البحرية، وفي

(1) ابن حوقل، صورة الأرض، بيروت، دار مكتبة الحياة، 1979، ص64 ـ 65؛ المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، نشر: دي غويه، ليدن، 1906، ص216؛ ابن عذاري، البيان المغرب، نشر: كولن وليفي بروفنسال، ليدن 1948: 1/5.

(2) البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، نشر: دي سلان، الجزائر، 1857، ص21؛ ابن عذارى، المصدر السابق: 1/5؛ مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق: سعد زغلول عبد الحميد، الإسكندرية، 1958، ص111 ـ 112.

(3) ينظر: ياقوت، معجم البلدان، بيروت، 1957: 1/228؛ العمري، وصف إفريقية والمغرب والأندلس، تحقيق: حسن حسني عبد الوهاب، تونس، (د.ت) ص2.

وجود قواعدهم الحصينة في الشمال الإفريقي. وهذا بطبيعة الحال يهدد الوجود العربي الإسلامي في مصر، فكان لا بد من إجراءات حاسمة تدفع الخطر عن العرب، وتحافظ على ما حققوه من انتصارات في بلاد الشام وفي مصر.

المحاولات العسكرية العربية الأولى في شمال إفريقيا:

كان الحفاظ على ما حققه العرب المسلمون من إنجازات في بلاد الشام ومصر إذاً، هو الهدف المباشر لعملياتهم العسكرية الأولى في شمال إفريقيا أو المغرب. فما هي طبيعة هذه العمليات، وما هي النتائج التي حققتها بالنسبة للجهد العسكري العربي في المنطقة؟ وللإجابة على هذا السؤال يجب استعراض أهم هذه العمليات وتحليلها، والبدء بالإشارة إلى أن حملة عمرو بن العاص كانت الأولى في هذا المضمار. فقد خرج من مصر على رأس جيش يقدر بنحو أربعة آلاف رجل، ودخل برقة دون أن يلاقي أية مقاومة، وعقد مع سكانها من بربر لواتة صلحا تعهدوا بموجبه أن يدفعوا جزية مقدارها ثلاثة عشر ألف دينار.[4] ومن برقة أرسل عمرو حملة إلى زويلة في الصحراء بقيادة عقبة بن نافع الفهري. وقد تكللت هذه الحملة بالنجاح، وأصبح العرب يسيطرون على كل الأراضي الواقعة بين برقة وزويلة[5]. وفي الوقت نفسه واصل عمرو بن العاص حملته على الساحل، فعقد معاهدة أخرى مع مدينة أجدابية، تعهد سكانها بموجبها أن يدفعوا جزية مقدارها خمسة آلاف دينار[6]. وعندما تقدم العرب نحو طرابلس جوبهوا

---

(4) ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، نشر: شارلس توري، نيوهيفن، 1922، ص170؛ البلاذري، فتوح البلدان، نشر: دي غويه، ليدن، 1866، ص222؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، نشر: دي غويه، ليدن، 1879 ـ 1901، 1/ 2645؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 1/ 8.

(5) ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص171؛ فتوح البلدان، ص 224 ـ 225؛ البكري، المصدر السابق، ص11.

(6) ياقوت، المصدر السابق: 1/ 100.

بمقاومة قوية من حاميتها البيزنطية التي تلقت مساعدات من البربر الساكنين في المنطقة، ومن قبائل نفوسة المسيحية على وجه التخصيص. لكن العرب استطاعوا أن يحرروا المدينة بعد حصار دام أكثر من شهر، فالتجأت الحامية البيزنطية إلى سفنها في البحر[7]. وفي أثناء حصار طرابلس أرسل عمرو عدة حملات صغيرة إلى المناطق المجاورة على الساحل، كما استطاعت قوات أخرى أن تتوغل توغلا ملحوظا في الداخل. وقد عين عمرو قبل أن يعود إلى مصر عقبة بن نافع الفهري عاملا على برقة[8].

يتضح مما تقدم أن حملة عمرو بن العاص إلى ليبيا لم تكن أكثر من حملة صغيرة قُصد منها جس النبض والاستطلاع، ولم يرافقها أي استقرار للعرب في المناطق التي دخلوا إليها. وربما استقر بعضهم في برقة مع عقبة ابن نافع، لكن المناطق الأخرى ظلت دون وجود عربي، بل سرعان ما استعاد البيزنطيون طرابلس واستمروا في تهديدهم للعرب في مصر. ومن المحتمل جدا أن هذا الأمر كان الدافع الأساس لتفكير الخليفة عثمان بن عفان، رضي الله عنه، في مواصلة عمليات التحرير في جبهة المغرب. فعين عبد الله بن سعد بن أبي سرح بدلا من عمرو بن العاص على ولاية مصر سنة 25هـ/ 645م، وكلفه بالقيادة العامة لحملة أخرى يقوم بها العرب على شمال إفريقيا. وقد تألفت هذه الحملة من إمدادات بعث بها الخليفة عثمان من منطقة الحجاز[9]، فضلا عن مشاركة رجال القبائل العرب الذين كانوا

---

(7) ابن عبد الحكم،المصدر السابق، ص171؛ فتوح البلدان، ص225؛ البكري، المصدر السابق،ص8 ـ 9؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 1/ 8.

(8) فتوح البلدان، 224؛ ياقوت، المصدر السابق: 4/ 420؛ النويري، نهاية الأرب، نشر: جاسبار راميرو، غرناطة، 1917، ج22، القسم الثاني، ص22.

(9) ينظر: ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص183؛ فتوح البلدان، ص226؛ أبو العرب، طبقات علماء إفريقية وتونس، تحقيق، علي الشابي وحسن اليافي، تونس، 1968، ص 68 ـ 69؛ المالكي، رياض النفوس، تحقيق، حسين مؤنس، القاهرة، 1951، ج1، ص9 ـ 10.

موجودين في مصر[10]، والتحاق الحامية العربية الموجودة في برقة بقيادة عقبة بن نافع بهذه الحملة أيضا[11]. ومن الجدير بالذكر أن العرب أعدوا لهذه الحملة إعدادا جيدا، حتى إنهم استفادوا من بعض الأقباط المصريين، فاصطحبوهم معهم ليعملوا أدلاء ومستشارين بسبب معرفتهم واطلاعهم على المنطقة[12].

ويبدو أن هدف ابن أبي سرح في هذه الحملة كان موجها بالدرجة الأولى إلى القضاء على قوة البيزنطيين الرئيسة في منطقة إفريقية (تونس الحالية). فقد توجهت الحملة مباشرة إلى هذه المنطقة، والتقت بالقوات البيزنطية بقيادة الحاكم البيزنطي جرجير (G regory) في سبيطلة، التي تقع على بعد مئة واثني عشر كيلومتراً جنوب غرب القيروان الحالية. وبعد معركة فاصلة انهزم البيزنطيون، وقتل جرجير، ولاحق العرب المنهزمين في المناطق المجاورة، وحاصروهم في قلعة الجم (Thysderas) ولكن البيزنطيين فاوضوا ابن أبي سرح، ودفعوا له مبلغا كبيرا من المال، يبلغ مليونين وخمسمئة ألف دينار، أو ما يعادل ثلاث مئة قنطار من الذهب، شريطة أن يغادر العرب البلاد. ولقد وافق ابن أبي سرح على ذلك، ورجع إلى مصر في عام 28هـ/ 638م[13].

إن رجوع ابن أبي سرح السريع إلى مصر يثير تساؤلات عديدة، بعد أن

---

(10) ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص184، 186؛ أبو العرب؛ المصدر السابق، ص50؛ عبد الرحمن الدباغ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق: إبراهيم شبوح، القاهرة، 1968، ج1، ص77 ـ 78.

(11) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت، 1965 ـ 1966، 3/ 89؛ السلاوي، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصا، الدار البيضاء، 1954، 1/ 75.

(12) المالكي، المصدر السابق: 1/ 11، معالم الإيمان : 1/ 34.

(13) ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص183؛ فتوح البلدان (برواية الواقدي)، ص227؛ الطبري، المصدر السابق، (برواية الواقدي) : 1/ 2818؛ ياقوت، المصدر السابق : 1/ 229 ح ابن عذاري، المصدر السابق : 1/ 10 ـ 14.

حقق انتصارا كبيرا على البيزنطيين، وكسر شوكة جيشهم في إفريقية. فهل كان يخشى أن يعود البيزنطيون لحرب العرب بقوة جديدة؟ ويمكن الإجابة على هذا السؤال بأن معركة سبيطلة ـ على الرغم من أهميتها ـ لم تفتح الأبواب كاملة للعرب لتحرير منطقة تونس، فلقد كانت للبيزنطيين قواعد مهمة أخرى على الساحل، مثل قرطاج وغيرها. وكان ابن أبي سرح يدرك أن جيشه لا يكفي لهذه المهمة الصعبة، التي تحتاج إلى قوة بحرية وأسطول عربي فعال. يُضاف إلى ذلك، أن الجيش العربي حصل على غنائم كبيرة جدا، ربما كانت عاملا في عدوله عن خوض أية معركة أخرى. وإلى جانب هذا، كان من غير المحتمل في ذلك الوقت المبكر، أن يكون العرب راغبين بتأسيس أية قواعد دائمة غربي مصر. ولهذا فقد غادر ابن أبي سرح إفريقية مكتفيا بما حققه من انتصار، وغنائم لمقاتليه ولبيت المال في المدينة. ويمكننا القول إن حملته لا تعدو أن تكون غارة طويلة استمرت نحو خمسة عشر شهرا، ولم تحقق نتائج حاسمة على المدى البعيد[14].

ومما زاد في تجميد الوضع العسكري العربي في شمال إفريقيا، حدوث الحرب الأهلية الأولى وقيام الفتنة بعد مقتل الخليفة عثمان، مما عطل العرب عن القيام بأية حملات إلى المنطقة لمدة ثلاثة عشر عاما. ولكن بعد انتهاء هذه الفتنة واستلام معاوية بن أبي سفيان أمور الخلافة سنة 41هـ/ 661م، ابتدأ العرب موجة جديدة من الفتوحات. وبالنسبة إلى مصر، فقد عهدت ولايتها مرة ثانية إلى عمرو بن العاص الذي باشر بإرسال الحملات إلى شمال إفريقيا[15]. ولكن كان على العرب أن يبدأوا من الصفر أيضا، فلقد جوبهوا بمقاومة عنيفة من قبل البربر، وربما يعود السبب في هذا إلى طول غيبة العرب عن مسرح الأحداث. وكان من جملة القادة الذين ساهموا بقيادة

(14) See: Abdul Wahed Taha, The Muslim Conquest and Settlement of North Africa and Spain, Rotledge, London-New York, 1989, p.58.

(15) الكندي، الولاة والقضاة، بيروت، 1908، ص31 ـ 32.

الحملات، عقبة بن نافع، وشريك بن سمي المرادي. ولم تثمر حملات هذين القائدين إلا عن افتتاح بعض المناطق الصغيرة والواحات البعيدة، مثل غدامس، وودان، ولم تعزز الوجود العربي في المنطقة إلا بمقدار ضئيل جدا(16).

ويمكن أن يقال الشيء نفسه عن الحملة التي قادها معاوية بن حديج السكوني، الذي ولاه معاوية على مصر. فلقد حاول هذا القائد أن يسلك الطريق التي سار فيها ابن أبي سرح نفسها، فخرج بجيش قوامه نحو عشرة آلاف رجل إلى قرب مكان القيروان الحالية. ثم اتخذ منطقة القرن مركزا لعملياته العسكرية(17)، التي وجهها نحو البيزنطيين في كل من سوسة، وحصن جلولاء الذي يبعد نحو ثمانية وثلاثين كيلومتراً عن القيروان، وبنزرت على الساحل(18). ولكن الغريب أن ابن حديج أخلى مدينة بنزرت بعد أن دخلها، وانسحب بجيشه إلى مصر دون أن يحاول الاستفادة من انتصاراته العسكرية. ولا يمكن أن نجد مسوغا معقولا لهذا التصرف، لا سيما وأن البيزنطيين كانوا في ذلك الوقت في حالة ضعف وعدم استقرار في شمال إفريقيا بسبب محاولة حكومتهم فرض ضريبة جديدة على الأهالي مساوية لما دفعوه سابقا لابن أبي سرح(19). وعلى أي حال، إن انسحاب ابن

(16) عن هذه الحملات انظر:
خليفة بن خياط، تاريخ خليفة، تحقيق: أكرم ضياء العمري، النجف، 1967: 1/ 190؛ ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: علي محمد البجاوي، القاهرة، (د.ت): 3/ 1076؛ ابن الأثير، المصدر السابق: 3/ 419؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 1/ 15.

(17) ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص193؛ المالكي: ، المصدر السابق : 1/ 18؛ النويري: 2، المصدر السابق: 22/ 9 (القسم الثاني).

(18) البكري، المصدر السابق، ص32 ـ 35، 58؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 1/ 16؛ المالكي، المصدر السابق: 1/ 19.

(19) ينظر: الطبري، المصدر السابق: 1/ 2818؛ ابن الأثير، المصدر السابق: 3/ 92 ح ابن عذاري، المصدر السابق: 1/ 17.

حديج يثبت أن حملته لم تكن سوى غزوة طويلة الأمد، تماثلها الغزوة التي قام بها ابن أبي سرح، وأن العرب حتى ذلك الوقت لم يفكروا جديا في الاستقرار في شمال إفريقيا، بل كان همهم الأول موجها إلى تأمين سلامة حدود مصر الغربية. وبطبيعة الحال، فلقد كان افتقارهم إلى أسطول قوي في البحر المتوسط، سببا آخر لعدم مواجهتهم الجدية للوجود البيزنطي في شمال إفريقيا. هذا فضلا عن المشاكل والفتن الداخلية التي جابهتهم في هذه الفترة. فليس من الغريب إذاً أن تخفق محاولات العرب الأولى هذه في تحقيق نتائج إيجابية على صعيد تحرير المغرب العربي.

المحاولات الجادة لتثبيت الوجود العربي في شمال إفريقيا:

ويمكن أن نعد تعيين عقبة بن نافع الفهري سنة 50هـ/ 670م على ولاية إفريقية بداية لمحاولات العرب الجادة في مضمار فتح شمال إفريقيا وتحريرها. لقد كان هذا القائد العربي من الرجال العارفين بشؤون المنطقة، فلقد دخل مصر لأول مرة مع عمرو بن العاص، وشارك منذ ذلك الوقت في معظم الحملات والعمليات العسكرية في شمال إفريقيا. وهذه المؤهلات كانت دون شك العامل الأساسي في اختياره لتنفيذ هذه المرحلة المهمة من مراحل الجهد العربي العسكري في جبهة المغرب.

لقد كانت سياسة عقبة الرئيسة هي عدم الدخول في معركة فاصلة مع البيزنطيين على الساحل، لأنه أدرك أن القوة الحقيقية في شمال إفريقيا هي القبائل البربرية، ولهذا كان على العرب أن يحرروا البربر أولا، ثم يتعاونوا معهم من أجل تحرير بقية البلاد، ودحر البيزنطيين في قاعدتهم القوية قرطاج. ويبدو هذا الاتجاه واضحا في حملات عقبة السابقة في داخل الصحراء، وكذلك في سياسته الجديدة التي هدفت إلى إيجاد قاعدة دائمة للعرب في إفريقية.

كان عقبة يدرك، نتيجة لخبرته الطويلة في المنطقة، أهمية الحاجة إلى

استقرار العرب في شمال إفريقيا ليضمنوا عدم تمرد البربر في حالة انسحاب جيوشهم. وفي الوقت نفسه فتأسيس مدينة تضم الحامية العسكرية العربية سوف يضمن ـ ولا شك ـ سلامة الجند العربي من أية تمردات قد يقوم بها السكان المحليون. يضاف إلى ذلك، أن عقبة كان يرمي من بناء المدينة أيضا إلى استعمالها قاعدة عسكرية تنطلق منها جيوش التحرير إلى المناطق الجديدة، ومركزا لنشر الدين الإسلامي بين القبائل البربرية.

ولهذه الأسباب كلها هاجم عقبة منطقة Byzacenia، أي جنوب تونس الحالية، وحررها سنة 50هـ/ 670م دون أن يلاقي مقاومة تذكر، ثم ابتدأ بتأسيس مدية القيروان. وقد أكد العرب المسلمون على عاملين أساسيين في اختيار موقع المدينة، الأول: أن يكون بعيدا عن البحر من أجل ضمان سلامة المدينة من أي هجوم مفاجئ قد يقوم به البيزنطيون. والثاني: أن يكون الموقع في منطقة خصبة معشبة لكي ترعى فيها إبل العرب المستقرين[20]. وكان تخطيط المدينة بسيطا، يتضمن المسجد الجامع، ودار الإمارة، وحولهما منازل القبائل العربية التي تشكل قوة الجيش الرئيسة المرافقة لعقبة. واستغرقت عملية البناء نحو خمس سنوات، حيث أنجز بناء المدينة في سنة 55هـ/ 675م[21].

ولكن انشغال عقبة ببناء مدينة القيروان لم يتح له القيام بعمل عسكري بارز إزاء البيزنطيين والبربر، وظلت قرطاج العقبة الرئيسة أمام أية سيطرة عربية فعلية على الساحل. ويبدو أن سياسة عقبة لم تلق ترحيبا من الخليفة معاوية بن أبي سفيان الذي عهد إلى مسلمة بن مخلد الأنصاري، والي مصر، بمسؤولية الأشراف على كل الأراضي المحررة في شمال إفريقيا.

(20) ينظر: البكري، المصدر السابق، ص24؛ المالكي، المصدر السابق: 1/ 6 ـ 7، 21؛ ياقوت، المصدر السابق: 4/ 420 ـ 421؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 1/ 19 ـ 20.

(21) الطبري، المصدر السابق: 2/ 93 ـ 94؛ المالكي، المصدر السابق: 1/ 7؛ ابن الأثير، المصدر السابق: 3/ 466؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 1/ 20 ـ 21.

فعزل مسلمة هذا عقبة بن نافع، وعيَّن بدله أبا المهاجر دينار واليا على إفريقية[22].

معوقات تحرير العرب للمغرب ومحاولاتهم التغلب عليها:

ومن المحتمل أن إدارة الدولة العربية لم تكن تقدر بشكل كامل الظروف التي كانت تقف حائلا أمام استكمال تحرير شمال إفريقيا، وإن الخليفة في دمشق، ووالي مصر في الفسطاط، شعرا بطول المدة، وكثرة الجهد المبذول في هذا السبيل. والحق أن الخطأ لم يكن في إجراءات عقبة، لأنه كان يعلم طبيعة الظروف والمعوقات التي تقف أمام العرب في المنطقة، وتتلخص بمقاومة البربر، وقوة البيزنطيين. وكان يتصرف إزاء هذه العقبات ضمن خطة طويلة الأمد، تهدف إلى محاولة التعاون مع البربر وكسبهم إلى جانب العرب أولا، ثم القضاء النهائي على النفوذ البيزنطي في البلاد ثانيا. ولم يكن تنفيذ هذه الخطة بالأمر الهين، لأن البربر قوم تعودوا على الحرية وعدم الخضوع للأجنبي، وقد ترسخت فيهم عادات وتقاليد قديمة يصعب القضاء عليها في وقت قصير، وكان لا بد من اتباع أسلوب يضمن لهم كرامتهم وحريتهم. وهذا ما كان قد بدأ به عقبة بن نافع، وما أدركه خلفه أبو المهاجر دينار، وعمل على السير عليه منذ الأيام الأولى لولايته على إفريقية.

وقد أظهر أبو المهاجر للبربر المتحالفين مع البيزنطيين قوة العرب، وذلك بقيادته جيشا إلى منطقة غربي الجزائر الحالية بالقرب من تلمسان، حيث التقى بالزعيم البربري كَسيلة بن لمزم، قائد قبائل أوربة المسيحية القوية. ولا تتوفر لدينا معلومات عن طبيعة الظروف التي رافقت حملة أبي

(22) ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص197؛ الطبري، المصدر السابق: 2/ 93 - 94؛ المالكي، المصدر السابق: 1/ 19؛ ابن الأثير، المصدر السابق: 3/ 466؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 1/ 21؛ ويقارن: حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، القاهرة، 1947، ص146 - 147.

المهاجر، لكن المصادر تشير إلى أنه استطاع أن يكسب القائد البربري إلى جانبه، حيث اعتنق الإسلام، ورافق أبي المهاجر في عودته إلى القيروان[23].

ويبدو أن أبا المهاجر قد وفر لكسيلة واتباعه شروطا جيدة للصلح، وعاملهم معاملة مساوية لتلك التي يعامل بها العرب المسلمون. وهذا أمر على غاية كبيرة من الأهمية، لأنه يشير إلى السياسة التي سعى أبو المهاجر إلى اتباعها، وهي سياسة التقريب، أو التمازج بين العرب والبربر، وإنشاء جيش بربري يساعد العرب على تحقيق تحرير كل الشمال الإفريقي.

ولكن ثمار خطة أبي المهاجر لم تظهر بسرعة، بسبب عزله المفاجئ عن ولاية إفريقية من قبل يزيد بن معاوية الذي أعاد تعيين عقبة بن نافع سنة 62هـ/ 681م. ومن المحتمل أن يُعزى عزل أبي المهاجر إلى فشله في الاستيلاء على قرطاج، رغم قيادته لحملة عسكرية عليها في عام 59هـ/ 678م، فقد حاصرها فترة طويلة، لكنه اضطر بسبب قوتها أن يرفع عنها الحصار ويرجع إلى القيروان[24].

إن إعادة تعيين عقبة بن نافع لم يعجل في استكمال تحرير شمال إفريقيا، لأنه، كما يبدو، اتبع سياسة مغايرة لسياسته الأولى فقد أضاع فرصة الاستفادة من محاسن سياسة سلفه أبي المهاجر في كسب جانب البربر، فأساء معاملة القائد البربري كسيلة بن لمزم، مما أثار حفيظة البربر، ودفعهم للتمرد على العرب. أما ما قام به عقبة من زحف كبير باتجاه الغرب فلم يكن سوى عرض للقوة أراد به إثبات جدارته العسكرية، لكن لم تصحب هذا الزحف خطة واضحة للفتح المنظم والاستقرار المستمر. لقد سار عقبة بجيش

---

(23) المالكي، المصدر السابق: 1/ 21، 25 ـ 26؛ معالم الإيمان : 1/ 46، 52 ـ 53 ح ابن عذاري، المصدر السابق: 1/ 28 ـ 29؛ ابن خلدون، كتاب العبر، بيروت، 1956 ـ 1961 : 6/ 297؛ السلاوي، المصدر السابق: 1/ 80.

(24) تاريخ خليفة : 1/ 25 ح المالكي، المصدر السابق: 1/ 20 ح أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، القاهرة، 1963 : 1/ 152.

كثيف من القيروان باتجاه باغاية الواقعة إلى الشمال من جبال الأوراس، ثم واصل زحفه غربا حتى وصل إلى تيهرت في غرب الجزائر، وطنجة في المغرب، واتجه بعد ذلك نحو الجنوب الغربي إلى بلاد السوس الأدنى والسوس الأقصى، ووادي درعا، ثم توقف عند شواطئ المحيط الأطلسي في منطقة تقع بالقرب من مدينة أغادير الحالية. وقد عاد وقطع نهر أم الربيع ودخل إلى منطقة الجزائر يريد الرجوع إلى القيروان، لكنه واجه تجمعا بربريا قاده كسيلة بن لمزم، أدى إلى استشهاده مع عدد كبير من جنوده العرب بالقرب من قلعة تهودا المجاورة لجبال الأوراس[25].

لقد اشتبك عقبة في حملته هذه في معارك عديدة مع البربر والبيزنطيين، لكن دون أن يحقق أية نتيجة أو يضيف أية أراضي جديدة لولاية إفريقية. بل على العكس، فقد كان على العرب أن يتركوا كل الولاية، وأن يخلوا القيروان ذاتها نتيجة لتمرد البربر واستشهاد عقبة ورفاقه. وهكذا انسحب كل العرب المقاتلين من القيروان باتجاه مصر في عام 65هـ/ 684م[26]. وقد ساعد انسحاب العرب البربر بقيادة كسيلة على دخول القيروان والسيطرة عليها قرابة أربع سنوات[27] (65 ـ 69هـ/ 684 ـ 688م). وفي خلال هذه الفترة سيطر البربر على المناطق الداخلية من الشمال الإفريقي، بينما أحكم البيزنطيون هيمنتهم على الشواطئ.

وعلى الرغم من انشغال الخلافة الأموية بمشكلة مطالبة ابن الزبير

---

(25) ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص198 ـ 200؛ البكري، المصدر السابق ص74، 108 ـ 109، 145، 160، 162؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 1/ 24 ـ 29؛ عبيد الله بن صالح، نص جديد عن فتح العرب للمغرب، تحقيق: ليفي بروفنسال، مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، العدد 2، 1954، ص219 ـ 220.

(26) ابن الأثير، المصدر السابق: 4/ 108؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 1/ 31؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 4/ 40.

(27) المالكي، المصدر السابق: 1/ 30؛ ياقوت، المصدر السابق: 1/ 229؛ ابن الأثير، المصدر السابق: 4/ 108؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 1/ 31.

بالخلافة، فقد أدرك الخليفة عبد الملك بن مروان أهمية شمال إفريقيا وضرورة استعادة القيروان، فعيَّن زهير بن قيس البلوي واليا جديدا على إفريقية من أجل أن يستعيد ما خسره العرب هناك[28]. وكان زهير على رأس القوة العربية التي انسحبت من القيروان، ثم عسكرت بالقرب من برقة. وحين استلم أمر تعيينه من قبل الخلافة سنة 69هـ/ 688م سار إلى القيروان بصحبة حامية المدينة، وبعض الإمدادات التي جاءته من مصر. وعندما سمع كسيلة بقدوم هذه القوة العربية انسحب من القيروان، وعسكر في موقع بالقرب من جبال الأوراس يسمى ممس Mems، حيث وقعت المعركة بينه وبين جند زهير. وقد قُتل كسيلة وتشتت جنده، فتتبع العرب المنهزمين من البربر إلى جبال الأوراس. وقبل أن يعود زهير إلى القيروان، استولى على بضعة حصون بيزنطية مثل حصن الكف Sicca Vaneria[29].

ومن الجدير بالملاحظة أن البربر لم يتلقوا أية مساعدة من البيزنطيين، بل حاربوا وحدهم دون أي تدخل. وهذا أمر غريب نظرا لمصالحهم المشتركة في إبعاد العرب عن المنطقة. ويحتمل أن البيزنطيين لم يتدخلوا متعمدين كي يضعفوا من قوة الاثنين، مما يهيئ لهم سبيل الانفراد بالنفوذ في الشمال الإفريقي. ولكن على الرغم من انتصار زهير، فإنه لم يهاجم الحصون البيزنطية الأخرى على السواحل، بسبب افتقاره إلى الأسطول. وقد عاد بشكل مفاجئ إلى برقة بعد ازدياد خطر البيزنطيين عليها، حيث تمكن هؤلاء من احتلالها وأسر المسلمين الذين تركهم زهير فيها. ولكن قوة زهير لم تكن كافية لإعادة تحرير المدينة، فتمكن البيزنطيون من التغلب عليه. وقد

---

(28) ينظر: المالكي، المصدر السابق : 1/ 29.

(29) المصدر نفسه: 1/ 30؛ الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق: المنجي الكعبي، تونس، 1968، ص50؛ ابن الأثير، المصدر السابق : 4/ 108 ـ 109؛ ابن عذاري، المصدر السابق : 1/ 31 ـ 32؛ عبيد الله بن صالح، المصدر السابق، 221.

أدى ذلك إلى استشهاده مع مجموعة من جنده بالقرب من برقة[30].

بعد استشهاد زهير، تبين للخليفة عبد الملك بن مروان أهمية الخطر البيزنطي ودوره في إعاقة استكمال تحرير شمال إفريقيا. فقد كان البيزنطيون يتمركزون في مواقع حصينة على الساحل، مثل قرطاج، وصطفورة، وبنزرت. لهذا فقد أولى الخليفة عنايته لمقاومة هذا الخطر، فأمر بتجهيز جيش عربي كبير من نحو أربعين ألف رجل، معظمهم من جند الشام، وعهد بقيادته إلى حسان بن النعمان الغساني في سنة 74هـ/ 694م[31]. وقد سار هذا الجيش إلى مصر، وبقي فيها على أهبة الاستعداد إلى أن انتهت مشكلة ابن الزبير وعاد الاستقرار إلى الدولة العربية الإسلامية، فتحرك حينذاك إلى شمال إفريقيا.

سار حسان عام 76هـ/ 695م مجتازا برقة وطرابلس حيث التحقت به إمدادات أخرى عربية وبربرية، لا سيما من قبائل لواتة التي اعتنقت الإسلام. وقد دخل حسان إلى القيروان، ثم توجه إلي قرطاج، فهاجمها وحررها، فهرب منها البيزنطيون إلى صقلية وإسبانيا، وإلى بقية قواعدهم مثل صطفورة وبنزرت، ولكن العرب هاجموا هذين المعقلين أيضا وحرروهما قبل أن يعودوا إلى القيروان[32].

(30) ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص202 ـ 203؛ البلاذري، المصدر السابق، ص229 ح عبيد الله بن صالح، المصدر السابق، ص221 ح ابن خلدون، المصدر السابق : 4/ 400.

(31) ابن الأثير، المصدر السابق : 4/ 369 ح ويقارن: ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص200 ـ 202؛ الكندي، المصدر السابق، ص52 ح عبيد الله بن صالح، المصدر السابق، ص221؛ ابن عذاري، المصدر السابق :1/ 34.

(32) ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص200 ح المالكي: المصدر السابق: 1/ 31 ـ 32؛ ابن الأثير، المصدر السابق :4/ 369 ـ 370؛ ابن عذاري، المصدر السابق : 1/ 35 ح النويري:2، المصدر السابق :22/ 19 ـ 20، ق2؛ ابن خلدون، المصدر السابق : 4/ 4، 6/ 214، 218، ويقارن:

Theophanes, p.370; Nesiphore, p. 39. نقلاً عن: مؤنس، فتح العرب للمغرب، ص236.

وكان من نتيجة جهود حسان بن النعمان أن تضاءل الخطر البيزنطي في الشمال الإفريقي، وضمن المسلمون العرب احتفاظهم بالمواقع التي حرروها من أيدي البيزنطيين. ولكن كان الخطر في الداخل ما يزال قائما أمام حسان. فهناك بعض العناصر البربرية ما تزال تقاوم العرب نظرا لعلاقاتها وارتباطاتها بالبيزنطيين. وقد تركزت هذه المقاومة حول قبيلة جراوة البربرية بقيادة امرأة تدعى الكاهنة. وهناك خلاف في أصل هذه المرأة وديانتها، وهل كانت تعتنق اليهودية أم النصرانية(33). وعلى أي حال فإن علاقة هذه الكاهنة بالبيزنطيين كانت فيما يبدو قوية، لأنها قد تزوجت من رجل يوناني أو بيزنطي، ويدل على ذلك أنها كانت أما لولد يدعى باليوناني(34). أما علاقتها ببقية حركات البربر المعادية للعرب، مثل حركة كسيلة فتبدو أيضا واضحة من روايات مؤرخينا عن هذه الكاهنة. فقد ذكر ابن خلدون والسلاوي أن الكاهنة هي التي حرضت على مهاجمة عقبة بن نافع ورجاله بالقرب من تهودا(35). كما يشير ابن الأثير إلى أن مقتل كسيلة كان هو الدافع لتمرد الكاهنة(36). أما البكري فيذكر صراحة أن القائد البربري الذي قاد جيش الكاهنة في قتالها لحسان، كان واحدا من القادة الذين حاربوا مع كسيلة ضد عقبة بن نافع(37). إن هذه العلاقة الوثيقة تبدو طبيعية، على الرغم من اختلاف انتماء الكاهنة

---

(33) ينظر حول هذا الموضوع: البكري، المصدر السابق، ص144؛ مفاخر البربر، مجهول المؤلف، نشر: ليفي بروفنسال، الرباط، 1937، ص65؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 6/ 214؛

M. Talibi, "Un nouveau fragment de L'histore de L'Occident musulman 62-196/682-812 L'epopee d'al-Kahina", Les Cahiers de Tunisie, XIX, no. 73-74, 1971, p.42.

(34) ينظر: ابن عذاري، المصدر السابق: 1/ 37؛ عبيد الله بن صالح، المصدر السابق، ص222

(35) العبر: 7/ 17 ـ 18؛ الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصا: 1/ 93.

(36) الكامل في التاريخ: 4/ 372.

(37) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص7.

وكسيلة القبلي، فالكاهنة من جراوة، وكسيلة من أوربة، لكن مصالحهما فيما يبدو كانت واحدة، وارتباطهما كان مع البيزنطيين، وهذا هو سر مقاومتهما المستميتة للوجود العربي في الشمال الإفريقي. يضاف إلى ذلك، الفكرة الخاطئة التي كوّنها بعض البربر، لا سيما الكاهنة، عن العرب، حيث ظنت أنهم لم يأتوا إلى المغرب إلا سعيا وراء الغنائم والمكاسب، لهذا فقد أشاعت بعد انتصارها الأول على حسان بن النعمان، الدمار والخراب في الأرياف حتى لا يبقى للعرب رغبة في العودة إلى البلاد[38].

لم يقدِّر حسان قوة البربر تقديرا كافيا، مما أدى إلى هزيمته أمام الكاهنة في معركة حاسمة بالقرب من باغاية على نهر نيني. وقد استطاع حسان أن ينهزم بجنده إلى طرابلس على الرغم من مطاردة البربر لهم حتى قابس[39]. لكن سياسة التخريب التي اتبعتها الكاهنة جلبت عليها نقمة السكان المحليين، وعناصر عديدة من البربر، حتى أنهم طالبوا العرب بالرجوع إلى البلاد، وأبدوا استعدادهم لمساعدتهم في حربهم المقبلة ضد الكاهنة[40]. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فثمة إمدادات عديدة كانت قد وصلت إلى حسان في مستقره بمنطقة طرابلس، مما هيأ الظروف لتجريد حملة أخرى على الكاهنة.

لقد سارت الأمور هذه المرة في صالح العرب تماما، حتى أن الكاهنة

---

(38) الرقيق، المصدر السابق، ص61؛ المالكي، المصدر السابق : 1/ 35؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 1/ 36؛ عبيد الله بن صالح، المصدر السابق، ص222؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 6/ 219؛ ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، تحقيق: محمد شمام، تونس، 1967، ص21، 34.

(39) ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص200؛ فتوح البلدان، ص229؛ البكري، المصدر السابق، ص7 ـ 8؛ ابن عذاري، المصدر السابق : 1/ 35 ـ 36؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 4/ 401، 6/ 218.

(40) الرقيق، المصدر السابق، ص61؛ المالكي، المصدر السابق : 1/ 35؛ ابن الأثير، المصدر السابق : 4/ 371؛ ابن عذاري، المصدر السابق : 1/ 36 ـ 37؛ ابن خلدون، المصدر السابق : 6/ 219.

نفسها شعرت بخطئها في مجابهة العرب. ويحتمل أنها أدركت غرضهم النبيل في تحرير البلاد من سيطرة البيزنطيين. لكنها وكما تزعم الروايات لم تتمكن من التراجع عن موقفها، بسبب العادات البربرية، فاكتفت بالإيعاز إلى أبنائها بالقتال إلى جانب العرب، وقاتلت هي وبعض أتباعها جنود حسان، حيث قُتلت بالقرب من جبال الأوراس في منطقة أصبحت تدعى ببئر الكاهنة[41]. وبعد هذا الانتصار رجع حسان إلى القيروان عام 82هـ/ 701م، ثم أعاد تحرير قرطاج بعد أن تمكن البيزنطيون من احتلالها نتيجة لانسحاب العرب الى طرابلس، وغيبتهم عن مسرح الأحداث مدة تقرب من خمس سنوات[42].

وأسفرت جهود حسان بن النعمان الغساني عن تقليص الخطر البيزنطي على المناطق المحررة من الشمال الإفريقي، وإنهاء تمرد البربر في المناطق الداخلية. ولكن كان لابد من حماية هذه الإنجازات والمحافظة على روح النصر الذي حققه العرب. ولهذا فقد اتبع حسان طريقتين في ذلك السبيل. أما البربر فقد أدرك أن أفضل وسيلة لكسب جانبهم تكمن في زيادة الاختلاط بهم ودمجهم مع العرب، أي بعبارة أخرى السير على سياسة أبي المهاجر، الوالي السابق الذي أسلفنا الإشارة إليه. فبعد أن أنهى حسان مقاومة الكاهنة، عامل البربر معاملة حسنة، وعرض عليهم شروطا ممتازة للصلح، كما وجه اهتمامه لنشر الإسلام فيما بينهم بوساطة الوفود والدعاة الذين أُرسلوا إلى مختلف القبائل البربرية. فدخل العديد منهم إلى الإسلام. وتم تجنيد اثني عشر ألف جندي بربري في الجيش العربي الإسلامي بقيادة ابني الكاهنة. ولقد فُرض لهؤلاء العطاء، كما مُنحوا نصيبا مساويا لما سيأخذه مقاتلو

(41) ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص201؛ الرقيق، المصدر السابق، ص61 ـ 62؛ ابن عذاري، المصدر السابق : 1/ 37 ـ 38؛ عبيد الله بن صالح، المصدر السابق، ص222 ـ 223؛ ابن خلدون، المصدر السابق : 4/ 401، 6/ 219؛ ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص35.

(42) البكري، المصدر السابق، ص37 ـ 38؛ المالكي، المصدر السابق: 1/ 37.

العرب من الغنائم في الفتوحات المقبلة[43]. وهكذا ضمن العرب ولاء البربر ومساعدتهم لهم في استكمال تحرير بقية أجزاء شمال إفريقيا من النفوذ البيزنطي.

أما بالنسبة لإجراءات حسان لصد خطر البيزنطيين، ومقاومة أي هجوم مفاجئ قد يقومون به على الساحل، فقد قرر أن ينشئ بالقرب من قرطاج مدينة تونس، لتكون قاعدة للأسطول العربي في شمال إفريقيا. وكان مكان المدينة حصينا جدا، حيث تقع على بحيرة تتصل بواسطة برزخ بالبحر المتوسط، فقطع حسان البرزخ، وبنى المدينة الجديدة بالقرب من البحيرة. ومن أجل العمل على إنشاء صناعة عربية للسفن، استعان حسان بالأيدي العاملة القبطية. فطلب من الخليفة عبد الملك بن مروان أن يزوده بعمال أقباط من مصر. وبالفعل وافق الخليفة على طلبه، فوصلت البلاد ألف أسرة قبطية، وبدأت بمهمة بناء الأسطول العربي في شمال إفريقيا[44]. وقد استطاعت هذه القوة العربية الجديدة أن تجبر البيزنطيين على إخلاء بقية مواقعهم الحصينة في الشمال الإفريقي، باستثناء بعض الأماكن البعيدة، مثل سبتة.

تعيين موسى بن نصير على إفريقية وإنجاز تحرير المغرب العربي:

وفي سنة 85هـ/ 704م عُزل حسان بن النعمان عن ولاية إفريقية لخلاف وقع بينه وبين والي مصر، عبد العزيز بن مروان، بشأن أمور عديدة تتعلق بإدارة برقة وطرابلس، وسياسة حسان في المغرب بشكل عام. فقد كان

(43) ينظر: ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص201؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 1/ 38؛ عبيد الله بن صالح، المصدر السابق، ص223 ح ابن خلدون، المصدر السابق: 4/ 401، 6 ـ 219 ـ 220؛ ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص35.

(44) البكري، المصدر السابق، ص37 ـ 38؛ الرقيق، المصدر السابق، ص65 ـ 66؛ المالكي، المصدر السابق: 1 ـ 37؛ ياقوت، المصدر السابق: 2/ 61 ـ 62؛ معالم الإيمان: 1/ 67 ـ 68؛ ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص15 ـ 16.

عبد العزيز يرغب في مزيد من المركزية في الأشراف على المناطق المحررة، ولهذا فقد اختار أحد المقربين منه، وهو موسى بن نصير، ونجح في إقناع الخليفة عبد الملك بن مروان بالموافقة على تعيينه واليا على إفريقية[45].

وقد سار موسى إلى مصر مصحوبا ببعض المتطوعين من العرب هناك، وعندما وصل إلى شمال إفريقيا، اعتمد على العرب والبربر الموجودين فيها بالفعل لتنفيذ حملاته واستكمال مهمة تحرير المغرب. وقد وجد أنه لا مجال له للاختيار، بل عليه أن يتعاون مع المسلمين الجدد من البربر الذين جُندوا في الجيش العربي الإسلامي على يد سلفه حسان. وتبين له أن هذه السياسة هي الوحيدة التي يمكن أن تساعد العرب على إقناع بقية البربر بعدم المقاومة، وإنجاز التحرير الكامل للشمال الإفريقي. ولكنه في الوقت نفسه لم ينس الخطر البيزنطي، فوضع حراسة قوية على السواحل، ودور بناء السفن من أجل أن يمنع أية سفينة بيزنطية أو ترسو هناك[46]. كما حاول أيضا أن يقطع كل اتصال بين البيزنطيين، الذين بقوا تحت الحكم العربي في شمال إفريقيا، وبين الأسطول البيزنطي في البحر المتوسط. وتم هذا الإجراء بنقل هؤلاء السكان من الساحل إلى مناطق قريبة في داخل البلاد، حيث أصبح بإمكان العرب مراقبة فعالياتهم بدقة[47]. ووجه موسى عناية كبيرة أيضا إلى القوة البحرية العربية الجديدة، التي أصبح لها شأن كبير في هذه الفترة، بحيث استطاع العرب أن يرسلوا حملة إلى جزيرة صقلية بقيادة عياش بن أخيل، نجحت في مهاجمة الجزيرة، وعادت بغنائم وفيرة[48].

(45) ينظر: ابن عذاري، المصدر السابق: 1/40.

(46) ينظر: ابن حبيب، استفتاح الأندلس، تحقيق: محمود علي مكي، مجلة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، 1957، العدد5، ص221.

(47) الرقيق، المصدر السابق، ص68؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 4/220؛ ويقارن: حسين مؤنس، «التنظيم الإداري والمالي لإفريقية والمغرب»، مجلة كلية الآداب والتربية بجامعة الكويت، 1972، العدد الأول، ص88.

(48) ينظر: ابن عذاري، المصدر السابق: 1/42؛ ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص35 ـ 36.

ابتدأ موسى فعالياته العسكرية بالقضاء على جيوب المقاومة البربرية في المناطق المجاورة لإفريقية. ثم سار باتجاه المناطق الغربية من شمال إفريقيا، سالكا الطريق الذي سبق أن سلكه عقبة بن نافع. وفي منطقة فاس بالقرب من وادي الملوية اشتبك مع بربر سجوما (سقوما أو سيقوما) الذين كانوا ينتمون إلى قبائل أوربة التي حاربت عقبة بن نافع في تهودا. وكانت محاولة موسى هذه تهدف إلى إنهاء مقاومة هؤلاء الذين استمروا في تأييدهم للبيزنطيين. وبعد هذه الحملة أرسل موسى عدة حملات صغيرة إلى السوس الأقصى، ثم زحف باتجاه طنجة، وحررها، ثم توغل إلى الجنوب فوصل إلى السوس الأدنى، ووادي درعا، وتافيلالات[49]. وعلى الرغم من هذه الانتصارات العديدة، فقد جابه موسى صعوبات كبيرة عندما حاول أن يسيطر على منطقة المضيق (الذي سمي فيما بعد بمضيق جبل طارق) لأن مدينة سبتة وما يجاورها كانت باقية بأيدي البيزنطيين. لكنه تمكن أن يعقد الصلح مع حاكم المدينة المدعو جوليان، فظل هذا الأخير في منصبه مقابل اعترافه بالحكم العربي[50].

لقد امتازت الحملات التي قام بها موسى وقادته بضراوة شديدة إزاء كل قبيلة بربرية ترفض قبول الإسلام، ولكن ما أن يعتنق البربر الدين الجديد، حتى يقر العرب زعماءهم في الرئاسة مقابل مساهمة كل قبيلة بعدد كاف من المقاتلين للانضمام إلى الجيش العربي الإسلامي. ولهذا فقد نجح موسى في تجنيد أعداد هائلة من البربر من مختلف قبائل البلاد، مثل كتامة وهوارة

(49) ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص205؛ الرقيق، المصدر السابق، ص69 ح ابن عذاري، المصدر السابق: 1/ 42؛ أخبار مجموعة، مجهول المؤلف، نشر: لافوينتي القنطرة، مدريد، 1867، ص4 ح ابن خلدون، المصدر السابق 4/ 402.

(50) أخبار مجموعة، ص4؛ المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، 1968، (برواية ابن حيان): 1/ 230؛ ابن خلدون، المصدر السابق : 6/ 437 ـ 438.

وزناتة ومصمودة[51]. وقد وحد موسى هؤلاء الجنود مع قوات قبيلة جراوة الذين تم تجنيدهم في عهد حسان بن النعمان، ووضعوا جميعا في حامية مدينة طنجة تحت قيادة طارق بن زياد، الذي عُين حاكما على هذه المدينة في حدود سنة 90هـ/ 708م[52]. وغادر الجيش العربي بقيادة موسى بن نصير إلى القيروان، بعد أن تم تحرير معظم أجزاء المغرب العربي من برقة إلى المحيط الأطلسي.

خاتمة:

على الرغم من استمرار العرب مدة تربو على سبعين عاما في بذل جهودهم العسكرية في تحرير المغرب من السيطرة البيزنطية والمقاومة البربرية، فإننا يمكن أن نلاحظ سياسة عامة سار بموجبها مختلف القادة والولاة الذين ساهموا في هذا الجهد الكبير. لقد كانت هذه السياسة تهدف إلى محاولة كسب السكان المحليين، لا سيما البربر، إلى جانبهم من أجل إنجاح حملات التحرير. وقد أصاب بعض هؤلاء القادة نجاحا في تحقيق هذه الغاية، كما أخفق بعضهم الآخر. لكن هذه السياسة أثمرت وآتت أُكلها في عهدي حسان بن النعمان الغساني وموسى بن نصير، اللذين تكللت جهودهما بالنجاح الكامل. ولقد تتوج هذا النجاح بالجهد العسكري العربي الإسلامي اللاحق لفتح الأندلس. وكان ذلك ثمرة طيبة من ثمار التعاون العربي البربري المشترك حيث استطاعت هذه القوة الإسلامية العظيمة أن تحقق هذا الإنجاز في سنوات معدودة مسجلة أعظم انتصار للدولة العربية الإسلامية في المغرب والأندلس.

---

(51) ابن عذاري، المصدر السابق: 1/ 43 ـ 44؛ عبيد الله بن صالح، ص224.

(52) ينظر: ابن حبيب، المصدر السابق، ص222؛ ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص204 ـ 205؛ ابن عذاري، المصدر السابق : 1/ 42؛ عبيد الله بن صالح، المصدر السابق، ص224.

جريدة المصادر والمراجع

* ابن الأثير، عز الدين.
1 - الكامل في التاريخ، بيروت، 1965 - 1966.
* البكري، أبو عبيد.
2 - المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، نشر: دي سلان، الجزائر، 1857.
* البلاذري، أحمد يحيى بن جابر.
3 - فتوح البلدان، نشر: دي غويه، ليدن، 1866.
* ابن حبيب، عبد الملك.
4 - استفتاح الأندلس، تحقيق: محمود علي مكي، مجلة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، العدد الخامس 1957.
* ابن حوقل، محمد.
5 - صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1979.
* ابن خلدون، عبد الرحمن.
6 - كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت، 1956 - 1961.
* ابن خياط، خليفة.
7 - تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق: أكرم ضياء العمري، النجف، 1967.
* الدباغ، عبد الرحمن.
8 - معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق: إبراهيم شبوح، ج1، القاهرة، 1968.
* ابن أبي دينار، محمد بن أبي القاسم القيرواني.
9 - المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، تحقيق: محمد شمام، تونس، 1967.
* الرقيق القيرواني، أبو إسحاق إبراهيم.
10 - تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق: المنجي الكعبي، تونس، 1968.
* السلاوي، أحمد بن خالد الناصري.
11 - الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصا، الدار البيضاء، 1954.
* الطبري، محمد جرير.

12 ـ تاريخ الرسل والملوك، نشر: دي غويه، ليدن، 1879 ـ 1901.

* ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد الله.

13 ـ فتوح مصر وأخبارها، نشر: شارلس توري، نيو هيفن، 1922.

* ابن عبد البر، أبو عمر يوسف.

14 ـ الإستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: علي محمد البجاوي، القاهرة، (د.ت).

* عبيد الله بن صالح.

15 ـ «نص جديد عن فتح العرب للمغرب» نشر: ليفي بروفنسال، مجلة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، العدد الثاني 1954.

* ابن عذاري، أبو العباس أحمد بن محمد.

16 ـ البيان المغرب، نشر: كولن وليفي بروفنسال، ليدن، 1958، ج1.

* أبو العرب، محمد بن أحمد التميمي.

17 ـ طبقات علماء إفريقية وتونس، تحقيق، علي الشابي وحسن اليافي، تونس، 1968.

* العمري، أحمد بن يحيى.

18 ـ وصف إفريقية والمغرب والأندلس، تحقيق: حسن حسني عبد الوهاب، تونس، (د.ت).

* الكندي، محمد بن يوسف.

19 ـ الولاة والقضاة، بيروت، 1908.

* مجهول.

20 ـ أخبار مجموعة، نشر: لافوينتي القنطرة، مدريد، 1867.

* مجهول.

21 ـ الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق: سعد زغلول عبد الحميد، الإسكندرية، 1958.

* مجهول.

22 ـ مفاخر البربر، نشر: ليفي بروفنسال، الرباط، 1937.

* المالكي، أبو بكر عبد الله.

23 ـ رياض النفوس، ج1، تحقيق: حسين مؤنس، القاهرة، 1951.

* أبو المحاسن، ابن تغري بردى.

24 ـ النجوم الزاهرة، القاهرة، 1963.

* المقدسي، شمس الدين.

25 ـ أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، نشر: دي غويه، ليدن، 1906.

* المقري، أحمد بن محمد.

26 ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، 1968.

* النويري، أحمد بن عبد الوهاب.

27 ـ نهاية الأرب، ج22، القسم الثاني، نشر: جاسبار راميرو، غرناطة، 1917.

* ياقوت، شهاب الدين.

28 ـ معجم البلدان، بيروت، 1957.

* مؤنس، حسين مؤنس.

29 ـ فتح العرب للمغرب، القاهرة، 1947.

30 ـ «التنظيم الإداري والمالي لإفريقية والمغرب»، مجلة كلية الآداب والتربية، جامعة الكويت، 1972، العدد الأول.

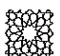
* Taha, Abdulwahid Dhnun.

31 - The muslim Conquest and settlement of North Africa and Spain, Routledge, London-New York, 1989.

* Talibi, Mahammad.

32 - "Un nouveau fragment de L'histore de L'Occident musulman 62-196/682-812 L'epopee d'al-Kahina", Les Cahiers de Tunisie, XIX, no. 73-74, 1971, pp. 19-52.

دولة بني مدرار في سجلماسة



نشر هذا البحث في مجلة التربية والعلم
العدد 20، الموصل 1997

ينتسب بنو مدرار إلى أبي القاسم سمكو بن واسول بن مصلان بن أبي النزول المكناسي[1]. ومن المرجح أن كلمة (مدرار) هي عبارة عن لقب لهذا الرجل[2]. ومن ثم عُمم هذا اللقب على الأسرة كلها[3]. وهناك من يشير إلى

---

(1) ينظر: عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، بولاق، 1284هـ، أعادت طبعه في بيروت مؤسسة جمال للطباعة والنشر، 1979: 6/ 130. وقد ورد اسم أبي القاسم بصيغ مختلفة عند بقية المؤرخين، فقد أشار إليه أبو عبيد البكري باسم: سمجو بن واسول، وسمغوا بن مزلان بن نزول المكناسي. المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، نشر دي سلان، الجزائر، 1857، ص149. ويذكره، ابن عذاري باسم سمغون بن واسول، أو ابن مدلان. البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، نشر: كولن وليفي بروفنسال، ليدن، 1948: 1/ 156. ويرسمه ابن الخطيب: سمعون بن يزلان، أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام، القسم الثالث نشر بعنوان: تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، تحقيق، أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، الدار البيضاء، دار الكتاب، 1964، ص140.

(2) المصدر نفسه، ص140.

(3) ينظر: البكري، المصدر السابق، ص150.

أن أبا القاسم نفسه كان يسمى مدرار بن عبد الله[4]. وعلى أي حال، فقد شاع هذا التعبير، وعرفت به الأسرة الحاكمة لهذه الدولة، لا سيما أحد أمرائها المشهورين، وهو مدرار المنتصر بن أليسع، حفيد أبي القاسم بن واسول، مؤسس الدولة المدرارية، التي عرفت أيضا بدولة بني واسول.

كان أبو القاسم سمكو زعيما لقبيلة مكناسة التي تنتشر بطونها على وادي نهر ملوية، وفي نواحي تازا وتسول بالمغرب الأقصى[5]. ويبدو أنه كان مهتما بطلب العلم منذ صباه، حيث تشير إحدى الروايات إلى ارتحاله إلى المدينة المنورة وأخذه عن بعض التابعين، لا سيما عكرمة مولى عبد الله ابن عباس[6]، الذي يعود بأصله إلى البربر[7]. والأرجح أنه التقى بعكرمة في القيروان، حينما جاءها هذا الأخير مع سلمة بن سعيد في أوائل القرن الثاني للهجرة، بغية نشر آراء الخوارج في شمال إفريقيا، فكان عكرمة يدعو للمذهب الصُفري، وسلمة بن سعيد للمذهب الأُباضي[8].

وبعد وفاة عكرمة سنة 105 هـ/ 723م، حمل أبو القاسم مهمة نشر قواعد المذهب الصفري بين القبائل المغربية، لا سيما قبيلة مكناسة، التي تمكن من تجميعها حول هذا المذهب في كيان واحد.وكان أبو القاسم سمكو وبربر مكناسة في معية المشاركين بثورة ميسرة المطغري على السلطة الأموية في شمال إفريقيا سنة 121هـ/ 739م[9]. ولا تتوفر معلومات عن دوره في هذه

---

(4) مجهول المؤلف، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، 1986، ص201.

(5) ابن خلدون، المصدر السابق: 6/ 129؛ وينظر مجهول المؤلف، مفاخر البربر، نشر: ليفي بروفنسال، رباط الفتح، المطبعة الجديدة، 1934، ص48.

(6) ابن خلدون، المصدر السابق: 6/ 130.

(7) أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، بيروت دار الثقافة (د،ت): 3/ 265.

(8) أبو زكريا يحيى بن أبي بكر، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، تحقيق إسماعيل العربي، ط2، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1982، ص40.

(9) ابن خلدون، المصدر السابق: 6/ 130.

الحركة، كذلك لم نقف على مدى مساهماته في حركات التمرد الأخرى التي قام بها الصفرية. ويبدو أنه أدرك عدم جدوى هذه الحركات المناوئة في تحقيق وإقامة دولة للصفرية، لا سيما في المناطق التي تخضع مباشرة للخلافة، مثل مناطق المغرب الأدنى وإفريقية[10]. لهذا آثر أبو القاسم سمكو الانقطاع إلى المناطق الصحراوية البعيدة عن السلطة في جنوب المغرب الأقصى، لا سيما واحة تفيلالت، التي تمثل نهاية العمران في ناحية الجنوب والغرب، حيث لا يمكن الوصول إليها إلا عن طريق في غاية الوعورة يمتد بين متاهات من القفار والرمال. وهناك ابتدأ مهمته في نشر المذهب الصفري بين الرعاة وأفراد القبائل التي ترتاد ذلك المكان. وقد تظاهر بتربية قطعان الماشية والرعي في المنطقة، فنصب خيمته هناك حيث أصبحت ملتقى لاتباع المذهب الصفري[11].

وكان يسكن في تلك الأصقاع جماعات من السودان، وبعض بطون صنهاجة من مسوفة ولمتونة، الذين هم غالبية سكانها[12]. وكان بعض هذه الجماعات رحلا لا يستقر لهم قرار، مثل مسوفة[13]، والبعض الآخر يعمل بالرعي والزراعة، إلى جانب الوساطة التجارية ومرافقة القوافل عبر المفارز ما بين هذه المنطقة، التي ستقوم فيها مدينة سجلماسة، وبلاد السودان. وهكذا فإن هؤلاء الأقوام كانوا خليطا من أهل البادية والحضر، ويعملون بالرعي والزراعة إلى جانب التجارة. كما عرفوا بالتدين، وحب العلم، إلى جانب شدة البأس والنجدة، فهم أهل علم وسلاح[14].

(10) يقارن: محمود إسماعيل، الخوارج في المغرب الإسلامي، بيروت، دار العودة، 1976، ص85 ؛

(11) البكري، المصدر السابق، ص149؛ الاستبصار، ص210.

(12) أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي، كتاب البلدان، منشور مع كتاب الأعلاق النفيسة، ليدن، 1891، ص359.

(13) الاستبصار، ص210.

(14) ينظر: إسماعيل، المرجع السابق، ص 84 ـ 85.

وتشير رواية البكري[15]، إلى أن أبا القاسم استغل تجمع هذه الأقوام واعتناقها لمذهب الخوارج الصفرية، فأعلن قيام دولتهم بعد أن بلغ عدد هؤلاء الأتباع أربعين رجلا. ويبدو هذا الرقم متواضعا قياسا إلى الجماعات الكثيرة التي كانت متواجدة في المنطقة. وربما كان الأصح منه هو الرقم الذي أورده ابن الخطيب[16]، حيث نص على أن عدد هؤلاء الاتباع كان يزيد على أربعة آلاف عندما أعلنت الدولة. وكانت الجماعات السودانية تتفوق على غيرها من حيث الكثرة العددية، وهذا يفسر قيام أبو القاسم سمكو بمبايعة رجل من هؤلاء السودان، يدعي عيسى بن يزيد الأسود، بالإمامة. وقد انصاع الصفريون من قبيلة مكناسة إلى هذا الاختيار، لا سيما وأنهم كانوا أقلية، لأن غالبية بربر مكناسة لم يكونوا قد انتقلوا بعد إلى هذه المنطقة وأن انتقالهم إليها بكثرة تم بعد قيام مدينة سجلماسة[17]. ومن جهة أخرى فإنّ اختيار عيسى بن يزيد الأسود يؤكد نظرية الخوارج في تطبيق مبدأ الشورى، وأن يكون الترشيح للإمامة مفتوحا أمام جميع المسلمين دون تفرقة عنصرية، طالما كان هذا المرشح يتمتع بالأهلية، وإن كان عبداً أسودَ.

وكانت المهمة الأولى لهذه الدولة الفتية، في العمل على إنشاء مدينة لسكنى اتباعها من مختلف القبائل التي كانت تتخذ من الخيام مأوى لها قبل إعلان قيام الدولة. وعلى الرغم من بعد المنطقة التي استوطنها هؤلاء وانقطاعها، فقد كانت مكانا ملائما لإقامة المدينة المطلوبة، وذلك لانتشار منابع المياه والواحات في أرجائها، وأنها كانت محصورة بين فرعي نهر ملوية، الأمر الذي شجع على أن تكون مركزا للتجمع، ومحطة لاستراحة القوافل التجارية. وقد عُرف هذا الموقع الذي بنيت فيه مدينة سجلماسة فيما

(15) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص149؛ وينظر: الاستبصار، ص201؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 6/ 130.

(16) أعمال الأعلام، ج3، ص139.

(17) البكري، المصدر السابق، ص149؛ الاستبصار، ص210.

بعد باسم تفللت أو تفيلالت، نسبة إلى أسرة الشرفاء الفيلاليين[18]. وهي تقع في شمال وادي درعا في طرف بلاد السودان، حيث تليها المفازة الكبرى التي تؤدي إلى غانة[19].

ويبدو من وصف الجغرافيين المسلمين لهذه المدينة في عصور لاحقة، أنها كانت تتمتع بأرض خصبة، ومياه وفيرة، «ونهر كبير يُخاض»[20]. وإن هذا النهر كان كثير المياه، ويأتي إليها من جهة الشرق، ويفيض في الصيف كما يفيض النيل، فيزرع بمائه زروعاً كثيرة يصدر منها إلى جهات مختلفة[21]. ولا شك أن كلام هؤلاء الجغرافيين ينطبق على فترة متأخرة من تاريخ هذه المدينة، إلا أنه في الوقت نفسه يشير إلى توفر العناصر الطبيعية اللازمة، كالمياه والخصوبة، لإقامة حياة حضرية متقدمة في تلك المنطقة الصحراوية البعيدة عن العمران.

بدأ إنشاء المدينة بشكل بسيط ساذج يتفق مع بساطة الجماعة الصفرية، حيث يشير ابن عذاري[22]، إلى أنهم شرعوا في البناء في حدود سنة 140هـ/ 757م، فأنشأوا حصنا في وسط المدينة أسموه العسكر، كما أسسوا المسجد

(18) ينظر: سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، الإسكندرية، منشأة المعارف، 1979، 1/ 73. وموقع سجلماسة مندرس في الوقت الحاضر بالقرب من مدينة الريساني في أقصى جنوب المغرب. وربما كانت الأطلال الموجودة هناك والتي يسميها العامة بالمدينة العامرة هي أطلال سجلماسة. يقارن: ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج2 هامش المحقق، رقم (2) ص138.

(19) أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت الحموي، معجم البلدان، بيروت، دار صادر، 1977: 3/ 192.

(20) المصدر نفسه: 3/ 192.

(21) أبو القاسم محمد بن علي بن حوقل النصيبي، صورة الأرض، بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة، 1979، ص90؛ أبو عبد الله محمد بن محمد الإدريسي، المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق، تحقيق: محمد حاج صادق، باريس، 1983، ص76.

(22) البيان المغرب: 1/ 156.

الجامع ودار الإمارة[23]. ثم بنى الناس دورهم حول الحصن[24]، فاتسع العمران بالتدريج. وظلت المدينة على هذا الوضع البسيط أيام عيسى بن يزيد، الذي حاول أن ينظم الحياة فيها، لا سيما الإفادة من المياه المتوفرة، فشقَّ القنوات، «وقسم مياهها في خلجان بقدر موزون وصرف إلى كل ناحية قدرها من مائه وأمر بغرس النخل والاستكثار منه»[25]. وهكذا أصبحت المدينة مهيأة لاستيعاب السكان، لا سيما أولئك الذين تحولوا من البداوة والرعي إلى الزراعة والاستقرار. وقد أثمرت جهود الحاكم الأول في هذا المجال، فانتشرت أشجار النخيل والفواكه والزروع التي أشار إليها معظم الرحالة والجغرافيون، الذين أسهبوا في وصف غروسها ومزارعها وإنتاجها من الحبوب والفواكه[26].

حكم عيسى بن يزيد خمسة عشر عاما من 140 ـ 155هـ/ 757 ـ 772م. ونجح في تثبيت أقدام الدولة الجديدة بإجراءاته الإدارية والاقتصادية والعمرانية التي انصبت على مدينة سجلماسة، فغدت قبلة لسكان المغرب بأسره، لا سيما الخوارج الصفرية الذين جاءوها من كل صوب تخلصا من الولاة العباسيين في المغربين الأدنى والأوسط. وكانت أهم القبائل التي توافدت على المدينة، هي بطون مكناسة، التي هجرت مواطنها الأولى، وتوجهت للاستقرار في المدينة الجديدة. وهكذا ساعد هذا الزخم السكاني الجديد على ازدهار وتطور مدينة سجلماسة، والدولة المدرارية بشكل عام.

ولكن يبدو أن عيسى بن يزيد الأسود لم يحسن استغلال هذا التطور

---

(23) أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن، 1909، ص231 .

(24) الاستبصار، ص201؛ وينظر: إسماعيل، المرجع السابق، ص86.

(25) ابن الخطيب، المصدر السابق، ج3، ص139.

(26) ينظر: البكري، المصدر السابق، ج149؛ ابن حوقل، المصدر السابق، ص90؛ الإدريسي، المصدر السابق، ص76 ـ 77؛ الاستبصار، ص201.

بل أساء السيرة، حسبما تشير إلى ذلك معظم الروايات، فاستحق نقمة الصفرية و «أنكروا عليه أشياء»[27]. ولكن المؤرخين لم يتطرقوا إلى تفصيل المسائل التي أُخذت على عيسى بن يزيد. وربما يفهم من إحدى روايات البكري[28]، أن تهمة السرقة كانت من أهم التهم التي ألصقت بهذا الرجل. مما يشير إلى انحرافه عن خط المذهب، أو أنه أسرف في تطبيقه واشتط في أحكامه، مما حمل الصفرية على اتهامه، ومن ثم التخلص منه[29]. ولكن ذلك لم يكن ليحدث بسهولة لولا ازدياد قوة قبيلة مكناسة بعد تعزيز مواقعها وزيادة أفرادها بقدوم بقية بطونها للسكن في مدينة سجلماسة. وهكذا استطاع زعماؤها، وعلى رأسهم أبو القاسم سمكو، أن يتصرفوا للتخلص من عيسى ابن يزيد، وقتله بطريقة بشعة تنم عن تطرف الخوارج الصفرية وميلهم إلى العنف[30].

وتشير رواية البكري المذكورة أعلاه إلى أن الذي اتهم عيسى بن يزيد بالسرقة هو أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري، الذي قال يوما لأصحابه في مجلس عيسى : «السودان كلهم سراق حتى هذا وأشار إلى عيسى، فأخذوه وشدوه. . .»[31]. ولكن الحقائق التاريخية لا تؤيد ما ذهب إليه البكري بالنسبة لاسم الزعيم الذي قال تلك المقولة بحق عيسى بن يزيد. لان أبا الخطاب المعافري كان من زعماء الخوارج الأُباضية، وقد قتل في معركة تاروغا قرب سرت على يد الوالي العباسي محمد بن الأشعث سنة

(27) البكري، المصدر السابق، ص149؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 1/ 156 ح ابن خلدون، المصدر السابق: 6/ 130.

(28) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص149.

(29) يقارن: إسماعيل، المرجع السابق، ص88.

(30) أُخذ عيسى بن يزيد وَشدَّ وثاقه، ورُبط إلى شجرة في رأس جبل، بعد أن طُلي بالعسل، وتُرك حتى قتله البعوض والزنابير والنحل. ينظر: البكري، المصدر السابق، ص149؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 1/ 156؛ ابن الخطيب، المصدر السابق: ج3، ص139 ـ 140.

(31) البكري، المصدر السابق، ص149.

144هـ/ 761م، ولا علاقة له بالدولة الصفرية البعيدة في سجلماسة. كذلك لا يمكن أن يكون أبو حاتم الأُباضي خليفة ابن الخطاب، أو عبد الرحمن بن رستم، مؤسس الدولة الرستمية الأُباضية، هو الذي أمر صفرية سجلماسة بعزل إمامهم وقتله، كما يرجح سعد زغلول عبد الحميد[32]. والأغلب أن الأمر التبس على البكري، ولا بد أنه كان يقصد أبا القاسم سمكو، الذي يقتضي منطق الأحداث، أنه هو الزعيم الذي حرض صفرية سجلماسة، وأمرهم بعزل عيسى بن يزيد، ومن ثم آلت الإمامة إليه مباشرة، وظلت حكرا في أسرته، إلى نهاية الدولة المدرارية.

ولا تخص الروايات عهد أبي القاسم سمكو إلا بعبارة مختصرة تشير إلى أنه : «لم يزل واليا عليهم إلى أن مات في آخر سجدة من صلاة العشاء سنة ثمان وستين(ومائة) فكانت ولايته ثلاث عشرة سنة»[33]. ولا شك أن أبا القاسم عمل جاهدا خلال سنوات حكمه على إرساء قواعد الدولة الجديدة، محاولا تجنب المساوئ التي عُزل من أجلها سلفه عيسى بن يزيد، والسير باعتدال ضمن خط المذهب الصفري، دون الدخول في صراعات داخلية مع المجموعات التي تشكل سكان المدينة الجديدة، أو مع القوى الخارجية، لا سيما الولاة العباسيين في المغرب. وقد نالت مدينة سجلماسة الناشئة بالتأكيد عنايته، فعمل حسبما يشير ابن الخطيب[34]، على بناء السور الخارجي المدار على النخل والمزارع، لإحاطة المدينة، وحماية مزارعها وبساتينها. ويبدو أن هذا السور لم يكن محكما بسبب الإمكانات المحدودة للدولة الجديدة، الأمر الذي دعا ابنه أليسع بن أبي القاسم، بعد نحو أربعين سنة، لهدمه وإعادة بنائه بشكل أفضل[35].

---

(32) تاريخ المغرب العربي، 2/ 411.

(33) البكري، المصدر السابق، ص149 ـ 150؛ وينظر: ابن عذاري، المصدر السابق: 1/ 156.

(34) أعمال الأعلام، ج3، ص141.

(35) المصدر نفسه، ج3، ص143.

وبعد وفاة أبي القاسم سنة 168هـ/ 784م، تولى السلطة ابنه إلياس الملقب بأبي الوزير[36]، أو بالوزير، كما يدعوه ابن خلدون[37]. وربما اكتسب إلياس هذا اللقب من كثرة مصاحبته لوالده، ومعاونته له في شؤون الحكم.ولكنه لم يستطع أن يحتفظ بمنصبه لأكثر من ست سنوات، فقد قام عليه أخوه أبو المنتصر أليسع وخلعه وتولى الإمارة بدلا منه. وتم ذلك بتأييد من جماعة الصفرية. ولكن المصادر لا تشير إلى أسباب هذا التغيير، وهل أن دوافعه كانت لمجرد طمع أليسع بالحكم ومحاولة الاستئثار به، أم كان وراء ذلك أسباب أخرى تتعلق بسياسة الدولة، أو بعدم كفاءة إلياس لأنه «كان خاملا فاتر الهمة»، كما يرى أحد المؤرخين المحدثين[38]. وأغلب الظن أن إلياساً كان لين الطبع والعريكة، على العكس من أخيه أليسع الذي تصفه المصادر بأنه «كان جبارا عنيدا، فظا غليظا»[39]، مما يبرر قيامه على أخيه.

وتشير المصادر أيضا إلى أن أبي المنتصر أليسع بن سمكو، الذي تولى الإمارة سنة 174هـ/ 790م، على أنه كان صفريا، وأظهر مذهب الخوارج الصفرية، مما يدل على سياسته الحازمة إزاء نشر المذهب، والذي ربما شهد تراخيا في عهد أخيه إلياس. ويبدو أنه لم يكتف بمدينة سجلماسة ومنطقتها بل حاول فرض هذا المذهب، وأخضع من عانده من البربر، ووصل في فرض سلطته ونشاطه حتى درعه، التي تقع وراء جبال أطلس شرقي إقليم السوس، على بعد أربعة فراسخ (نحو 24 كم) عن سجلماسة[40] فقد غزاها، وفرض الخمس على ما يستخرج منها من معادن[41].

---

(36) البكري، المصدر السابق، ص150؛ وابن عذاري، المصدر السابق: 1/ 156.

(37) العبر وديوان المبتدأ والخبر: 6/ 130.

(38) إسماعيل، المرجع السابق، ص90.

(39) البكري، المصدر السابق، ص150؛ ابن عذاري، المصدر السابق، 1/ 156؛ ابن الخطيب، المصدر السابق، ج3، ص142.

(40) ينظر: ياقوت، معجم البلدان: 2/ 451.

(41) البكري، المصدر السابق، ص150 ح ابن عذاري، المصدر السابق: 1/ 157 ح =

وفي نطاق الشؤون الداخلية يعد أليسع من أكثر أمراء هذه الدولة اهتماما بالتنظيم والعمران، لا سيما بالنسبة لمدينة سجلماسة، فقد شهدت في عهده ازدهارا اقتصاديا، وتطورا في العمران، حتى أنه يمكن أن يعد المؤسس الحقيقي لهذه الدولة. ففي عهده اتخذت سجلماسة شكلها الذي بقيت عليه ووصفت به من قبل المؤرخين والجغرافيين المسلمين. فتذكر الروايات أنه أعاد بناء المدينة تقريبا، بعد أن أمر بإخلائها وإعادة تخطيطها. فقد أمر القبائل بمغادرة المدينة مؤقتا والسكن في الصحراء، ثم أعاد بناء المسجد الجامع(42)، واختط بها المصانع والقصور(43)، وقسمها على القبائل. وانتهت عمارتها الجديدة في سنة 200هـ/ 815م(44)، حيث انتقل إليها، وباشر بتحصينها، وإحاطتها بسور جديد، بدل السور القديم الذي بناه والده أبو القاسم. وجاء بناء هذا السور أكثر قوة وتحصينا، فقد بنى أساسه بالحجارة، وأعلاه بالطوب. وأنفق عليه من ماله الخاص مبالغ كبيرة، قدرها المؤرخون بما يعادل ثمن ألف مد من الطعام(45). وكان لهذا السور اثنا عشر بابا، ثمانية منها حديد(46).

= ابن الخطيب، المصدر السابق، ج3، ص142 ـ 143 ح ابن خلدون، المصدر السابق: 6/ 131.

(42) أبو العباس أحمد القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، القاهرة 1922: 5/ 165، سليمان بن عبد الله الباروني النفوسي، الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الأباضية، مطبعة الأزهار البارونية: 2/ 94.

(43) ابن خلدون، المصدر السابق: 6/ 130 ـ 131.

(44) البكري، المصدر السابق، ص148؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 6/ 131.

(45) البكري، المصدر السابق، ص148؛ الاستبصار، ص201؛ وينظر: ابن عذاري، المصدر السابق: 1/ 157، والمد: مكيال سعته (في المغرب) 4,34 لترا أو ما يعادل وزنا قدره 2,786 كغم من القمح. ينظر: فالتر هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة، كامل العسلي، عمان، منشورات الجامعة الأردنية، 1970، ص75.

(46) البكري، المصدر السابق، ص148.

وتشير رواية ابن خلدون إلى أن أليسع بنى سور مدينة سجلماسة لأربع وثلاثين سنة من ولايته[47]، أي في السنة الأخيرة من حكمه، وهي سنة 208هـ/ 823 ـ 824م. وهذا التاريخ يؤيد احتمال اشتراك مجموعات سكانية جديدة في العمل والبناء، جاءت من الأندلس على أثر انتهاء فتنة سكان الضاحية الجنوبية لقرطبة على الأمير الحكم بن هشام. فنزحوا إلى مدينة فاس في المغرب، والإسكندرية في مصر، ومن ثم إلى كريت (اقريطش)[48]. ولا يستبعد وصول مجموعات من هؤلاء النازحين إلى فاس، وتوغلهم جنوبا حتى سجلماسة، حيث استعان بهم أليسع بن أبي القاسم في بناء السور، واستكمال عمران المدينة بشكل عام، لما تميز به هؤلاء من خبرة فنية في هذه المجالات. وجهودهم في بناء مدينة فاس معروفة، حيث اتخذوا لهم حيًّا خاصا فيها سمي باسمهم «عدوة الأندلسيين»[49]. والحقيقة، كما يقول سعد زغلول عبد الحميد[50]، إن انتقال سجلماسة من قرية صحراوية إلى عاصمة من عواصم المغرب لا بد له من تفسير مثل هذا، مثلها في ذلك مثل مدينة فاس.

ويبدو أن هذا التداخل بين الربضيين وبناء سجلماسة قد أشكل على بعض المؤرخين، فكان السبب في ظهور بعض الروايات الخاطئة التي تشير إلى أن مدرارا باني المدينة كان حدادا من ربضية قرطبة، خرج من الأندلس عند وقعة الربض، فنزل منزلا بقرب سجلماسة حيث كان موضعها سوقا يجتمع فيه البربر وقتا ما في السنة، فانشأ بها خيمة وسكنها، فبنى الناس حوله، وكان رجلا أسود، وأولاده قد هجوا بذلك[51] ومن الواضح أن

(47) العبر وديوان المبتدأ والخبر: 6/ 131.
(48) تنظر تفاصيل هذه الأحداث عند: ابن عذاري، المصدر السابق: 2/ 76 ـ 77.
(49) علي الجزنائي، جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس، الرباط، المطبعة الملكية، 1967، ص24 ـ 26.
(50) تاريخ المغرب العربي: 2/ 414.
(51) ينظر: البكري، المصدر السابق، ص149؛ الاستبصار، ص201.

المقصود بمدرار هنا هو عيسى بن يزيد الأسود، أول أمراء سجلماسة. وقد أشار البكري نفسه إلى خطأ هذه الرواية[52].

وبعد وفاة أليسع سنة 208هـ/ 823م، تولى ابنه مدرار بن أليسع الذي تلقب بالمنتصر. ويبدو أن مدينة سجلماسة عرفت شيئا من الاضطراب في هذه السنة أو التي سبقتها، بسبب اختلاف وجهات نظر أهلها فيمن يستحق الإمامة، حيث تشير حوليات ابن عذاري في أحداث سنة 207هـ/ 822م إلى أن أهل سجلماسة قدموا على أنفسهم بعد وفاة أليسع، أخاه إلياس المنتصر بن أبي القاسم الذي كانوا خلعوه[53]. ولا نعثر على تأييد لهذا الخبر في المصادر الأخرى، وحتى ابن عذاري نفسه يخالف هذا الأمر حين يتحدث عن التعريف بمدينة سجلماسة، فيقول أن أليسع توفي سنة 208هـ/ 823م، ثم ولي ابنه مدرار بن أليسع[54].

وتتفق غالبية المصادر التي وصلتنا على حدوث اضطرابات داخلية في سجلماسة بعد نحو ثلاثة عشر سنة من ولاية مدرار، يعود سببها إلى الخلاف بين ابني مدرار اللذين أنجبهما من زوجتين مختلفتين. الأول هو ميمون بن أروى بنت عبد الرحمن بن رستم أمير دولة تاهرت، والثاني هو ميمون بن بقية. وقد استمر هذا الصراع نحو ثلاث سنوات من 221 ـ 224هـ/ 836 ـ 839م. ويبدو أن مدرار المنتصر كان يؤثر ابن أروى الرستمية، حتى إنه عهد إليه بولاية العهد[55]، الأمر الذي أثار ولده الثاني ومن كان يؤيده من أهل سجلماسة، الذين لم يرضوا بتزايد النفوذ الأُباضي الذي يمثله ميمون بن أروى الرستمية الأُباضية. وقد اتخذ الوالد جانب ابنه ميمون بن أروى، بل

(52) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص149؛ ويقارن: عبد الحميد، المرجع السابق: 2/ 414.

(53) البيان المغرب: 1/ 97.

(54) المصدر نفسه: 1/ 157.

(55) النفوسي، المصدر السابق، ص295.

إنه خلع نفسه وولاه مكانه بعد أن طرد ابن بقية عن سجلماسة سنة 224هـ/ 839م[56].

وعلى الرغم من هذا الموقف المتعاطف من مدرار إزاء ابنه ميمون من زوجته أروى الرستمية، نجد أن الأخير يستبد بالأمر تماما ويأمر بإخراج والده وأُمه إلى بعض قرى سجلماسة[57]. وقد استاء شيوخ الصفرية من تصرفات ميمون هذه، لا سيما وأنه لم يحسن السيرة في الحكم، الأمر الذي أدى إلى زيادة نشاط الخوارج الأُباضية في المدينة، وصراعهم مع غالبية السكان الصفريين، الذين تأثروا بتحريض ميمون بن بقية، فصمموا على خلع ابن أروى، وتولية أخيه، لكن الأخير رفض الإمامة، وأعاد والده إلى السلطة. وتم نفي ابن أروى إلى درعة[58].

ويبدو أن مدرارا لم يتعظ بما حدث فأرسل إلى ابنه ميمون بن أروى، الذي كان مقيما في درعة مع بعض أعوانه، ليوليه الحكم. وهنا ثارت ثائرة أهل سجلماسة، الذين حاصروا قصر مدرار ومن ثم خلعوه، وأعلنوا إمامة ابنه ميمون بن بقية، الذي عُرف بالأمير. وهذا يدل على مدى تعلق أهل المدينة به، وأنه الأمير الوحيد الذي اعترفوا به من بين ابني مدرار. ولا ننسى هنا تأثير انتمائه إلى والدته بقية، التي لا شك أنها من نفس المدينة.

ولا يعرف بالضبط تاريخ تولي ميمون بن بقية، ولكن حكمه انتهى سنة 263هـ/ 876م. أما والده مدرار، فقد توفي سنة 253هـ/ 867م[59]. ولا تشير مصادرنا إلى أخبار ميمون، إلا أن ابن خلدون يصفه بالاستبداد[60]، ولعله

(56) البكري، المصدر السابق، ص150؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 1/ 107، 157.

(57) ابن عذاري، المصدر السابق: 1/ 107.

(58) البكري، المصدر السابق، ص150؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 1/ 157؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 6/ 131.

(59) المصدر نفسه: 6/ 131.

(60) المصدر نفسه: 6/ 131.

كان مضطرا إلى اتباع هذه السياسة ليواجه المعارضين له، لا سيما أنصار أخيه الذين تجمعوا في درعة لاستجماع قواهم، وربما لمحاولة إعادة أخيه إلى الحكم[61]. ولكنهم كما يبدو لم يوفقوا في هذا الأمر، فقد تولى محمد بن ميمون الحكم بعد أبيه. وعلى الرغم من قصر المدة التي بقي فيها بالسلطة، من 263 ـ 270هـ/ 876 ـ 883م، فقد كان له نشاط عسكري ملحوظ، لا سيما باتجاه الجنوب من سجلماسة، حيث «غزا وطهر بلاد القبلة»، واستولى على مدينة تابلبالت التي تقع في إقليم سجلماسة[62].

وبوفاة محمد بن ميمون سنة 270هـ/ 884م، انتقلت الإمامة إلى عمه أليسع بن مدرار بن أليسع[63]، الذي يشير ابن الخطيب إلى أنه «استكثر من الجيوش وأحسن السيرة وعزم على غزو مطغرة»[64]. ولا تذكر هذه الرواية السبب في هذا الغزو، وربما كان أليسع يتطلع إلى ضم صُفرية مطغرة ويوحد صفرية المغرب تحت لوائه، كما يرى أحد الباحثين المحدثين[65]، ولكنه لم يتمكن من تحقيق هذا المشروع بسبب قيام الدولة الفاطمية، وتقدم جيوش أبي عبد الله الشيعي نحو سجلماسة واستيلائه عليها سنة 297هـ/ 909م.

وعلى الرغم من مقتل أليسع بن مدرار، وخضوع سجلماسة للنفوذ الفاطمي إلا أن ذلك لم يؤد إلى نهاية حكم أسرة بني مدرار. فقد بذل بعض أفرادها محاولات في استرداد حكمهم، وساعدهم على ذلك، عدم رضوخ الخوارج الصفرية لولاة الفاطميين المدعومين بحاميات من الجند الكتامي.

---

(61) ينظر: إسماعيل، المرجع السابق، ص92.

(62) ابن الخطيب، المصدر السابق، ج3 ص144.

(63) البكري، المصدر السابق، ص150؛ الاستبصار، ص204؛ ابن الخطيب، المصدر السابق، ج2 ص145 ح ابن خلدون، المصدر السابق: 6/ 131 ح أما رواية ابن عذاري، فتجعل أليسع هذا هو ابن ميمون بن مدرار بن أليسع، الذي تلقب بالمنتصر على اسم جده. البيان المغرب: 1/ 157.

(64) ابن الخطيب، المصدر السابق، ج3، ص145.

(65) إسماعيل، المرجع السابق، ص93.

كذلك كان للسياسة الاقتصادية الجائرة التي انتهجها الفاطميون أثر كبير في اندلاع الثورات الصفرية على الحكم الفاطمي. فقد تعرض أهالي سجلماسة إلى السلب والاستيلاء على أموالهم حال دخول الجيوش الفاطمية. وقيل إن عبيد الله المهدي نقل ما يعادل حمولة مئة وعشرين بعيرا من الأموال من سجلماسة وأدخلها إلى مدينة رقادة(66).

وقد ساعدت الظروف السياسية في بلاد المغرب على نجاح انتفاضات الخوارج الصفرية في سجلماسة، لا سيما الخلاف بين عبيد الله المهدي وأبي عبد الله الشيعي، وما سببه اغتيال الأخير من غضب قبيلة كتامة وخروجها على الفاطميين. كذلك كان لازدياد الخطر الأموي في الأندلس وامتداد نفوذ عبد الرحمن الناصر لدين الله إلى المغرب، واستيلائه على عدد من مدنه، أثّر في ارتخاء قبضة الفاطميين على أجزاء شاسعة من المغرب، الأمر الذي سهل انسلاخ الخوارج الصفرية في سجلماسة عن سلطة الفاطميين كلما سنحت لهم الفرصة. وقد زاد تعصب الفاطميين لمذهبهم الإسماعيلي من عناد الصفرية في المقاومة يضاف إلى ذلك قيام الفاطميين بالتعصب لقبيلتي كتامة وصنهاجة، واختصاصهما بالمناصب، مما سبب تعميق عداوة مكناسة الصفرية لهم. ولا ننسى أخيرا ما كان لبعد سجلماسة الجغرافي ووعورة الوصول إليها من أثر على تقاعس الجند الفاطمي من التوجه إليها لقمع تلك الانتفاضات(67).

وهكذا فقد انتفض أهالي سجلماسة على القائد الذي ولاه عبيد الله المهدي على مدينتهم بعد مقتل أليسع بن مدرار سنة 297هـ/ 909م، فقتلوه هو

(66) الاستبصار، ص204. والمعدل التقريبي لحمل الجمل هو 250 كغم، ينظر: هانتس، المرجع السابق، ص26 ـ 27.

(67) القاضي النعمان بن محمد، كتاب المجالس والمسايرات، تحقيق الحبيب الفقي ورفاقه، تونس، منشورات الجامعة التونسية، 1978، ص255؛ ويقارن: إسماعيل، المرجع السابق، ص166 ـ 167.

وجنده، بعد خمسين يوما من ولايته، وبايعوا لأحد أفراد أسرة بني مدرار، وهو الفتح بن الأمير ميمون الملقب بواسول[68]. وبعد وفاة الفتح سنة 300هـ/ 912م، بايع أهل سجلماسة أخاه أحمد بن ميمون، الذي استقل عن الفاطميين نحو تسع سنوات، تمكن بعدها قائد المهدي، مصالة بن حبوس من دخول سجلماسة عنوة، وقبض على أميرها أحمد بن ميمون وقتله. ولكن سياسة الفاطميين اقتضت مداراة أهل سجلماسة، حتى يأمنوا شغبهم، فولى مصالة على المدينة رجلا من بني مدرار هو المعتز بن محمد بن ساور بن مدرار، فظل هذا الأمير على ولائه للفاطميين حتى وفاته سنة 321هـ/ 934م، وأعقبه ابنه محمد بن المعتز الملقب بأبي المنتصر، الذي حكم حتى سنة 331هـ/ 942م. ثم تولى أبو المنتصر سمكو بن محمد لمدة شهرين، وكان صغير السن دون الاحتلام مما ساعد ابن عمه محمد بن الفتح بن ميمون على الإطاحة به سنة 332هـ/ 943م، وتولى سجلماسة بدلا منه، منهيا بذلك سياسة الولاء للفاطميين التي استمرت نحو ثلاثة وعشرين عاما[69].

لقد سار هذا الأمير الجديد إلى نهاية الشوط في رفض التبعية الفاطمية بل تحدى الفاطميين، وعدَّ نفسه ندا لهم، فتسمى بأمير المؤمنين، وتلقب بالشاكر لله، وضرب الدراهم والدنانير باسمه. وتشير معظم المصادر إلى أنه خالف المذهب الخارجي وأنه كان سني المذهب، حسن السيرة، يظهر العدل.[70] ولكن محمود إسماعيل يعتقد[71]، وربما كان محقا في ذلك، أن

---

(68) البكري، المصدر السابق، ص150؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 1/ 206.

(69) البكري، المصدر السابق، ص150 ـ 151 ح ابن عذاري، المصدر السابق: 1/ 206؛ ابن الخطيب، المصدر السابق، ج3 ص146 ـ 147 ح ابن خلدون، المصدر السابق: 6/ 131.

(70) ينظر: علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، نقط العروس في تاريخ الخلفاء، تحقيق، شوقي ضيف، مجلة كلية الآداب، العدد 13، ج2، القاهرة، 1951، ص76؛ البكري، المصدر السابق، ص151؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 1/ 206؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 6/ 132.

(71) الخوارج في المغرب الإسلامي، ص168.

حركة الشاكر لله كانت حركة خارجية صفرية خالصة، تمثل رد الفعل الصفري ضد الحكم الفاطمي، والانفصال بسجلماسة عن طاعة الخلفاء الفاطميين. ولم يكتف الشاكر لله بهذا، بل فكر في توسيع رقعة نفوذه شمالا، وحاول غزو إمارة نكور سنة 340هـ/ 951م[72]. ولكن أتباعه الصفرية لم يوافقوه على ذلك مقتنعين بما حصلوا عليه من استقلال سياسي[73].

ولم يكن هذا الاستقلال بطبيعة الحال يرضي الخلفاء الفاطميين، لا سيما أبو تميم سعد الملقب بالمعز، الذي أعد حملة كبيرة لاستعادة نفوذ الفاطميين في المغرب الأقصى سنة 347هـ/ 960م، عهد بقيادتها إلى جوهر الصقلي. وقد حاصر الأخير سجلماسة، لكن الشاكر لله تمكن من الهرب من المدينة التي دخلها جوهر دون مقاومة، وعفا عن أهلها. وقد تم القبض على الشاكر لله حينما تسلل إلى المدينة مستترا ليتعرف على الأخبار، ويتصل بأتباعه. وعاد به جوهر الصقلي أسيرا إلى القيروان ثم سجن في رقادة التي بقي فيها حتى وفاته سنة 345هـ/ 965م. أما سجلماسة، فقد عيّن عليها جوهر الصقلي واليا من قبله، ولكن أهلها ما لبثوا أن انتفضوا على هذا العامل وقتلوه، وأقاموا مقامه المنتصر لله بن محمد المعتز، وهو الذي كان الشاكر لله قد خلعه عام 332هـ/ 943م. وقد اضطر المعز إلى القبول بالوضع الجديد بعد أن اعتذر إليه وفد قدم من المدينة برفقة الأمير الجديد، المنتصر بن محمد المدراري[74].

ولكن نزعة الاستقلال ظلت كامنة عند أهل سجلماسة حتى وجدت طريقها في ثورة عارمة قادها أحد إخوة المنتصر المدعو أبا محمد المعتز

---

(72) القاضي النعمان، المصدر السابق، ص434.

(73) ابن حوقل، المصدر السابق، ص83.

(74) ينظر: القاضي النعمان، المصدر السابق، ص388 ـ 389؛ البكري، المصدر السابق، ص151؛ ابن الخطيب، المصدر السابق، ص148 ـ 149؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 6/ 132.

لله، أدت إلى مقتل المنتصر، وإعلان الخروج عن طاعة الفاطميين سنة 352هـ/ 965م[75]. وقد استمر هذا الأمير المدراري الأخير في الحكم حتى سنة 366هـ/ 979م، باستقلال تام عن الفاطميين، الذين زال نفوذهم نهائيا عن سجلماسة. لكن الخطر جاء أخيرا من قبيلة مغراوة، التي زحف قائدها خزرون بن فلفول إلى عاصمة بني مدرار، وقتل أبا محمد المعتز لله، وأعلن تبعية سجلماسة للخلافة الأموية في الأندلس. وهكذا «انقرض أمر بني مدرار ومكناسة من المغرب أجمع» كما يقول ابن خلدون[76]، وحل نفوذ مغراوة وبني يفرن محلهم.

وفي ختام الحديث عن بني مدرار في سجلماسة، لا بد من بيان دورهم التاريخي وموقفهم من القوى المتعددة في العالم الإسلامي بوجه عام، وبلاد المغرب بوجه خاص. ويمكن القول ابتداءً، أن علاقات بني مدرار الخارجية تأثرت بعوامل متعددة، أهمها الظروف السياسية، والمصالح الاقتصادية، والحفاظ على المذهب الديني. كما لعبت الطبيعة الجغرافية لمنطقة سجلماسة أيضا دورا في تحديد مسار هذه العلاقات.

كان هاجس المحافظة على الاستقلال السياسي والمذهبي لبني مدرار في سجلماسة يغلب على معظم أمرائها، لذلك فقد كان دورهم سلبيا على وجه العموم إزاء التيارات السياسية المختلفة المحيطة بهم، ونادرا ما كانوا يخرجون عن دائرة العزلة التي فرضتها عليهم الطبيعة الجغرافية لمنطقة نفوذهم. ولكن نظرا للطابع المذهبي المتطرف الذي ينتمون إليه باعتبارهم خوارج صفرية، كان لا بد أن يكون موقفهم من الخلافة العباسية، وموقف الأخيرة منهم، موقفا لا يتسم بالود والمصالحة، وإن لم يتعد ذلك إلى الصدام المسلح، سواء مع عمال العباسيين في المغرب الأدنى في أثناء قيام دولة بني مدرار، أو مع

(75) المصدر نفسه: 6/ 132؛ القلقشندي، المصدر السابق: 5/ 167؛ السلاوي، المصدر السابق: 1/ 114.

(76) العبر وديوان المبتدأ والخبر: 6/ 132.

الأغالبة خلفاء العباسيين الذين استقلوا ذاتيا في القيروان.

وهناك من يعتمد على بعض النصوص التي أوردها ابن خلدون، في تقرير أمر تبعية أمراء سجلماسة لبني العباس[77]، كقوله عن أبي القاسم سمكو، أنه «خطب في عمله للمنصور والمهدي من بني العباس»[78]، وأن أليسع بن مدرار قبض على عبيد الله المهدي وابنه أبو القاسم، وسجنهما في سجلماسة مرضاة للخليفة العباسي وبأمر منه[79]، وأن محمد بن الفتح الشاكر لله دعا في حركته لبني العباس[80]. والواقع أننا لو تتبعنا ظروف هؤلاء الأمراء.الثلاثة لوجدنا أنهم عاشوا أحداثا حاسمة تتسم بالكثير من الصعوبات والجهود المبذولة للمحافظة على البيت المدراري، والدولة في سجلماسة. فالأول كان يعيش دور التأسيس، وربما خطب للمنصور والمهدي خشية من عمالهما في المغرب، الذين عُرفوا بالقوة والقسوة في ملاحقة الخوارج. ويكون إقدامه على هذا العمل ضمن إطار «مبدأ التقية» الذي تجيزه تعاليم المذهب الصفري[81]، لا اعترافا حقيقيا ببني العباس أو تبعية لهم.

وفي عهد أليسع بن مدرار بلغت الدعوة الفاطمية ذروتها في بلاد المغرب، ووصلت إلى سجلماسة، وأطاحت بدولة بني مدرار، كما أطاحت بالأغالبة والرستميين. فكان من الطبيعي أن يتصرف أليسع إزاء عبيد الله المهدي وابنه أبي القاسم، بما تمليه عليه مصلحة دولته، بعد أن عرف صلتهما بالداعي أبي عبد الله الشيعي. ولم يكن بحاجة إلى انتظار أمر من الخليفة العباسي، أو الأمير الأغلبي في القيروان، ليسارع إلى القبض على

(77) من هؤلاء بعض المستشرقين الفرنسيين أمثال: مرسييه، وفورنل، وبل وبروفنسال: ينظر عن طروحاتهم: إسماعيل، المرجع السابق، ص94 ـ 95، 269، والهوامش 128، 129، 130، 131.

(78) العبر وديوان المبتدأ والخبر: 6/ 130.

(79) المصدر نفسه: 3/ 363، 6/ 131.

(80) المصدر نفسه: 6/ 132.

(81) يقارن: إسماعيل، المرجع السابق، ص95.

هذين الرجلين الخطرين القادمين إلى سجلماسة. ومما يقلل من أهمية روايات ابن خلدون في هذا الشان اضطرابها وتذبذبها بين الخليفتين المكتفي والمعتضد، لإصدار مثل هذا الأمر، فضلا عن عدم تحديدها فيما إذا كان الخليفة العباسي هو الذي اتصل باليسع مباشرة، أم كان ذلك بواسطة الأمير الأغلبي.

وكان على الشاكر لله أن يقاوم الفاطميين سياسيا ومذهبيا، الأمر الذي دعاه لاتخاذ لقب أمير المؤمنين، وضرب النقود باسمه دون الخليفة العباسي أو الفاطمي، مما يدل على عدم اعترافه بخلافتهما، حسب مذهبه الخارجي. فالغاية سياسية بالدرجة الأولى، والدعوة خاصة به، والقصد تأليب كل القوى في المغرب ضد الفاطميين بما فيهم السنة. وربما كان التمويه لبني العباس بهذا القصد، كما يشير إلى ذلك القلقشندي[82]، لكن الاستقلال السياسي واضح من دعوته.

ولا يختلف موقف بني مدرار من الدولة الإدريسية عن موقفهم من العباسيين أو الفاطميين، ففضلا عن الاختلاف في المذهب، قامت الدولة الإدريسية في سنة 172هـ/ 789م على حساب نفوذ الصفريين في المغرب. واقتطعت فيما بعد بعض الأجزاء من الدولة المدرارية، مثل بعض الحصون القريبة من سجلماسة، لا سيما بلدة تامدلت قرب درعة الغنية بمعادن الذهب والفضة، فحرمت بني مدرار من هذه المناجم[83]. كما عامل الأدارسة الصفريين المتواجدين ضمن مناطق نفوذهم بشدة، لا سيما صفرية تلمسان، الذين حاربهم إدريس الثاني إلى أن أذعنوا لطاعته[84]. ولم يستطع بنو مدرار مساعدة إخوانهم في تلمسان، لكنهم حاولوا الرد بشكل غير مباشر عن طريق

(82) صبح الأعشى: 5/ 167.

(83) اليعقوبي، البلدان، ص359.

(84) ابن الخطيب، المصدر السابق، ج3، ص198؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 4/ 13.

تشجيع أحد الصفرية، ويدعى عبد الرزاق الخارجي، وهو من مدينة وشقة بالأندلس، الذي ثار بجبل مديونة جنوبي فاس، واستطاع أن يستولي على مدينة صفروي. وقد بايعه كافة الصفريين في المنطقة، وتمكن من دخول فاس عاصمة الأدارسة، وهزم أميرها علي بن عمر بن إدريس. لكن حركة عبد الرزاق لم تدم طويلا، فقد استطاع يحيى بن القاسم بن إدريس المعروف بالعدام من طرده من عدوة الأندلسيين، وقاتل أنصاره وتغلب عليهم سنة 292هـ/ 906م[85].

وعلى الرغم من علاقات العداء المتبادلة بين الدولتين، لم تتمكن أية واحدة منهما من الشروع في عمل عسكري ضد الأخرى بسبب مشاكلهما الداخلية، ونزاع الأدارسة الحاد مع الأغالبة. وقد سنحت الفرصة لبني مدرار بإمكانية التحرك عسكريا إزاء دولة الأدارسة ومحاولة توحيد صفرية المغرب الأقصى في عهد أليسع بن مدرار، الذي عقد العزم على تحرير صفرية مطغرة، الذين كانوا يخضعون لدولة الأدارسة، وجند الجيوش لهذه الغاية[86]، لكن ازدياد الخطر الفاطمي الذي هدد مدينة سجلماسة ذاتها شغله عن ذلك، وانتهى أمر المدينة بالسقوط، وقتل أميرها أليسع على يد الفاطميين سنة 297هـ/ 909م، كما أسلفنا.

ومن جهة أخرى فقد نجم عن وحدة الظروف السياسية، ووحدة المصير وتجاور الموقع الجغرافي، بين بني مدرار في سجلماسة والرستميين في تاهرت تطور في العلاقات، اتسم بالطابع الودي بين الدولتين على الرغم من الخلاف في المذهب. وقد سار بعض حكام هاتين الدولتين إلى أبعد من

(85) البكري، المصدر السابق، ص125؛ علي بن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط، دار المنصور للطباعة والوراقة، 1972، ص78 ـ 79؛ ابن الخطيب، المصدر السابق، ج3، ص208 ـ 209؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 4/ 15.

(86) ابن الخطيب، المصدر السابق، ج3، ص145.

ذلك في تعزيز العلاقة بينهما، فطلب أليسع بن أبي القاسم سمكو من عبد الرحمن بن رستم تزويج ابنه مدرار من أروى بنت عبد الرحمن، فوافق الأخير على ذلك، حرصا على تحقيق التضامن والوئام بين الدولتين.[87] وقد استمر هذا التضامن، وإن لم يتطور إلى مرحلة التحالف أو حتى التعاون المشترك ضد أعداء الخوارج التقليديين، بسبب الخلاف المذهبي بين الرستميين وبني مدرار.[88] لكن الدولتين عمدتا إلى تجنب التدخل في شؤون بعضهما البعض، وتحاشي الانغمار في الخلافات التي تنشب بين الأقليات الأُباضية وأُمراء سجلماسة، وكذلك بين الأقليات الصُفرية والسلطة في تاهرت[89].

وقد جمع العداء المشترك للخلافة العباسية والأغالبة والأدارسة بين كل من بني مدرار والرستميين وأمويي الأندلس، فقامت علاقة طيبة بين هذه الأطراف الثلاثة، وسمت المصالح السياسية على الاختلاف المذهبي بين بني مدرار الصفرية وبني رستم الأُباضية وبني أمية السنَة. وتغلبت وحدة المصير على الأحقاد القديمة بين الخوارج والأمويين[90]. ويبالغ المؤرخون القدامى في هذه العلاقة إلى حد التشكيك بالاستقلال السياسي الذي تمتعت به دولتا الخوارج في كل من سجلماسة وتاهرت، لا سيما في عهد الأمير الأموي محمد بن عبد الرحمن بن الحكم (238 ـ 273هـ/ 853 ـ 898م). فيشير ابن عذاري مثلا[91]، إلى أن محمد بن أفلح صاحب تاهرت، وكذلك بنو مدرار في سجلماسة كانوا لا يقدمون على أمر أو يتأخرون عنه إلا عن رأيه وأمره.

(87) ابن خلدون، المصدر السابق: 6/ 131.

(88) يقارن: إسماعيل، المرجع السابق، ص103.

(89) ينظر عن نشاط هذه الأقليات في كلتا الدولتين: ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق محمد ناصر وإبراهيم بحاز، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1986، ص97، 108.

(90) ينظر: إسماعيل، المرجع السابق، ص105.

(91) البيان المغرب: 2/ 108.

أما ابن الخطيب[92]، فيذهب إلى أن تاهرت وسجلماسة اعترفتا بطاعته. وأغلب الظن أن علاقات المودة هذه كانت لا تتعدى الاحترام المتبادل، واستقبال مدن الأندلس لصفريي سجلماسة، وزيارة الأندلسيين لهذه المدينة. وهناك إشارة إلى احتمال قيام الأمير ميمون (الأمير) ابن مدرار بمساعدة الأندلس في عهد الأمير الأموي عبد الرحمن بن الحكم (206 ـ 238هـ/ 821 ـ 853م) في أثناء تعرض البلاد للقحط الذي حل بها سنة 232هـ/ 847م: فأرسل إلى الأندلس كميات من الحنطة والسكر والتمر[93].

ولا تتوفر معلومات أخرى عن طبيعة العلاقات الودية التي جمعت بين سجلماسة وقرطبة، وإن كان من المحتمل أنها ازدادت رسوخا بعد ظهور الخطر الفاطمي في شمال إفريقيا، الذي هدد كلاًّ من الطرفين. ولكن يبدو أن تدهور الأوضاع الداخلية في الأندلس، وكثرة الفتن والمتمردين، لا سيما حركة عمر بن حفصون[94]، قد شغلت أمير الأندلس الأموي عبد الله بن محمد عن إبداء المساعدة اللازمة لكل من تاهرت وسجلماسة، فسقطتا تباعا على يد الفاطميين، وابتدأ عهد جديد في الشمال الإفريقي، حاول العمل على ضم الكيانات الإسلامية المختلفة في المنطقة تحت سلطته.

(92) أعمال الأعلام، القسم الثاني، نشر ليفي بروفنسال، بيروت، دار المكشوف، 1956، ص22.
(93) ينظر: ابن عذاري، المصدر السابق: 2/ 89؛ القلقشندي، المصدر السابق: 5/ 164.
(94) ينظر عن هذه الحركات: ابن عذاري، المصدر السابق: 2/ 131 فما بعدها.

جدول بأسماء أمراء بني مدرار في سجلماسة

1	عيسى بن يزيد الأسود (لا ينتمي إلى بني مدرار)	140 ـ 155هـ/ 757 ـ (771ـ 772)م
2	أبو القاسم سمكو بن واسول	155 ـ 165هـ/ (771 ـ 772) ـ 784م
3	إلياس بن أبي القاسم (الوزير أو أبو الوزير)	168 ـ 174هـ/ 784 ـ 790م
4	أليسع الأول بن أبي القاسم سمكو	174 ـ 208هـ/ 790 ـ 823م
5	مدرار بن أليسع (المنتصر)	208 ـ 224هـ/ 823 (838 ـ 839)م
6	ميمون بن مدرار (الملقب بابن أروى أو ابن الرستمية)	224 ـ ؟هـ/ (838 ـ 839) ـ ؟م
7	ميمون الأمير (الملقب بابن بقية)	؟ ـ 263هـ/ ؟ ـ 876م
8	محمد بن ميمون	263 ـ 270هـ/ 876 ـ 883م
9	أليسع الثاني ابن مدرار (المنتصر)	270 ـ 297هـ/ 883 ـ 909م
الاحتلال الفاطمي الأول 297هـ/ 909م		
10	الفتح بن ميمون بن مدرار (الملقب بواسول)	298 ـ 300هـ/ 910 ـ 912م
11	أحمد بن ميمون بن مدرار	300 ـ 309هـ/ 912 ـ 921م
الاحتلال الفاطمي الثاني 309هـ/ 921م		
12	المعتز بن محمد بن سارو بن مدرار	309 ـ 321هـ/ 921 ـ 934م
13	محمد بن المعتز (أبو المنتصر)	321 ـ 331هـ/ 934 ـ 942م
14	المنتصر سمكو بن محمد (لأول مرة)	332 (شهران) / 943م
15	محمد بن الفتح بن ميمون (الشاكر لله)	332 ـ 347هـ/ 943 ـ 958م
الاحتلال الفاطمي الثالث 347هـ/ 958م		
16	المنتصر لله بن محمد بن المعتز (لثاني مرة)	347 ـ 352هـ/ 958 ـ 963م
17	أبو محمد المعتز بالله بن محمد بن المعتز	352 ـ 366هـ/ 963 ـ 976م
سقوط سجلماسة على يد خزرون بن فلفول المغراوي وإعلان تبعيتها للأندلس 366هـ/ 976م		

جريدة المصادر والمراجع

أ ـ المصادر الأولية:

* الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد.
1 ـ المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق، تحقيق محمد الحاج صادق، باريس، 1982.
* البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز.
2 ـ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، نشر، دي سلان، الجزائر، 1857.
* الجزنائي، علي.
3 ـ جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس، الرباط، المطبعة الملكية، 1967.
* ابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد.
4 ـ نقط العروس في تاريخ الخلفاء، تحقيق، شوقي ضيف، مجلة كلية الآداب، العدد 13، ج2، القاهرة، 1951.
* ابن حوقل، محمد بن علي بن حوقل النصيبي.
5 ـ صورة الأرض، بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة، 1979.
* ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد.
6 ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر، بولاق، 1284هـ، أعيد طبعه في بيروت، 1979.
* ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبد الله محمد.
7 ـ أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام، القسم الثالث، نشر بعنوان: تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، تحقيق، أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، الدار البيضاء، دار الكتاب، 1964.
* ابن خلكان، أحمد بن محمد.
8 ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق، إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة (د.ت).
* ابن أبي زرع، علي بن أبي زرع الفاسي.

9 - الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط، دار المنصور للطباعة والوراقة، 1972.

* أبو زكريا، يحيى بن أبي بكر.

10 - كتاب سير الأئمة وأخبارهم، تحقيق، إسماعيل العربي، ط2، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1982.

* ابن الصغير.

11 - أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق، محمد ناصر، وإبراهيم بحاز، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1986.

* ابن عذاري، أحمد بن محمد المراكشي.

12 - البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، نشر، كولن وليفي بروفنسال، ليدن، 1948.

* القاضي النعمان، القاضي النعمان بن محمد.

13 - كتاب المجالس والمسايرات، تحقيق، الحبيب الفقي ورفاقه، تونس، منشورات الجامعة التونسية، 1978.

* القلقشندي، أبو العباس أحمد.

14 - صبح الأعشى في صناعة الإنشا، القاهرة، 1922.

* مجهول المؤلف.

15 - كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق، سعد زغلول عبد الحميد، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، 1986.

* مجهول المؤلف.

16 - مفاخر البربر، نشر ليفي بروفنسال، رباط الفتح، المطبعة الجديدة، 1934 .

* المقدسي، أبو عبد الله محمد بن أحمد.

17 - أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن، 1909.

* ياقوت، أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت الحموي.

18 - معجم البلدان، بيروت، دار صادر، 1977.

* اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب.

19 - كتاب البلدان، منشور مع كتاب الأعلاق النفيسة، لابن رستة، ليدن، 1891.

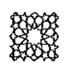
ب ـ المراجع الثانوية:

* إسماعيل، محمود.

20 - الخوارج في المغرب الإسلامي، بيروت، دار العودة، 1976.

* عبد الحميد، سعد زغلول.
21 ـ تاريخ المغرب العربي، الإسكندرية، منشاة المعارف، 1979.
* هنتس، فالتر.
22 ـ المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة، كامل العسلي، عمان، منشورات الجامعة الأردنية، 1970.

تاريخ وحضارة دولة الأدارسة في فاس



أصل الدولة:

سميت دولة الأدارسة بهذا الاسم نسبة إلى مؤسسها إدريس بن عبد الله ابن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. الذي جاء إلى المغرب الأقصى في أعقاب فشل إحدى الحركات المناوئة التي اشترك فيها ضد الدولة العباسية في عهد الخليفة الهادي سنة 169هـ/ 786م. وقاد هذه الحركة التي قام بها الفرع الحسني من العلويين الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي، الذي ثار على عامل العباسيين في المدينة المنورة عمر بن عبد العزيز بن عبد الله، لسوء معاملته لبعض أفراد الأسرة العلوية. وقد تغلب الثوار على عامل المدينة، وبويع الحسين بن علي بالخلافة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأقام الحسين مدة يسيرة في المدينة، ثم انتقل إلى مكة. ولما سمع الخليفة الهادي بخبر هذه الحركة، كتب إلى أحد قادته، محمد بن سليمان بن علي، الذي كان قد قدم حاجا إلى مكة مع بعض

رجاله، يأمره بحرب الحسين بن علي، وعند وصوله إلى قرب مكة، انضم إليه أنصار العباسيين من القادة والموالي الذين جاءوا للحج.

معركة فخ:

وقد حدثت معركة فاصلة بين الطرفين في مكان يسمى فخا. وهو وادي في طريق مكة. يبعد عنها نحو ستة أميال، انتهت بهزيمة الحسنيين، ومقتل عدد كبير منهم، وكان إدريس بن عبد الله بن الحسن، وأخيه يحيى، ضمن الأشخاص القلائل الذين استطاعوا النجاة من المعركة، حيث خرجا من الحجاز متخفين بين قوافل الحجاج الراجعين بعد انتهاء موسم الحج[1]. وقد اتخذ كل من الأخوين طريقا خاصا به، فتوجه يحيى بن عبدالله نحو المشرق، حيث نجح في الحصول على بعض الأنصار المؤيدين له ولكن الخليفة الرشيد استطاع أن يتخلص منه فيما بعد. أما إدريس بن عبدالله، فقد كان أكثر توفيقا من أخيه يحيى، فاستطاع أن يفر إلى المغرب الأقصى، حيث نجح في تأسيس دولة جديدة تعرف بالأدارسة.

هروب إدريس بن عبدالله إلى المغرب:

هناك روايات متعددة عن كيفية هروب إدريس بن عبدالله إلى المغرب، ولكن الخطوط الرئيسة لهذه الروايات متشابهة، وتختلف فقط في التفاصيل[2]. فقد توجه إلى مصر بصحبة أحد مواليه، راشد، الذي اتصف

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، 1979: 6/ 90 ـ 92؛ ياقوت، معجم البلدان، بيروت، 1957: 4/ 237؛ ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، نشر: كولان وليفي بروفنسال، ليدن، 1948، أعادت دار الثقافة نشره في بيروت: 1/ 83؛ وانظر أيضا: إسماعيل العربي، دولة الأدارسة ملوك تلمسان وفاس وقرطبة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ص54 ـ 57.

(2) ينظر: البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، نشر: دي سلان، الجزائر، ، 1857، ص118 ـ 119؛ الكامل في التاريخ: 6/ 293؛ البيان المغرب: 1/ 83، ابن أبي زرع، الأنيس المطرب في روض القرطاس =

بالشجاعة ورجاحة العقل. ويقال إن أصل هذا المولى كان من شمال إفريقيا. وقد نال إدريس وراشد في مصر مساعدة أحد الأشخاص الموالين للعلويين، وهو على الأغلب صاحب بريد مصر واضح، مولى صالح بن الخليفة المنصور. ويشير الكندي صراحة إلى أن والي مصر العباسي، علي بن سليمان، أيضا قد ساعد إدريس، وسهل له عملية الخروج من مصر، وذلك بسبب استيائه من الخليفة العباسي في بغداد، وطموحه في نيل الخلافة لنفسه. وقد كان هذا الموقف السبب في عزله عن الولاية فيما بعد من قبل الرشيد[3].

ومهما يكن من أمر، فقد استطاع إدريس وراشد أن يخرجا من مصر بأمان نتيجة تدبير واضح صاحب البريد، الذي حمل إدريس معه في طريق خاصة بالبريد، إلى ما بعد حدود مصر الغربية، بينما سافر راشد في الطريق المألوف إلى الغرب مع إحدى قوافل التجار، حيث اتفق الجميع على اللقاء في برقة[4]. وقد رجع واضح إلى مصر بعد أن اطمئن على سلامة إدريس وراشد، وأمدهما بما يحتاجان إليه من مال ومتاع، ويبدو أن الطلب على الهاربين كان ما يزال شديدا، لذلك فقد عمد إدريس وراشد إلى التنكر، حيث تخفى الأول في زي خشن، وظهر بمظهر غلام يخدم راشدا. ويختلف المؤرخون أيضا في الاتجاه الذي سلكه هذان الطريدان، فهناك من يشير إلى دخولهما إلى بلاد إفريقية والقيروان، وإقامتهما فيهما مدة من الزمن، ثم اتجها بعد ذلك إلى المغرب الأقصى، فدخلا تلمسان واستراحا بها، ثم

= في أخبار ملوك المغرب وتاريخ فاس، نشر: دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972، ص16 ـ 19؛ ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت، 1956، دار الكتاب العربي: 4/ 24.

(3) الكندي، الولاة والقضاة، بيروت، 1908، ص131 ـ 132.

(4) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص119؛ البيان المغرب: 1/ 83؛ روض القرطاس، ص18.

غادرا إلى طنجة[5]. أما البكري[6]، فيشير إلى عدم دخولهما إلى بلاد إفريقية، وأنهما سارا في طريق جنوبي باتجاه الغرب حتى انتهيا إلى طنجة.

وعلى الرغم من عدم وجود أدلة قوية لتأييد سلوكهما لأي من هذين الطريقين، يبدو أن طريق الجنوب كان أكثر أمانا لهما، حيث لم تكن هذه المناطق تخضع إلى سلطة أمير القيروان الفعلية، التابع اسميا للخلافة العباسية. وفضلا عن أمان هذا الطريق الذي يمر بالجريد والزاب، فهو أقصر من الناحية العملية للوصول إلى ناحية الغرب، فعبرا نهر الملوية، ودخلا بلاد السوس الأدنى، ثم وصلا إلى طنجة، التي كانت قاعدة بلاد المغرب الأقصى، فأقاما بها أياما، ثم تحولا عنها إلى مدينة وليلي، وذلك بعد رحلة طويلة استغرقت نحو سنتين[7].

إن السؤال الذي يتبادر إلى الذهن الآن، هو لماذا اتجه إدريس بن عبدالله إلى المغرب، وهل كان في نيته أن يؤسس دولة هناك؟ لا يمكن الجزم بما كان في نية إدريس أن يقوم به في المغرب، ولكن يبدو من المؤكد أنه كان على اطلاع واسع على مجريات الأحداث في هذه المنطقة النائية من الدولة العربية الإسلامية. وإن مولاه راشدا حدثه عن الأحوال السياسية والاجتماعية في المغرب الأقصى، ومن المحتمل أن لهذا الأخير دورا كبيرا في حمل سيده على الاتجاه إلى المغرب، وإقناعه أنه المكان الآمن الذي يوفر الحماية، وربما السلطة له، وذلك بسبب بعده عن قلب

(5) المصدر نفسه، ص19؛ ابن القاضي، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973، ص18.

(6) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص119؛ وينظر: مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق: سعد زغلول عبد الحميد، الإسكندرية، 1958، ص194.

(7) ينظر: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص 118؛ روض القرطاس، ص19؛ ابن الأبار، الحلة السيراء، تحقيق، حسين مؤنس، القاهرة، 1963: 1/ 54 (رواية أبي بكر محمد الرازي)؛ ويقارن: سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، الإسكندرية: 1979: 2/ 426؛ العربي، دولة الأدارسة، ص61 ـ 62.

الدولة العباسية، وكثرة الحركات المناوئة التي قامت فيه، لا سيما حركابت الخوارج. فمن الناحية العملية لم تكن سلطة العباسيين تمتد إلى أكثر من ولاية إفريقية (وهي منطقة تونس الحالية). حتى أن سلطتهم في هذه المنطقة كانت مزعزعة إلى حد كبير.

لقد كانت الأحوال السياسية غير مستقرة في منطقة المغرب العربي منذ أواخر عهد الدولة الأموية، حيث قامت فيها حركات مناوئة عديدة انتهت بالفشل. ومع ذلك فقد ظلت سلطة الدولة المباشرة بعيدة عن هذه المناطق النائية، الأمر الذي دفع الأمير عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) إلى التفكير في الاتجاه إلى هذا المكان، نظرا لملاحقته من قبل العباسيين بعد سقوط الدولة الأموية في المشرق سنة 132هـ/ 749م. ولكن ظروفا أفضل كانت تنتظر عبد الرحمن بن معاوية في الأندلس، لهذا فقد ترك المغرب، ونجح في تأسيس إمارة وراثية في الأندلس، أما إدريس بن عبدالله، فلم يفكر في الأندلس التي استقرت فيها أمور الأمويين، بل ركز اهتمامه على مناطق المغرب الأقصى، حيث وجد فيها أرضا خصبة لإقامة دولة مستقلة عن الخلافة العباسية. وقد ساعد على هذا أن السكان المحليين، كانوا يميلون بطبعهم إلى الاستقلال، الذي ألفوه منذ القدم. ولهذا فقد استطاع إدريس أن يضم حوله البربر الذين وجدوا فيه ثائرا على الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية غير المستقرة في المنطقة، فانضوت الحركة الاستقلالية التي كان ينادي بها هؤلاء تحت لوائه[8].

اختيار مدينة وليلي وبيعة إدريس:

كان السبب في توجه إدريس إلى مدينة وليلي، أنها تتميز بموقع جيد بين منطقة فاس ومكناس على طرف جبل زرهون، وهي من المدن الرومانية

(8) يقارن: حسن أحمد محمود وأحمد إبراهيم الشريف، العالم الإسلامي في العصر العباسي، دار الفكر العربي، القاهرة، 1973، ص407.

القديمة، وكانت تدعى فولوبيليس Volobilis، وتمتاز بخصب المنطقة المحيطة بها وكثرة مياهها وزروعها، أما جبل زرهون الذي يقع بالقرب من مدينة مكناس، فقد كان يمتاز أيضا بكثرة أشجاره، وزروعه، ومياهه العذبة المتدفقة. يضاف إلى ذلك، كانت هذه المنطقة موطنا لسكنى قبائل أوربة البرنسية، التي تمتاز بالقوة والشجاعة، فأراد إدريس أن ينزل بقربها عسى أن ينال تأييدها لنصرة قضيته، وتأسيس دولته الفتية. وقد صح توقع إدريس، حيث تمتع بضيافة وكرم زعيم هذه القبيلة المدعو إسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأوربي. فأقام عنده بضعة أشهر، أظهر الأخير خلالها تعاطفا كبيرا مع إدريس، الذي باح له بالتدريج بقضيته وأحقيته في الإمامة. وقد جمع هذا الزعيم قومه وإخوانه، وعرفهم بمكانة ومنزلة إدريس وفضله وقرابته من الرسول صلى الله عليه وسلم، فرحبوا به وأعربوا عن استعدادهم للانضمام تحت لوائه. فبايعوه في رمضان سنة 172هـ/ شباط 789م[9].

ويبدو أن وجود إدريس كان فرصة جيدة لإسحاق شخصيا، ولقبيلة أوربة بشكل عام، حيث إن نزول أحد العلويين بين ظهرانيهم يعلي من شأنهم بين القبائل الأخرى، ويحقق لهم نوعا من التفوق على زعماء هذه القبائل. لذلك فقد تسارعوا إلى بيعته للقيام بأمرهم، وتولي صلاتهم، وأحكامهم، وغزوهم، ثم فشت دعوة إدريس بين القبائل الأخرى في المنطقة. مثل زناتة، وزواغة، ولماية، ولواتة، وسدراتة، وغياثة، ونفزة، ومكناسة، وغمارة، وهوارة، وقد جاءته الوفود من المناطق المجاورة تعلن عن استعدادها للانضمام إليه، وتأييد دولته، وقد تجمع لدى إدريس قوة بشرية كبيرة استطاع أن ينظم منها جيشا قويا لمنازلة المناطق التي لم تخضع

(9) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص19 ـ 20؛ جذوة الاقتباس، ص19 ـ 20؛ ابن الخطيب، تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام، تحقيق: أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1964، ص190 ـ 191.

لسلطته، أو الأقاليم التي لم ترسخ فيها أقدام الإسلام بعد، والتي عرف أهلها بالزيغ والانحراف عن العقيدة الإسلامية. وهكذا ابتدأ العمل في تأسيس دولة الأدارسة في المغرب(10).

جهود إدريس العسكرية في تثبيت الدولة:

توجهت العمليات العسكرية الأولى لإدريس الأول نحو بلاد تامسنا، التي تقع في البسيط الممتد من وادي أبي رقراق إلى وادي أم الربيع. فافتتح مدينة شالة، وهي مدينة سلا القديمة، التي تقع قبالة مدينة الرباط الحالية على الضفة الثانية من مصب نهر أبي رقراق(11). ثم اخضع كل حصون تامسنا التي تميزت بوجود انحرافات خطيرة، تبنتها قبيلة برغواطة البربرية، التي سكنت في هذا الإقليم(12).وقد أعقب ذلك بإخضاع مناطق تادلا التي تقع إلى الشرق من أغمات. وكان أكثر سكان هذه البلاد يدينون بالنصرانية واليهودية، والإسلام فيها قليل، فاعتنق عدد كبير منهم الإسلام على يديه(13).

ثم رجع إدريس إلى مدينة وليلي ليريح جيوشه، وذلك في ذي الحجة سنة 172هـ/ أيار 789م. فأقام بها إلى بداية سنة 173هـ/ 789م، ثم خرج مرة أخرى لقتال السكان المحليين المتحصنين بالمعاقل المنيعة بالقرب من منطقة فاس وتطوان، لا سيما حصون فندلاوة، وصدينة، ومديونة، وفازاز، وقد عاد بعد ذلك إلى مقره في مدينة وليلي في جمادى الثانية 173هـ/ تشرين الأول 789م(14).

---

(10) سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، 2/ 420.

(11) ينظر: عثمان عثمان إسماعيل، تاريخ شالة الإسلامية، دار الثقافة، بيروت، 1975، ص61، 140 ـ 142.

(12) عن برغواطة، راجع: البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص134 ـ 141.

(13) روض القرطاس، ص20؛ علي الجزنائي، جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس، المطبعة الملكية، الرباط، 1967، ص12.

(14) روض القرطاس، ص21؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص192.

لم يبق إدريس في وليلي فترة طويلة، بل خرج منها بعد نحو شهر واحد تقريبا متجها نحو تلمسان في المغرب الأوسط. وكان يسكن في هذه المدينة قبيلتان كبيرتان من زناتة، هما مغراوة، وبني يفرن، ويبدو أن السيادة كانت للقبيلة الأولى، التي يتزعمها محمد بن خزر المغراوي الخزري. وقد أعلن هذا الزعيم عن رغبته في الانضمام إلى بيعة إدريس، هو ومن معه من قبائل زناتة، فدخل إدريس الأول المدينة صلحا، وأمّن أهلها، وبنى مسجدها في سنة 174هـ/ 790م، ثم عين محمد بن خزر واليا عليها، ورجع إلى وليلي في شهر صفر 174هـ/ حزيران ـ تموز 790م[15].

نهاية إدريس الأول:

تتفق معظم الروايات على أن نهاية إدريس الأول كانت في سنة 175هـ/ 791 ـ 792م، أي أنه حكم نحو ثلاثة أعوام ونصف[16]. وتزعم هذه الروايات أنه اغتيل نتيجة لمؤامرة شارك في تدبيرها الخليفة العباسي هارون الرشيد، بالتعاون مع وزيره يحيى البرمكي. حيث خشي الرشيد من ازدياد نفوذ إدريس الأول، وامتداد سلطته إلى حدود تلمسان، التي كانت تعد باب إفريقية من جهة الغرب. ولما كان من الصعب عمليا أن ترسل الدولة العباسية جيشا إلى المغرب الأقصى لبعد المسافة التي تفصل بين المشرق والمغرب، قرر الرشيد أن يلجأ، حسب نصيحة الوزير يحيى إلى الحيلة للتخلص من إدريس، فعهد إلى رجل يدعى سليمان بن جرير الشماخ بمهمة السفر إلى المغرب، ومحاولة اغتيال إدريس الأول. وقد تمكن هذا الرجل من التقرب من إدريس، بعد أن ادعى أنه من المؤيدين لأسرته، وأنه اضطر إلى الفرار من

---

(15) روض القرطاس، ص21؛ جذوة الاقتباس، ص21؛ أبو عبد الله بن عبد الجليل التنسي، كتاب نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان (مخطوط) نشر جزء منه ملحقا لكتاب دولة الأدارسة ملوك تلمسان وفاس وقرطبة، ص277 ـ 294، الورقة 117.

(16) ينظر: البكري، ص122؛ الاستبصار في عجائب الأمصار، ص196؛ الحلة السيراء: 1/ 100؛ ابن عذاري: 1/ 210؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص194.

العباسيين لهذا السبب. وكان الشماخ بارعا في الحديث، وله مقدرة جيدة على الجدل والإقناع، لهذا فقد أنس إليه إدريس، وسكن إلى قوله، واتخذه نديما، حتى إنه كان لا يتناول الطعام إلا معه. وظل الشماخ يتربص بإدريس إلى أن تهيأت الفرصة بغياب راشد، فسمَّه، ثم هرب، واستطاع أن يفلت بعد ذلك من مطاردة راشد، الذي اكتشف جريمته بعد فوات الأوان[17].

ومن المرجح أن تكون قصة اغتيال إدريس الأول قد بولغ فيها بهذا الشكل، لأن الروايات تختلف في الطريقة التي دس فيها الشماخ السم لإدريس، كذلك تختلف في دور الرشيد ويحيى البرمكي، وتشير إلى وجود شريك آخر هو إبراهيم بن الأغلب[18]. ومن الجائز أن دور ابن الأغلب كان كبيرا في هذه المسألة، لا سيما أنه كان قريبا من الأحداث، لأنه كان عاملا على الزاب. ويستفاد من إحدى الروايات أنه دس بعض أصحابه لاغتيال إدريس بعدما شعر بخطره، وتقدمه شرقا نحو تلمسان. وبعد تنفيذ العملية، أُعلم ابن الأغلب والي إفريقية بالأمر، فنقل الأخير هذا الخبر إلى الخليفة في بغداد[19]. ويبدو أن إقحام اسم الخليفة هارون الرشيد في هذه العملية، ما هو إلا من قبيل التفخيم، وإضفاء هالة أسطورية على شخصيته، بحيث يتمكن وهو في قصره ببغداد أن يتخلص من معارضيه في أقصى المغرب بأهون الأسباب[20].

إدريس الثاني وتوطيد أركان الدولة:

لم يترك إدريس بن عبدالله وريثا، ولكنه ترك إحدى جواريه حاملا في

---

(17) ينظر: البكري، ص 120 ـ 121؛ الاستبصار، ص196؛ الكامل في التاريخ، 6/ 93؛ ابن عذاري، 1/ 210؛ روض القرطاس، ص21 ـ 22؛ جني زهرة الآس، ص14 ـ 15؛ جذوة الاقتباس، ص22 ـ 23؛ أعمال الأعلام، ص192 ـ 195.

(18) الحلة السيراء، 1/ 100؛ ابن خلدون، العبر: 4/ 25.

(19) الحلة السيراء، 1/ 100.

(20) يقارن: عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي: 2/ 436 ـ 437.

الشهر السابع. وقد ولدت هذه الجارية، التي تسمى كنزة، طفلا سمي إدريس، تيمنا باسم أبيه. وقد تولى راشد، مولى إدريس الأول، الوصاية عليه، ومهمة تأديبه وتعليمه القرآن، والحديث، والفقه، والنحو، والشعر، وسير الملوك وسياساتهم. كما دربه على ركوب الخيل والقتال، بحيث إنه لم يكد يبلغ الحادية عشرة حتى أتقن كل هذه الأمور التي يحتاجها أبناء الملوك.

وهناك خلاف في التاريخ الذي تمت فيه بيعة إدريس الثاني بالإمامة على قبائل المغرب الموالية للأدارسة. فيشير بعض المؤرخين إلى أنه بويع لأول مرة في جامع وليلي في مستهل ربيع الأول سنة 186هـ/ آذار 802م، وذلك بعد تخطيه سن الحادية عشرة[21]. بينما يذكر آخرون، أنه بويع سنة 187هـ/ 803م[22]، أو 188هـ/ 804م، وذلك بعد اغتيال راشد بعشرين يوما[23]. ويبدو أن إعلان راشد عن نيته في أخذ البيعة لإدريس الثاني قد سبب استياء إبراهيم بن الأغلب، أمير إفريقية آنذاك، الذي شعر بأن راشدا هو المسير الحقيقي لدولة الأدارسة، والمدبر لأمورها، فقرر أن يتخلص منه بواسطة بعض خدمه الذين أغراهم بالمال، فقتلوه.

ولكن اغتيال راشد لم يحقق لابن الأغلب نهاية دولة الأدارسة، فقد عُين وصي جديد على إدريس، هو أبو خالد يزيد بن إلياس العبدي، الذي أخذ البيعة الثانية، أو البيعة الكبرى لإدريس، بعد اغتيال راشد، كما أسلفنا. وهكذا تعاظمت قوة إدريس الثاني، وجاءته الوفود من مناطق مختلفة من شمال إفريقيا، فتمت له البيعة، واستقام ملكه بالمغرب، وتوطد وقوي سلطانه، وكثرت جيوشه، وأعوانه، وقد استمر في استقبال الوفود، وتوزيع الأموال، وإستمالة الرؤساء والأشياخ إلى نهاية عام 188هـ/ 804م.

(21) الجزنائي، جني زهرة الآس، ص16.

(22) البكري، ص123.

(23) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص27؛ ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ص25؛ ابن خلدون، العبر: 4/ 25.

كانت بيعة إدريس بن إدريس نقطة تحول هامة في تاريخ الدولة الإدريسية. فلم يعد الإمام ذلك اللاجئ الذي جاء هاربا متخفيا من المشرق، ينشد الأمان بين البربر في البيئة الجديدة، بل أصبح حاكما دنيويا، إضافة إلى مركزه الديني، يتمتع بممارسة سلطانه على عدد كبير من قبائل المغرب. ولم تمض سوى سنة واحدة على بيعة إدريس الثاني، حتى كان صيته قد انتشر في مناطق بعيدة خارج حدود مملكته. وابتدأت الوفود العربية ترد عليه من مناطق مختلفة من إفريقية، والأندلس، حتى قيل إن مجموع ما جاءه من هؤلاء سنة 189هـ/ 805م بلغ نحو خمسمئة فارس من مختلف القبائل العربية، التي تنتمي إلى قيس، والأزد، ومدلج، ويحصب، والصدف، وغيرهم. وقد سُر إدريس بوفادة هؤلاء العرب، الذين استفاد منهم في تكوين بطانة عربية خالصة. وهكذا ابتدأت عملية تعريب الدولة بالتدريج. فعهد إلى عمير بن مصعب الأزدي بالوزارة، كما عهد بالقضاء إلى عامر بن محمد بن سعيد القيسي، واتخذ أبا الحسن عبد الملك بن مالك المالكي الأنصاري للكتابة[24].

ولم يرق هذا النجاح لإبراهيم بن الأغلب، ممثل الدولة العباسية في إفريقية، الذي عاود اتصالاته بالسكان المحليين المحيطين بإدريس الثاني، ونجح في كسب بعضهم، مثل بهلول بن عبد الواحد المدغري، وإسحاق بن محمد الأوربي. ويبدو أن هؤلاء استاءا من سياسة إدريس الثاني، وتوجهاته نحو العرب والإكثار من الاعتماد عليهم، فمالؤوا ابن الأغلب، لكنهم لم يستطيعوا أن يغيروا شيئا في هذه السياسة الجديدة، واكتشفت اتصالاتهم المريبة بابن الأغلب، وعوقبوا على ذلك من قبل إدريس الثاني[25].

---

(24) روض القرطاس، ص27، 29.

(25) انظر: البكري، ص123، الحلة السيراء: 1/ 55، 111 ـ 112، الكامل في التاريخ: 6/ 156، ابن خلدون، العبر: 4/ 26.

وفاة إدريس الثاني وتقسيم الدولة في عهد محمد بن إدريس:

كان عصر إدريس الثاني يمثل دور العظمة بالنسبة إلى تاريخ الدولة الإدريسية، لما تم في عهده من إنجازات سياسية وحضارية، كان أهمها إنشاء مدينة فاس، التي سنتحدث عنها فيما بعد. وقد امتد حكم إدريس الثاني من السوس الأقصى إلى وادي شلف. وقبيل وفاته عهد إلى ابنه محمد بالحكم (حكم من سنة 213 ـ 221هـ/ 828 ـ 836م). ولكن هذا الحاكم لم يلبث أن قسم البلاد بين اخوته، حسب نصيحة جدته كنزة، أم إدريس الثاني.

وقد تم هذا التوزيع بعناية، مع مراعاة التقسيم الجغرافي للمغرب، وللخصائص الشخصية التي يتمتع بها كل واحد من إخوته. وهناك خلاف بين المؤرخين بشأن التفاصيل الخاصة بهذا التقسيم، ولكنهم يتفقون على السمات العامة، والنقاط الأساسية فيه، وهي كالآتي:

1. القاسم: على سبتة، وطنجة، وقلعة حجر النسر، وبلاد مصمودة، وتطوان، وما يلحق بهذه الأماكن من مناطق وقبائل.
2. عمر: على بلاد صنهاجة وغمارة.
3. اود: على بلاد هوارة، وبعض قبائل مكناسة، وتازا، وتسول، وتامليت، وما بينهما من بلاد وقبائل.
4. عبدالله: على أغمات، ونفيس، وجبال المصامدة، وبلاد لمطة، والسوس الأقصى.
5. يحيى: على ولاية أصيلا، والعرائش، وبلاد زواغة، والبصرة.
6. عيسى: على شالة، وتامسنا، وبرغواطة، وسلا، وأزمور، وما إليها من بلاد وقبائل.
7. أحمد: على مدينة تادلا، ومدينة مكناسة، وما بينهما إلى بلاد فازاز.
8. حمزة: على وليلي، وتلمسان، وأعمالهما.

أما باقي إخوته الاثني عشر، فكانوا صغارا ظلوا بكفالة جدتهم. وقد

احتفظ محمد بن إدريس بمدينة فاس وما حولها[26]. ومن الجدير بالذكر، أن هذا الحكم الجماعي لم يحقق مصلحة الدولة، بل كان فيه ضرر بالغ على وحدة الأسرة الحاكمة، حيث دب الخلاف بين الأخوة، فخرج بعضهم على سلطان الأخ الأكبر، مما أدى إلى قيام حروب أهلية أدت إلى إصابة الدولة بعوارض الضعف والاضمحلال، وهي لم تكد تبلغ العقد الرابع من عمرها.

خلفاء محمد بن إدريس:

جاء بعد محمد بن إدريس، الذي توفي سنة 221هـ/ 836م مجموعة من الأمراء الذين لم تستقر الدولة في عهدهم، وقد ابتدأ دور الضعف في الدولة بعد وفاة علي بن محمد بن إدريس في سنة 234هـ/ 848م. فعلى الرغم من صغر سن هذا الأخير، كانت الأحوال في عهده مرضية إلى حد ما، نظرا لاجتماع الكلمة عليه. لكن الأمور تغيرت فيما بعد، لا سيما في عهد يحيى ابن يحيى بن محمد، الذي أساء السيرة، وانشغل عن إدارة الدولة وسياستها بمسائل ماجنة لا تليق بالحكام. وكانت النتيجة أن انتهى حكمه بفضيحة كلفته عرشه وحياته في نهاية الأمر[27]. ومما زاد في سوء إدارة هذا الأمير، أنه قسم المملكة في بداية إمارته إلى ثلاثة أقسام إدارية، عهد بها إلى أعمامه وأخواله. وقد انتهز إخوته فرصة تقسيم البلاد وانشغاله عن الاهتمام بأمور الحكم، فملّكوا أنفسهم، واستأثروا بحكم المناطق التي كانت بحوزتهم. وانتهى الأمر فعلا باستقلالهم عن فاس، حيث قدمهم السكان المحليين على أنفسهم[28].

وقد استطاع علي بن عمر بن إدريس أن يستولي على مدينة فاس، بعد

(26) البكري، ص124؛ ابن عذاري، 1/ 211؛ روض القرطاس، ص51؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 202 ـ 205؛ ابن خلدون، العبر، 4/ 27 ـ 28.

(27) ينظر: البكري، ص124؛ روض القرطاس، ص77.

(28) ابن عذاري، 1/ 211.

وفاة يحيى بن يحيى، وأن يوحد بلاد المغرب من جديد. ولكن المصادر المتيسرة لا تشير إلى تورايخ هذه الأحداث، وتمر مرورا سريعا على الفترة الأخيرة من تاريخ الدولة الإدريسية. ويعد يحيى بن إدريس بن عمر 292 ـ 305هـ/ 905 ـ 917م من أشهر أمراء هذه الدولة في الفترة المتأخرة من حياتها، حيث جمع بين علو القدر، وبعد الصيت، وطيب الذكر، وقوة السلطان، كما جمع بين البطولة والشجاعة والإقدام. ويشير ابن أبي زرع[29]، إلى أن أحدا من الأدارسة لم يبلغ مبلغه. ولكن الأحوال السياسية في المغرب العربي لم تكن ملائمة في ذلك الوقت، لأن الفاطميين كانوا على وشك القضاء على الدول التي كانت قائمة آنذاك في المغرب لا سيما الأغالبة والأدارسة. وكان يحيى في طليعة القوى التي ناجزت الفاطميين فقد حاول أن يدفع جيش مصالة بن حبوس المكناسي، قائد عبيد الله (الملقب بالمهدي)، ولكن مصالة هزمه، واضطره على الاعتراف بإمامة عبيد الله في سنة 305هـ/ 971م[30].

وعلى الرغم من بقاء يحيى بن إدريس أميرا على فاس، عين مصالة ابن حبوس ابن عمه موسى بن أبي العافية المكناسي على بقية المغرب. وقد استطاع هذا الأخير أن يوقع بيحيى عند مصالة، حيث عزله وقبض عليه، ثم نفي إلى أصيلا. وأصبحت فاس بعد ذلك تحت إدارة قادة مصالة. وقد اجتاحت البلاد بعد ذلك موجة من الاضطرابات الداخلية، والانتفاضات التي قام بها بعض أعقاب الأدارسة، لا سيما حسن بن محمد الحجام سنة 310هـ/ 922م. ولكن هذه الانتفاضة انتهت بالفشل، وقام موسى بن أبي العافية بنفي الأدارسة من فاس إلى بلاد الريف، حيث أودعهم في حصن عظيم البناء، يدعى بحجر النسر[31].

---

(29) روض القرطاس، ص80.

(30) المصدر نفسه، ص80 ح وينظر: ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص210؛ عبد الحميد، المرجع السابق، 2/ 478؛ إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص149.

(31) ينظر: ابن الخطيب، المصدر السابق، ص211 ـ 213.

جدول بأسماء أمراء الادارسة[32]

1	إدريس الأول بن عبد الله (172 ـ 177هـ/ 788 ـ 793م).
2	إدريس الثاني بن إدريس الأول (177 ـ 213 هـ/ 793 ـ 828م).
3	محمد بن إدريس الثاني (213 ـ 221هـ/ 828 ـ 836م).
4	علي الأول بن محمد (221 ـ 234هـ/ 836 ـ 849م).
5	يحيى الأول بن محمد (234 ـ ؟ / 849 ـ ؟).
6	يحيى الثاني بن يحيى الأول (؟ ـ ؟/ ؟ ـ ؟).
7	علي الثاني بن عمر بن إدريس الثاني (؟ ـ ؟/ ؟ ـ ؟).
8	يحيى الثالث بن قاسم بن إدريس الثاني (؟ ـ ؟/ ؟ ـ ؟).
9	يحيى الرابع بن إدريس بن عمر (292 ـ 310هـ/ 904 ـ 922م).
10	الحسن الحجام بن محمد (310 ـ 313هـ/ 922 ـ 925م).
11	كنون بن محمد بن القاسم (؟ ـ ؟/ ؟ ـ ؟).
12	أبو العيش أحمد (377 ـ 343هـ/ 948 ـ 954م).
13	الحسن بن كنون (343 ـ 364هـ/ 954 ـ 974م).

أسباب سقوط دولة الأدارسة:

يمكن أن نعزو أسباب انهيار دولة الأدارسة إلى أسباب داخلية وأخرى خارجية .

الأسباب الداخلية:

1. أدى تقسيم المملكة بين أفراد الأسرة الإدريسية في عهد محمد بن إدريس إلى قيام نزاعات كثيرة بين أمراء الأدارسة أنفسهم، وأضعف الحكم المركزي للدولة، حيث فقد الأدارسة نفوذهم على بقية أنحاء المملكة، باستثناء فاس، وبعض المناطق الأخرى، كحجر النسر مثلا.

(32) ينظر: أحمد سعيد سليمان، تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، دار المعارف بمصر، 1969، 1/ 44.

2. عدم قدرة الأدارسة على السيطرة على أجزاء مهمة من المغرب، مثل سجلماسة، وتامسنا، بل إنهم لم يستطيعوا السيطرة أحيانا على فاس ذاتها، على الرغم من أنها كانت عاصمة البلاد.

3. عدم تمكنهم من القضاء على بعض المذاهب المتناقضة التي تخالف روح الدين الإسلامي، كالبرغواطيين مثلا، حيث إنهم لم يواصلوا القضاء عليهم، كما لم ينجحوا في إيقاف نشاط الخوارج الذين هددوا الدولة، وأشاعوا مذاهب كثيرة مناقضة للتعاليم الإسلامية.

4. افتقرت الدولة إلى حكومة وجيش قويين يساعدان على إقرار هيبة الدولة فتاريخ الأدارسة يدور في معظمه على أشخاص الأمراء أنفسهم، ولم يظهر في عهدهم قواد بارزون، أو وزراء ذوو حنكة وشخصية عالية. وقد استند أمراء الدولة إلى نفوذهم الروحي، وانتسابهم إلى بيت ابن عم الرسول عليه الصلاة والسلام. وقد ساعدهم هذا دون شك على اكتساب تأييد السكان المحليين لكنه لم يغنهم شيئا في إقرار النفوذ السياسي على البلاد، باستثناء عصر إدريس الأول، والثاني، ومحمد بن إدريس.

الأسباب الخارجية:

1. **تدخل الفاطميين:** استغل الفاطميون وجودهم في المغرب فاعتمدوا على الصنهاجيين، واستعانوا بهم للقضاء على دولة الأدارسة الضعيفة. وقد سبقت الإشارة إلى قدوم مصالة بن حبوس إلى المغرب، ومساندة موسى بن أبي العافية له في القضاء على نفوذ الأدارسة. وأعقب هذا قدوم جوهر الصقلي سنة 347هـ/ 958م، الذي افتتح سجلماسة، وفاس، ومعظم المغرب، لكنه لم يستطع التعرض للأدارسة الذين كانوا في قلعة حجر النسر بقيادة الحسن بن كنون. وقد اضطر الأخير أن يؤيد الفاطميين للتخلص من خطر خارجي آخر، وهو التدخل الأموي في الأندلس.

2. **تدخل الأمويين:** كانت سياسة الأمويين في الأندلس، هي منع تسرب النفوذ الفاطمي إلى المغرب، ولهذا حاولوا التدخل في المغرب لمجابهة الفاطميين. وقد أدى هذا التدخل إلى إرسال الجيوش للسيطرة على بعض المناطق الاستراتيجية، لا سيما سبتة، وطنجة، ومليلة. وقد تخللت هذه الأحداث معارك عنيفة بين الأمويين، وأنصار الفاطميين، وبقايا الأدارسة، مثل الحسن بن كنون، الذي استسلم نهائيا للحاجب المنصور سنة 375هـ/ 985م. وكانت مدة حكم الأدارسة ما بين إدريس الأول، إلى وفاة الحسن بن كنون 202 سنة وخمسة أشهر، ويشير ابن الخطيب إلى حراجة موقف الأدارسة ووقوعهم بين قوتين كبيرتين، هما الأمويين في الأندلس والفاطميين في شمال إفريقيا، وأن سلطانهم إذا قوي امتد إلى تلمسان، وإذا اضطرب وضعف اقتصر على معتصمهم في حجر النسر(33).

بناء مدينة فاس:

تعد مدينة فاس من أهم المدن التي أنشأها الأدارسة، وهي تقع عند ملتقى طرق تجارية رئيسة تؤدي إلى اتجاهات مختلفة، وتربطها مع المناطق التي تقع على البحر المتوسط، والمشرق العربي، وبلدان غرب القارة الإفريقية، وقلبها، وجنوب الصحراء. ويعود الفضل في استحداث هذه المدينة إلى إدريس الثاني، الذي عزم على الانتقال من وليلي بعد أن ضاقت بجيوشه، وبمن وفد عليه من العرب والبربر من إفريقية والأندلس. ويشير معظم الكتاب والمؤرخين القدامى إلى أن إدريس الثاني هو الذي أسس هذه المدينة على مرحلتين(34). المرحلة الأولى: أسس فيها فاس عدوة الأندلس

(33) ينظر: ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص224؛ ويقارن: إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، طبع ونشر دار السلمي، الدار البيضاء، (بدون تاريخ) ص120 ـ 123.

(34) ينظر: روض القرطاس، ص38؛ الجزنائي، جني زهرة الآس، ص24؛ المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، =

عام 192هـ/ 816م، وهي التي اختطت على الضفة اليمنى من وادي فاس. والمرحلة الثانية: أسس فيها عدوة القرويين عام 193هـ/ 817م، وهي التي تسمى بفاس الثانية، أو العالية، أو فاس عدوة القرويين، التي أُسست على الضفة اليسرى لنهر وادي فاس.

وقد سبق بناء المدينة في هذا الموقع مشروعان، حاول فيهما إدريس ابن إدريس، إنجاز البناء عند سفح جبل زالغ، وهو جبل يحاذي فاس من جهة الشمال، ولكن السيول حطمت المباني والمزارع. وكذلك صرف النظر عن محاولة ثانية لبناء المدينة عند وادي سبو، حيث خشي عليها أيضا من السيول، وقد استقر الرأي أخيرا على تكليف الوزير عمير الأزدي بالبحث عن مكان مناسب للمدينة.

توصل الوزير إلى مكان يقع في فحص سايس، وهو بسيط يمتد بين فاس ومكناس، ويفصل بين سلسلة جبال الأطلس المتوسط عن سلسلة الأطلس الساحلي، وأرضه من أخصب أراضي المغرب وأجودها. وقد وجد في هذا السهل فسحة معتدلة، كثيرة المياه، حيث تنبعث منها العيون التي تزيد عن ستين عنصرا تزود نهر مدينة فاس. وتحيط بهذه العيون مجموعة كبيرة من الأشجار المختلفة. وكانت تسكن في هذه المنطقة قبائل من زناتة يعرفون ببني زواغة، وبني يرغثن، فأعجب هذا المكان عمير، لطيب هوائه، وكثرة مياهه، وانبساط أرضه، وأمر بشرائه من قبائل زناتة، استعدادا لبناء المدينة فيه، فتنازلوا عنه لقاء ستة آلاف درهم[35].

بناء عدوة الأندلس:

انتقل إدريس الثاني إلى هذا الموضع، وأصدر الأمر ببناء المدينة في

= بيروت، 1968: 1/ 482 ح ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس، تحقيق: محمد شمام، المكتبة العتيقة، تونس، 1967، ص45.

(35) روض القرطاس، ص31؛ الجزنائي، ص18، 19؛ جذوة الاقتباس، 1/ 29 ـ 30.

شهر ربيع الأول سنة 192هـ/ كانون الثاني 828م. ووضع حجر الأساس للجزء الذي سيعرف بعدوة الأندلس، على الضفة الشرقية لنهر فاس، ودعا بأن يجعلها الله دار علم وفقه، يتلى بها كتاب الله، وتقام بها حدوده، كما دعا لأهلها أن يجعلهم الله متمسكين بالسنة والجماعة، طالما بقيت المدينة وقد بُدئ ببناء الأساس، ثم دور الإمام، والمسجد الجامع، الذي سمي بجامع الأشياخ، وذلك بجانب الآبار، على مقربة من المعسكر الذي نزل فيه إدريس. وقد أحيط هذا البناء بسور من خشب، وكان فيه ستة أبواب(36).

بناء عدوة القرويين:

وبعد عام تقريبا، أي في ربيع الآخر سنة 193هـ/ كانون الأول 828م. شرع إدريس الثاني في تشييد مدينة جديدة مواجهة للمدينة الأولى، على الضفة المقابلة لنهر فاس. وهذه المدينة، أو الحي الجديد، سوف يعرف بعدوة القرويين. وهو أشبه ما يكون بقرية رعوية، وكان له أيضا ستة أبواب. وقد أقيم في داخل الحي المسجد الجامع، الذي عرف فيما بعد بجامع الشرفاء. وكذلك دار الإمارة، التي عرفت بدار القيطون، أي دار الفسطاط، لأن الإمام ضرب فسطاطه فيها. كما بنيت في داخل الحي أيضا القيسارية، وأقيمت الأسواق، والحوانيت حول الجامع من جميع الجوانب. وقد أمر الناس بالبناء والغرس، وشجعوا على ذلك، حيث وهبهم إدريس الثاني جميع الأماكن التي أنجزوا بناءها وغرسها قبل إتمام بناء السور. فكثرت العمارة، واستخدم خشب الأشجار الموجود في المنطقة لأعمال البناء، مما سهل الأمر على الناس(37).

ولما فرغ إدريس الثاني من بناء أسوار المدينتين، وجامعي خطبتيهما أنزل القبائل الوافدة عليه فيهما. فأنزل القادمين من الأندلس بالعدوة الشرقية

---

(36) روض القرطاس، ص38؛ الجزنائي، ص24، 25؛ جذوة الاقتباس: 1/30.

(37) روض القرطاس، ص28 ـ 29؛ الجزنائي، ص25.

منها، فسميت لذلك بعدوة الأندلسيين. كما أنزل الوافدين عليه من القيروان بالعدوة الغربية، فسمين بعدوة القرويين. ولم يلبث هذا الإنشاء المزدوج الذي قام به إدريس الثاني، حتى امتلأ بالسكان بسرعة كبيرة، نظرا للتسهيلات الكثيرة التي أعطيت لمن يساهم بالبناء ويقيم فيه[38].

وقسم إدريس الثاني الأرض المحيطة بالمدينة على قبائل العرب والبربر. ويبدو أن معظم النازحين إلى العدوة الشرقية، أو عدوة الأندلس، كانوا من البربر. كذلك فقد أنزل الأمير جنوده وقادته، وما يملكه من خيل وإبل وبقر في هذه العدوة. بينما لم ينزل معه في عدوة القرويين سوى مواليه وحشمه، وسائر رعيته من التجار والصناع والسوقة. وهكذا ظلت مدينة فاس عبارة عن مدينتين مستقلتين مسوَّرتين، كلتاهما في سفح جبل، ويفصل بينهما نهر تمتد عليه سور. وقد احتفظت كل من العدوتين بكيانها على النمط الذي خططه إدريس الثاني، حتى عهد أمراء زناتة في أواخر القرن الرابع للهجرة/ العاشر الميلادي، فكان لكل مدينة مساجدها وأسواقها وولاتها، بل وكانت لكل منهما دار خاصة لضرب النقود. وقد أصبحت فاس عاصمة الأدارسة، حيث أقام بها إدريس الثاني حتى سنة 197هـ/ 812م[39].

وقد أشار المؤرخون إلى روايات عديدة، معظمها أسطورية بشأن تسمية المدينة، منها أن إدريس الثاني شارك في حفر أسس المدينة بفاس مصنوعة من الذهب والفضة، فسميت باسمها. أو أنها بنيت على موضع مدينة قديمة تسمى «ساف»، فقلب إدريس الثاني اسمها إلى «فاس»[40]. إن اختلاف الروايات في أسباب التسمية لا يؤثر على الحقيقة التاريخية المتمثلة بظهور

(38) روض القرطاس، ص47؛ الجزنائي، ص26.

(39) روض القرطاس، ص46 ـ 47؛ وينظر: عبد الحميد، المرجع السابق: 1/ 450؛ العربي، دولة الادارسة، ص86.

(40) روض القرطاس، ص37؛ الجزنائي، ص23 ـ 24.

المدينة بقسميها في أوائل عهد الدولة الإدريسية، وأنها استمرت في تأدية رسالتها الحضارية إلى الوقت الحاضر.

إن مدينة فاس لم تظهر للوجود كمدينة موحدة إلا بعد سيطرة المرابطين عليها سنة 462هـ/ 1069م. وإن بقاءها على شكل مدينتين منفصلتين تحمل كل واحدة منهما اسمها الخاص، هو أمر غريب يسترعي الملاحظة. وقد دعا هذا الأمر بعض المستشرقين، لا سيما ليفي بروفنسال، إلى الشك فيما إذا كان بناء عدوتي فاس قد تم في عهد إدريس الثاني. فهو يرى أن المؤسس الحقيقي لمدينة فاس الأولى، أي عدوة الأندلس، هو إدريس الأول، الذي أسس مدينة أو معسكرا، عرف فيما بعد بعدوة الأندلس، وذلك سنة 172هـ/ 788م، أو بعد هذا التاريخ بسنوات قليلة. وقد استند في ذلك إلى بعض الروايات الجانبية، وإلى وجود عملة مضروبة في فاس ترجع إلى سنتي 185هـ، أي قبل سنة 192هـ، وهو التاريخ الذي أنشئت فيه مدينة فاس في عهد إدريس الثاني[41].

وعلى الرغم من وجاهة رأي بروفنسال، لكنه لا يمكن أن يكون نهائيا، لأنه يبدو من الصعب أن يتمكن إدريس الأول، خلال الفترة القصيرة التي أمضاها في الحكم، أن يفكر ببناء مدينة. كذلك لا يتوفر أي سبب سياسي أو عسكري يمكن أن يحمله على تخطيط مدينة جديدة، لأن وليلي كانت كافية لإيواء جيشه الصغير، وإدارته المتواضعة. ومن ناحية أخرى لا يمكن لإدريس الأول أن يترك قبيلة أوربة، ويذهب إلى مكان آخر محاط بقبائل لا يمكن الاعتماد على ولائها، لا سيما وأنه كان يعيش فترة التكوين الحرجة للدولة[42].

(41) ليفي بروفنسال، الإسلام في المغرب والأندلس، تعريب: محمود عبد العزيز سالم، وصلاح الدين حلمي، نهضة مصر، القاهرة، 1956، ص17.

(42) للاطلاع على المناقشات، والاستزادة من الآراء التي تؤيد نظرية بروفنسال أو تعارضها، ينظر: المرجع السابق، ص12 ـ 15؛ شارل أندريه جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية،=

أهمية بناء مدينة فاس:

أشار إدريس الثاني ضمن خطبة له بعد الانتهاء من بناء المدينة، إلى أنه أنشأها « ليعبد فيها الله»[43]. ولكن بالإضافة إلى هذا الدافع الروحي، هناك عوامل أخرى سياسية وعسكرية واقتصادية واجتماعية وحضارية، كانت وراء فكرة التأسيس. فالاعتبارات السياسية المتمثلة بتطور المرافق الإدارية والعمرانية في العاصمة الأولى، وليلي، أدت إلى ازدياد الحاجة إلى الانتقال إلى مكان آخر أكثر استيعابا، لا سيما وأن هناك قبائل بربرية أخرى انضمت تحت لواء الدولة الجديدة، بالإضافة إلى أوربة، مثل زناتة، ومكناسة، ومصمودة، فكان من الضروري أن يكون هناك مركز آخر للدولة يمكن أن يستوعب هذه الفئات جميعا. كذلك فقد ازداد إقبال وفود العرب على إدريس الثاني، لا سيما من القيروان والأندلس، فأراد أن ينظم استقرارهم في مكان آمن.

ويبدو أن وزيره العربي عمير بن مصعب الأزدي، هو الذي أوحى إليه بفكرة الانتقال من وليلي إلى مدينة أخرى، لأن هذه المدينة لا يمكن أن تستوعب القادمين الجدد، كذلك فإن مصادرها المائية لا تكفي لإرواء عدد كبير من الناس. وقد لاقت هذه الفكرة استحسانا لدى إدريس الثاني، الذي أراد أن يكون له معسكره الخاص به، ليجمع فيه جنوده ومؤيديه. ويدل على ذلك أنه نقل جيشه من البربر إلى عدوة الأندلس، التي ابتناها أولا، وحصنها، وأدار عليها الأسوار.

إن أهمية موقع مدينة فاس يشير إلى عبقرية المكان، حيث إن موقعها

= تعريب: محمد مزالي، والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1985، 2/ 56 ـ 57؛ عبد الحميد، المرجع السابق: 1/ 451؛ السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1982، ص410 ـ 451؛ دولة الأدارسة، ص86 ـ 102.

(43) روض القرطاس، ص49.

الطبيعي لم يُتح سوى لعدد قليل من المدن العربية الإسلامية التي كتب لها البقاء، مثل القاهرة وبغداد ودمشق. لأن فاس تقع في أقصى المضيق الجبلي الذي تحرس تازا مدخله الشرقي، وتطل على السهول المترامية الأطراف، والتي تمتد على ساحل المحيط الأطلسي. وإن الميزة الأساسية التي تميز موقع فاس عن جميع مواقع المدن العربية الإسلامية الأخرى، تتصل بتوفر المياه الطبيعية فيها بغزارة. وبدلا من نظام القنوات المعقد الذي كانت تجلب بواسطته المياه إلى المدن الرومانية، والمدن الحديثة أيضا، والذي هو عرضة للعطب في كل حين، ويحتاج إلى مجهود كبير للصيانة والحراسة، كانت فاس تجد حاجتها من الماء مضمونة كل يوم لجميع السكان. كذلك فإن محاولة أي عناصر معادية، أو جيش محاصر لتخريب نظام ماء وادي فاس أمر غير ممكن، بسبب التكوين الطبيعي لمجرى النهر، الذي تمده روافد تنبع من جوف الأرض. وهذا النظام هو الذي سمح للمدينة بالصمود عبر العصور أمام من حاول أن يستولي عليها بالقوة[44].

ولو تتبعنا ما يقوله الجغرافيون والرحالة العرب الذين وصفوا المدينة، وأشادوا بموقعها وخصبها ورخص أسعار المواد الغذائية فيها، لتبين لنا فعلا أهمية موقع المدينة، والدوافع التي كانت وراء اختياره[45]. فلقد هيأت الغابات المجاورة للمدينة موادّ أولية للوقود، وكذلك كانت مأوى لكثير من الحيوانات البرية التي وفرت مجالا خصبا لرياضة الصيد والقنص. ويعد قرب المدينة من نهر سبو، حيث لا يبعد عنها سوى ثلاثة كيلومترات، من عوامل الازدهار الاقتصادي للمدينة، لأنه صالح للملاحة، حيث كانت تسير فيه

(44) ينظر: العربي، دولة الأدارسة، ص109.

(45) يراجع، اليعقوبي، كتاب البلدان، نشره دي غوية مع كتاب الأعلاق النفيسة لابن رسته، ليدن، 1892، ص358؛ ابن حوقل، صورة الأرض، بيروت، 1979، ص89؛ 100، البكري، ص116؛ الشريف الإدريسي، وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية، مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، اعتنى بتصحيحه، هنري بيرس، الجزائر، 1957، ص50 ـ 51؛ معجم البلدان: 4/ 230.

القوارب والسفن الصغيرة حتى المحيط الأطلسي[46].

وأخيرا لا بد من الإشارة إلى أن المدينة تحتل مركزا تجاريا مرموقا بين الجنوب والشمال، والشرق والغرب، لأنها تقع عند ملتقى طرق القوافل في المغرب كله، وهذه الطرق هي كالآتي:

1 ـ الطريق القادمة من جنوبي تونس في الجريد عبر تلمسان والمتجهة إلى المحيط الأطلسي.

2 ـ الطريق التي تخترق جبال الريف وتتجه إلى سواحل البحر المتوسط والأندلس.

3 ـ الطريق التي تمر بمضائق سلسلة جبال الأطلس المتوسط، وتتجه إلى سجلماسة، ثم إلى الصحراء الكبرى[47].

مساهمة الأدارسة في تنمية الحضارة العربية

أ ـ انتشار الإسلام واللغة العربية:

لقد كان دخول الأدارسة إلى المغرب انتصارا للحضارة العربية، وللدين الإسلامي الحنيف، فعلى الرغم من فتوح موسى بن نصير في شمال إفريقيا في أواخر القرن الأول الهجري، فإن نفوذ العرب الفعلي لم يتعد مناطق السواحل، وبعض المناطق الداخلية القليلة. وظلت أماكن كثيرة في الصحراء بعيدة عن التأثر بالمعطيات الحضارية والروحية للدين الجديد، لا سيما مناطق استقرار قبائل صنهاجة في جنوب المغرب، حيث إنهم لم يعتنقوا الإسلام إلا منذ القرن الثالث للهجرة/ التاسع الميلادي[48]، وهو القرن الذي نشط فيه الأدارسة للعمل في مجال إخضاع القبائل، ونشر الإسلام بين صفوفها. ولقد كان من أوائل اهتمامات إدريس الأول، محاولة القضاء على

(46) الجزنائي، جني زهرة الآس، ص37.

(47) يقارن، العربي، دولة الأدارسة، ص113.

(48) ينظر: ابن خلدون، العبر، 6/ 373.

الحركات الانفصالية والانحرافات العقائدية لدى بعض القبائل البربرية المتواجدة في المغرب، لا سيما قبائل برغواطة في إقليم تامسنا. كذلك نشر الإسلام بين القبائل الأخرى التي كانت تعيش في منطقة مدينة سلا، وإقليم تادلا في جنوب المغرب[49]. وقد أكمل إدريس الثاني عمل والده في جمع شتات القبائل البربرية، وتأسيس أول دولة عربية في المغرب الأقصى. وعلى الرغم من بقاء مناطق كثيرة في المغرب الأقصى خارج نطاق الدولة الإدريسية. لكن إدريس الثاني، تمكن من جمع عدد كبير من القبائل البربرية تحت سلطة مركزية عربية إسلامية واحدة، بعد أن كانت هذه القبائل مستقلة الواحدة عن الأخرى، وهذا إنجاز كبير في مجال توحيد هذه القبائل، وتهيئتها لعملية التعريب.

إن نقطة التحول الرئيسة في عمر الدولة الإدريسية تبتدئ بإمامة إدريس الثاني لأن والده إدريس بن عبدالله كان أشبه ما يكون بلاجئ لدى قبائل البربر بالمغرب الأقصى. وعلى الرغم أنه كان يتمتع بمركز ممتاز لدى هذه القبائل، نظرا لأصله الذي يعود إلى بيت النبوة، وإلى ما كان يتمتع به من صفات، وخصال جيدة. لكنه مع ذلك كان وحيدا غريبا، ولم يستقبل من الوافدين العرب إلا القليل، أمثال أخيه سليمان وابن عمه داود بن القاسم، الذين لم يستطيعوا أن يحولوا من طبيعة إحساسه بالغربة، والدليل على ذلك أن بعضهم فضل العودة إلى المشرق على البقاء في المغرب، مثل ابن عمه داود بن القاسم[50].

لقد كان لهذه العناصر العربية الوافدة قيمة مزدوجة بالنسبة إلى إدريس الثاني، لأنه وجد فيها على الصعيد الشخصي الحلقة المفقودة بين أصله الذي يربطه به الدم، ووضعه الواقعي الذي تربطه به التقاليد واللغة والمحيط. أما

(49) روض القرطاس، ص20؛ ابن خلدون، العبر، 7/ 24؛ وينظر إسماعيل، تاريخ شالة الإسلامية، ص140 ـ 144.

(50) ينظر: البكري، ص123؛ ابن عذاري: 1/ 210؛ ويقارن، عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، 2/ 441.

على الصعيد السياسي، فقد كان هؤلاء العرب النواة التي يريدها لبناء إدارة عربية منظمة، وذلك للخروج عن وصاية قبيلة أوربة البربرية، ولضمان التوازن المطلوب والاستقلال لدولته الجديدة عن نفوذ القبائل المحلية. وقد نجح إدريس الثاني في هذا المجال نجاحا كبيرا. وحول الدولة إلى كيان عربي قوي مؤثر في المنطقة. وكان لهؤلاء العرب إسهامات في مجال الإدارة. حيث اهتم كثير منهم بالعمارة في الأقاليم التي عينوا فيها، إلى جانب العمل على نشر الإسلام، واللغة العربية.[51]

وكانت لغة الإدارة في دولة الأدارسة هي العربية، بدليل نقوش السكة، وخطبة إدريس الثاني التي ألقاها بعد انتهاء مدينة فاس[52]. ومن الملاحظ أن اللغة العربية انتشرت انتشارا واسعا في المناطق التي استقر فيها الأدارسة. وما يزال هذا الأثر العميق يلاحظ في مناطق الريف، والسوس، وهما من مناطق البربر الأصيلة[53].

أما فيما يخص النقود العربية، فقد ضربت دراهم باسم إدريس الثاني، ترجع إلى تواريخ متعددة، مثل السنوات 181، 183، 185، 189هـ[54]. بل إن النقود العربية بدأ ضربها منذ عهد إدريس الأول سنة 174هـ/ 790م ونقش في أحد وجهيها «لا اله إلا الله لا شريك له باسم الله. ضرب هذا الدرهم بتدغة سنة 174هـ». وفي الوجه الثاني صورة هلال ثم «محمد رسول الله» وتحته: مما أمر به «إدريس بن عبدالله، جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا»[55]. وتدل هذه النقود على مدى تغلغل اللغة العربية ودخولها بشكل منظم في إدارة البلاد.

---

(51) الجزنائي، جني زهرة الآس، ص18. انظر: البكري، ص123؛ الحلة السيراء، 1/55، 111 ـ 112 ح الكامل في التاريخ، 6/156.

(52) روض القرطاس، ص49.

(53) يراجع: حركات، المغرب عبر التاريخ، 1/127.

(54) ينظر: بروفنسال، الإسلام في المغرب والأندلس، ص15 ـ 16.

(55) حركات، المرجع السابق، ص126 ح العربي، دولة الادارسة، ص103.

ب ـ إنشاء المدن:

إن أعظم إنجاز حضاري حققه الأدارسة في المغرب الأقصى، هو قيامهم بإنشاء مدن عديدة، أصبحت مراكز مهمة لنشر العلم والثقافة العربية الإسلامية. وتأتي مدينة فاس بطبيعة الحال في مقدمة هذه المدن. وقد أشرنا إلى بنائها، والظروف التي أدت إلى وجودها. إن أهمية فاس لا تقتصر على بناء المدينة بكل ما تضمه من مساجد وأسواق وقصور وغيرها، بل في الرسالة الحضارية التي حملتها، والتي تمثل دور الأدارسة في بلاد المغرب الأقصى. ويجب الانتباه في هذا المجال إلى أن وجه التجديد والابتكار في عمل إدريس الثاني، هو أنه أنشأ عاصمة عربية في بيئة بربرية، تماما كما فعل عقبة بن نافع الفهري، قبله حينما بنى القيروان في إفريقية بالمغرب الأدنى. فأصبحت فاس كالقيروان بالنسبة للمغرب الأقصى. ولقد تعمد إدريس الثاني أن يبرز الصبغة العربية للمدينة، حيث أنزل معه العرب الوافدين عليه في عدوة القرويين، كما مر بنا سابقا، ولكن العدوة الثانية، أي عدوة الأندلس، لم تلبث هي الأخرى أن تعربت بعد أن وصلها عدد كبير من أهل الأندلس، الذين جاؤوا في أعقاب هيجة الربض في عهد الحكم الأول بن هشام في الأندلس سنة 202هـ/ 817م[56]. وكان هؤلاء يتألفون من نحو ثمانمئة أسرة. نزلوا في عدوة الأندلس، وشرعوا في البناء بها على الطريقة الأندلسية، فعمرت بهم المدينة، وسميت باسمهم، كما أسلفنا[57]. ولا يخفى ما كان لهؤلاء من أثر في نقل الحضارة العربية الإسلامية من الأندلس إلى المغرب الأقصى، والمساعدة في عملية الامتزاج بالسكان المحليين، وتمكين اللغة العربية والحضارة في المنطقة.

---

(56) ابن عذاري، 1/ 236، 2/ 77.

(57) ينظر: روض القرطاس، ص47.

ومن المدن الأخرى التي أنشأت في عهد الأدارسة:

مدينة البصرة: وقد بنيت في أواسط القرن الثالث للهجرة/ التاسع الميلادي، وأول من تولاها من الأدارسة هو إبراهيم بن القاسم بن إدريس[58]، وهي تقع بين أصيلا والعرائش بعيدا عن البحر. وكانت تعرف أول الأمر ببصرة الكتان نظرا لانتشار تجارته فيها، وكان لها عشرة أبواب، أما جامعها فكان يتألف من سبع بلاطات، وتحيط بها عيون عذبة وآبار كثيرة. وكانت هذه المدينة تشتهر بكثرة مراعيها، وجمال نسائها، حيث يشير البكري إلى ذلك بقوله: «ليس بأرض المغرب أجمل منهن»[59].

مدينة جراوة: تقع في الشمال الشرقي من المغرب، وقد بناها أبو العيش عيسى بن إدريس بن محمد بن سليمان سنة 257 أو 259هـ/ 870 أو 872م. وكان لها أربعة أبواب، وجامع يحتوي على خمس بلاطات. وحولها سهول خصبة ومراعي وفيرة، يسكن فيها قبائل عديدة، منهم مدغرة على البحر، وبنو يزناتن، وزواغة، وزناتة، وبنو يفرن، وغيرهم[60].

قلعة حجر النسر: بنيت هذه القلعة في الجنوب الشرقي من البصرة سنة 317هـ/ 929م على يد إبراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس. وفي هذه القلعة حوصر الأدارسة في منطقة الريف، في عهد موسى بن أبي العافية. وقد دافعوا عنها دفاعا مستميتا. ومن المرجح أن هذه القلعة كانت تقع قريبا من مضارب قبيلة سوماتة حيث لا تزال أنقاضها موجودة هناك[61].

أصيلا: وتقع إلى الغرب من طنجة. وكانت هذه المدينة موجودة قبل الإسلام. حيث عرفها القرطاجيون، ولكنها غمرت بالبحر، ثم جددها البربر

---

(58) ابن عذاري: 1/ 235.

(59) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص110؛ وينظر أيضا: معجم البلدان، 1/ 440.

(60) البكري، المغرب، ص142 ح ابن عذاري، 1/ 196.

(61) انظر: حركات، المرجع السابق: 1/ 134 ح ويقارن: البكري، المغرب، ص114، 126، 129؛ ابن عذاري: 1/ 214.

والأدارسة، حيث اتخذ موضعها رباطا يُقصد من جهات متعددة. وكانت تقوم فيه سوق جامعة ثلاث مرات في السنة في رمضان، وذي الحجة، والمحرم. وكان الناس يقصدونها في هذه الأوقات للتجارة، ثم بنيت المدينة في هذا الموضع بالتدريج، فقدمها القاسم بن إدريس، وكان أول من ملكها من الأدارسة، فبنى سورها وقصرها، ثم تولاها أبناؤه من بعده. وقد سكن حول هذه المدينة قبائل عديدة، لا سيما لواتة، وهوارة(62).

ج ـ تشييد الجوامع:

اتَّبع الأدارسة منذ بداية دولتهم سياسة بناء الجوامع، لما لها من أثر كبير على نشر الإسلام واللغة العربية بين السكان المحليين في المغرب. وتشير المصادر إلى قيام إدريس الأول ببناء جامع في مدينة تلمسان حال وقوعها تحت سيطرته سنة 174هـ/ 790م. وقد نقش على منبر هذا المسجد الجامع العبارات الآتية: «بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أمر به الإمام إدريس بن عبدالله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، وذلك في شهر صفر سنة أربع وسبعين ومئة»(63). وقد أشرنا سابقا إلى بناء مسجدين جامعين في عدوتي فاس، الأول جامع الأشياخ في عدوة الأندلسيين، والثاني جامع الشرفاء في عدوة القرويين. ولكن مع اتساع المدينة بقسميها، ونشأة الأحياء الجديدة حولها، ازداد اتساع هذين الجامعين القديمين، وظهرت الحاجة إلى بناء مساجد محلية جديدة لتلبية حاجة المصلين الذين كانت أعدادهم تزداد مع ازدياد حجم المدينة، وكثرة الوافدين عليها من كل أنحاء المغرب ومن الأندلس.

بناء جامع القرويين وأثره الحضاري: يعود الفضل في بناء جامع

(62) البكري، ص112 ـ 113، ابن عذاري، 1/ 232 ـ 235.

(63) الجزنائي، جني زهرة الآس، ص27 ح ويقارن: عبد الهادي التازي، جامع القرويين، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1972: 1/ 44.

القرويين إلى إحدى الأسر الفهرية التي جاءت من القيروان إلى فاس، ونزلت في عدوة القرويين، كما يعود إليها الفضل أيضا في بناء جامع آخر في العدوة الثانية من مدينة فاس، وذلك هو جامع الأندلسيين[64].

وقع الاختيار على مكان جامع القرويين في إحدى الحقول القريبة من المدينة، وقد ابتدأ الحفر في أسس المسجد في اليوم الأول من رمضان سنة 245هـ/ 30 تشرين الثاني 859م. أما مواد البناء المستعملة فقد استخرجت من المكان نفسه، وحتى الماء استنبط من بئر كانت قائمة هناك. وكان الأمير يحيى بن محمد بن إدريس قد سُر بهذه المبادرة الكريمة من هذه الأسرة لبناء المسجدين بالقرب من مقره في فاس، فكان يتفقد البناء بنفسه، هو والعلماء والفقهاء[65].

كان هذا الجامع صغيرا، وهو يتألف من تصميم مربع الشكل تقريبا، على غرار بقية الجوامع الإسلامية، تبلغ مساحته نحو 1600 متر مربع. ويتألف من أربع بلاطات، أي أروقة أفقية، تمتد من الشرق إلى الغرب موازية لجدار القبلة، وله صحن وأربعة أبواب. وقد بقي هذا الجامع حتى انقضى حكم الأدارسة في فاس. وكان مقتصرا على إقامة الصلوات الخمس فقط. والظاهر أن الناس لم يكونوا قبل هذا الوقت من الكثرة بحيث يضطرون إلى اتخاذ القرويين مسجدا جامعا. لكن عندما كثرت العمارات واتصل البناء في أرباض المدينة، رأى الناس ضرورة ذلك. واستجاب والي المدينة سنة 307هـ/ 919م لرغبة العلماء والفقهاء في نقل الخطبة من مسجد الشرفاء إلى القرويين. وقد وضع له منبرا من خشب الصنوبر يتألف من ست درجات[66].

وتمت أول زيادة على هذا المسجد الجامع بعد وقوع فاس بيد زناتة، تحت رعاية الأمويين في الأندلس. فقد كتب العامل أحمد بن أبي بكر الزناتي

(64) روض القرطاس، ص54 ـ 55؛ جني زهرة الآس، ص45.
(65) المصدرين السابقين، ونفس الصفحات؛ ويقارن: التازي، جامع القرويين، 1/ 46 ـ 47.
(66) انظر: التازي، المرجع السابق: 1/ 47، 49.

إلى الناصر لدين الله، يستأذن في بناء الجامع وإصلاحه، والزيادة فيه لحاجة الناس لذلك، فأذن له، وبعث إليه بمال كثير من أخماس الغنائم، وأمره أن يصرفه فيه، فأصلحه وزاد فيه، فبلغت مساحته نحو أربعة آلاف متر مربع[67]. كما بنيت له صومعة جديدة من الحجر المنحوت. ثم توالت عليه الزيادات في العهود اللاحقة، فبلغت مساحته في عهد المرابطين نحو 5846 متر مربع. وصنع له منبر رائع عوضا عن المنبر الأموي القديم. ومن الآثار التي تركها الموحدون فيه، الثريا العظيمة التي أبدع الصناع في زخرفتها. أما في عهد بني مرين، فقد صنعت له ساعة مائية عظيمة، وفي عهد السعديين بنيت القبة الغريبة ذات السواري الثمان. وفي أيام العلويين وقع ترميم شامل لمباني القرويين، وبنيت مكاتب الإدارة وقاعة كبيرة للمطالعة، ثم نقلت الأقسام الدراسية من المسجد نفسه إلى بنايات خاصة[68].

كانت المواد الدراسية في البداية ترتبط بالدين واللغة العربية من فقه وتفسير أدب. وعرفت هذه الجامعة نشاطا عظيما في مختلف فروع المعرفة في العهود اللاحقة، لا سيما في أيام الموحدين والمرينيين والأشراف. وعاشت القرويين منذ البداية على نظام الوقف الذي اتسعت موارده بعد المرابطين خاصة، أي بعد أن سادت الروح الدينية والعلمية في أوساط أهل فاس. لقد كان العلماء الذين يدرّسون في هذه الجامعة يتطوعون لإلقاء دروسهم فيها، وكانوا يشغلون مناصب خارج الجامعة كالكتابة والقضاء وغيرها. وفي عهد المرينيين بنيت مدارس كثيرة لإيواء الطلاب، وجهزت مكتبات لتعينهم على تحصيل العلم، كما أسست مكتبة عظيمة في القرويين ذاتها. وحصلت تطورات عديدة أخرى على هذه الجامعة في أيام العلويين، واستمر الاهتمام بها إلى العصر الحديث، فقسمت مراحل الدراسة فيها، ثم عين لها سنة 1942م أول مدير درّس على الطريقة العصرية، إلى جانب

(67) جني زهرة الآس، ص46، 47 ح وينظر: حركات، المرجع السابق، 1/135 ـ 136.

(68) المرجع نفسه: 1/37؛ التازي، جامع القرويين: 801، 75، 2/232.

الطريقة التقليدية، وهو الأستاذ محمد الفاسي، الذي وضع نظاما دقيقا للامتحانات والمواد والكتب المقررة[69].

أما جامع الأندلس، فقد ابتدأ البناء فيه أيضا سنة 245هـ/ 859م. وقد ساعد فيه جملة من الأندلسيين الساكنين في عدوة الأندلس، فسمي ذلك الجامع بهم. وكان البناء يتألف من ست بلاطات، وله صحن صغير. وقد زاد فيه أحد عمال الناصر لدين الله فيما بعد، فبني له صومعة سنة 345هـ/ 956م. وقد نقلت الخطبة إليه من جامع الأشياخ على يد حامد بن حمدان الهمداني، عامل أبي عبدالله الشيعي، حين تغلب على فاس سنة 321هـ/ 933م[70]. وعلى الرغم من أهمية هذا الجامع الذي هو توأم جامع القرويين، لكنه لم يصل في شهرته، لما وصل إليه جامع القرويين، علما أنه كان أيضا منبرا للعلم والمعرفة وحلقات الدراسة[71].

د ـ الحياة الفكرية:

لا يمكننا أن نبتعد عن جامع القرويين حينما نتحدث عن الحياة الفكرية في عهد الأدارسة. فقد كان هذا الجامع محور الحياة الفكرية في مدينة فاس، بل في المغرب الأقصى كله. فهو يعد القلب والعصب والروح والبصر لمدينة فاس. لقد كان كل تقدم اقتصادي، وازدهار صناعي، ورقي اجتماعي مرتبطا بالعلم والثقافة، ولم يكن من مركز يمثل ذلك العلم، وتلك الثقافة في فاس إلا جامع القرويين. وإذا أردنا أن نسأل عن الوقت الذي ابتدأت فيه دراسة العلم بالقرويين، يكون جوابنا، أنه الوقت الذي بدأت الصلاة فيه، لأنه لا فرق بين الصلاة والعلم والدراسة في نظر الإسلام، ويعرف ذلك كل من له صلة بدراسة تاريخ المساجد. لأن العادة جرت منذ أيام الإسلام الأولى أن

(69) حركات، المرجع السابق، 1/ 136 ـ 137.

(70) الجزنائي، جني زهرة الآس، ص92؛ ابن القاضي، جذوة الاقتباس، 1/ 78.

(71) انظر: جني زهرة الآس، ص94 ـ 95؛ التازي، جامع القرويين: 1/ 112.

يتخذ المسجد الذي تقام فيه الصلاة مركزا للتعليم والتثقيف، كما يتخذ مجلسا لمناقشة الشؤون السياسية، ومحاكم لتثبيت الحقوق. ولهذا فإن العلماء الذين وضعوا قبلة القرويين كانوا أول من درَّس فيه، وبثوا العلم والمعرفة لا سيما وأن تأسيس هذا المسجد كان في أيام الأمير يحيى بن محمد، الذي انتشر العمران في فاس على عهده، ورحل إليه الناس من المشرق والقيروان والأندلس. ومن المرجح أن يكون من أوائل الذين عقدوا مجالس علمية حافلة في القيروان، الحافظ الثقة الشاعر أبو عبد الرحمن بكر بن حماد التاهرتي (ت 296هـ/ 908م) الذي ورد على فاس باستدعاء من الأمير أحمد ابن القاسم بن إدريس الذي كان على سابق معرفة به، وتجمعهما رابطة العلم والأدب، وقد عرف بمجالسه سواء في بلده، أو بالقيروان، أو بغداد[72].

وكان من جملة الأمراء الأدارسة الذين شجعوا العلم والعلماء والشعراء، الأمير يحيى بن إدريس بن عمر (ت 307هـ/ 919م) الذي كان فقيها عالما حافظا للحديث، يقصده العلماء والشعراء من كل جهات العالم الإسلامي. وقد كان له مجموعة من الوراقين لا شغل لهم إلا نسخ الكتب. ومن المؤكد أن هؤلاء كانوا يمارسون دروسهم ومهنتهم هذه في جامع القرويين، الذي لا يبعد إلا مسافة قريبة عن مسكن الأمير يحيى[73]. وعلى الرغم من عدم توفر أدلة كثيرة على نشاط الأمراء الأدارسة الآخرين في هذا المجال، وذلك لقلة الموارد المالية المتاحة لديهم، حيث إنهم لم يكونوا ذوي ثروة تساعدهم على تشجيع الحركة العلمية والأدبية إلى الحد الذي يكثر معه الإنتاج، وتنتشر حركة التأليف. لكن نظرة خاطفة على تاريخ الأمويين

(72) ينظر: البكري، ص130 ح البيان المغرب، 1/ 237؛ التازي، المرجع السابق: 1/ 111 - رابح بونار، المغرب العربي تاريخه وثقافته، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر112؛ ، 1981، ص120 فما بعدها.

(73) ينظر: البكري، ص132؛ جذوة الاقتباس، 2/ 535؛ ويقارن، التازي، المرجع السابق: 1/ 112.

بالأندلس، والعبيديين في القيروان، تدلنا على مدى الحركة الفكرية الواسعة في كل من إفريقية والأندلس في نفس الوقت الذي كان فيه الأدارسة في المغرب. فهل كان المغرب في عهدهم خاليا من الحركة الفكرية؟ الجواب لا يمكن أن يكون بالإيجاب نظرا لما رأيناه من دور جامع القيروان، واهتمام بعض أمراء الأدارسة بالحركة الفكرية.

ويعود السبب إلى قلة ما وصلنا عن أخبار الأدارسة، لا سيما الفكرية منها، إلى أن معظم من كتب عنهم من المؤرخين كان متأخرا جدا عن عصرهم. فمن أهم من أشار اليهم أبو الحسن علي بن عبدالله الفاسي المعروف بابن أبي زرع (ت 726هـ/ 1325 ـ 1326م)، وهو ينقل كثيرا عن كتاب تاريخ البرنوسي في دولة الأدارسة الذي ألفه الشيخ أبو عبدالله محمد بن حمادة البرنوسي، وهو من المؤرخين المغاربة الذين عاشوا في القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر الميلادي. غير أن كتاب البرنوسي هذا يعد في جملة الكتب المفقودة مع الأسف، ولو عثرنا عليه لأمدنا بمعلومات قيمة عن الحركة الفكرية والعلمية، فضلا عن تفصيلات أخرى عن الحالة السياسية في عهد الأدارسة[74]. كما كتب محمد بن يوسف الوراق القروي (ت 363هـ/ 973م) عن بعض المدن التي عرفت ازدهارا كبيرا في عهد الأدارسة، لا سيما سجلماسة، ونكور وفاس، والبصرة، وأصيلا، وذلك في كتابه مسالك إفريقية وممالكها. الذي ألفه للحكم المستنصر في الأندلس[75]. وقد فقدت معظم أصول هذا الكتاب كما فقدت أيضا كتبه الأخرى عن أخبار ملوك شمال إفريقيا وحروبهم باستثناء نقولات قليلة احتفظ لنا بها بعض المؤرخين المتأخرين[76].

(74) ينظر: عبد الواحد ذنون طه، موارد تاريخ ابن عذاري المراكشي عن شمال إفريقيا من الفتح إلى نهاية عهد المرابطين، مجلة المجمع العلمي العراقي، الجزء الرابع، المجلد السادس والثلاثين، بغداد، 1985، ص234 ـ 235.

(75) البيان المغرب، 1/ 176 ـ 180، 232، 235؛ ويقارن: البكري، ص111 ـ 112.

(76) ينظر: طه، موارد تاريخ ابن عذاري، ص248 ـ 251.

وكانت حركة العلوم الدينية مزدهرة في عهد الأدارسة، وابتدأت هذه الحركة بدخول إدريس بن عبدالله إلى المغرب، حيث نشر الموطأ بين المغاربة. وكان يؤثر عنه قوله: نحن أحق باتباع مالك بن أنس وقراءة كتابه، وذلك لرواية إدريس للموطأ عن والده عبدالله الكامل. وكذلك فقد ناهض إدريس معتقدات الخوارج في محاولة ناجحة لجمع المغرب كله على كلمة واحدة. ولهذا كان الفضل الأكبر يرجع إلى إدريس الأول الذي استطاع أن يحمل الناس على اتباع آراء عالم المدينة، مالك بن أنس، ولم يكن عمل إدريس شاقا في إقناع المغاربة بهذا الأمر، لأنه ينسجم مع طبيعتهم التي تحبذ الأشياء الواضحة التي لا يكتنفها الغموض. ولهذا فقد فتحت القرويين عيونها على تعاليم مالك، وكانت حلقاتها مجالا واسعا لدراسة آرائه، ومناقشة آراء الفقهاء المسلمين الآخرين[77].

أما الحركة الأدبية، فقد عرفت نشاطا لابأس به حيث احتفظت لنا المصادر بنبذ قليلة متفرقة منه. فقد عرف عهد الأدارسة معظم أبواب الأدب التقليدية، غير أن الشعر السياسي كان طاغيا على الأبواب الأخرى، نظرا للصراع القائم بين مختلف الفئات التي كانت موجودة في ذلك العصر. وكان من بين أمراء الأدارسة عدد كبير من الأدباء والشعراء، منهم إدريس الثاني[78]، الذي روي عنه قوله للشعر في مناسبات عديدة، مما يدل على قابلية شعرية جيدة، وبلاغة متمكنة.[79] ومن الأمراء الآخرين الذين عرف عنهم قول الشعر، إبراهيم بن القاسم بن إدريس، باني قلعة حجر النسر[80].

وقد طرق الشعراء في عهد الادراسة مختلف صنوف الشعر كالشكوى، والمدح، والوصف. كما اشترك البربر أيضا في الحركة الأدبية، بفضل

---

(77) ينظر: التازي: جامع القرويين، 1/ 118 ـ 119.

(78) ينظر: جذوة الاقتباس، 1/ 161.

(79) روض القرطاس، ص26 ـ 27؛ جني زهرة الآس، ص16 ـ 17.

(80) حركات، المغرب عبر التاريخ: 1/ 129.

اختلاطهم وامتزاجهم بالأدارسة. ومن شعرائهم الذين اشتهروا في هذا المجال سعيد بن هشام المصمودي، الذي قال قصيدة طويلة بعد إحدى المعارك التي خسرها البربر مع البرغواطيين، والقصيدة تقليد واضح لمعلقة عمرو بن كلثوم، وزنا وقافية، بالإضافة إلى تقارب المناسبتين، مما يدل دلالة واضحة على مدى تأثر البربر بالحركة الأدبية العربية عامة في المشرق والمغرب(81).

وظهر الألم العربي في شعر الأدارسة، الذين أحس الأولون منهم بحنين إلى مواطن آبائهم الأصلية، ويؤثر عن إدريس الثاني أنه قال شعرا بهذا المعنى. كما نقل عن شاعر عربي آخر، سكن بين البربر في منطقة ورغة، فقال في نفسه البيتين الآتيين:(82)

ألا هل أتى أهل المدينة أنني بورغة بين الأعجمين غريب

إذا قلت شيئا قيل ماذا تريده؟ لهم بين أحراز الوجوه قطوب

ومن الشعراء الذين امتازوا بالمدح، الشاعر أبو عبد الرحمن بكر بن حماد التاهرتي، الذي قال قصائد كثيرة في أحمد بن القاسم بن إدريس، أحد ولاة البصرة من الأدارسة(83). كذلك اشتهر من الشعراء في عهد الأدارسة من طرق أبواب الوصف، وأحسن فيها، كالشاعر أحمد بن فتح المعروف بابن الجزار التاهرتي، الذي مدح أبا العيش عيسى بن إبراهيم القاسم، ووصف جمال نساء أهل بصرة المغرب. ولقد بلغت الرقة بهذا الشاعر أن جمع أربع أوصاف لجمال المرأة البصرية، مع الدقة في الوصف، وذلك كله في البيت الثاني من البيتين الآتيين:(84)

قبح الإله الدهر إلا قينة بصرية في حمرة وبياض

(81) ينظر بعض أبيات القصيدة في البيان المغرب: 1/ 226؛ يقارن: المرجع السابق: 1/ 140.
(82) البيان المغرب: 1/ 236؛ حركات، المرجع السابق: 1/ 140.
(83) البيان المغرب: 1/ 237.
(84) البكري، ص110، معجم البلدان: 1/ 440؛ ويقارن: حركات، المرجع السابق، 1/ 141.

الخمر في لحظاتها والورد في وجناتها والكشح غير مفاض

هذه نظرة موجزة عن الحياة الفكرية في عهد الأدارسة، وهي على اختصارها وبساطتها تدل على محاولات مشكورة لما قام به هؤلاء، رغم إمكاناتهم القليلة، في دعم العلم وتشجيع الأدب، ونشر الإسلام واللغة العربية في بيئة غريبة واسعة، فاستطاعوا أن يبذروا في المغرب الأقصى بذور الثقافة العربية الإسلامية، التي انتعشت ونمت وآتت آكلها في العصور التي تلت عصر الأدارسة، لا سيما في زمن المرابطين والموحدين والمرينيين.

جريدة المصادر والمراجع

أ ـ المصادر الأولية:

* ابن الأبار، عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي.

1 ـ الحلة السيراء، تحقيق، حسين مؤنس، القاهرة، 1963.

* ابن الأثير، عز الدين علي بن أبي كرم.

2 ـ الكامل في التاريخ، بيروت، دار صادر، 1979.

* الإدريسي، أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالله.

3 ـ وصف إفريقية الشمالية والصحراوية مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، اعتنى بتصحيحه، هنري بيرس، الجزائر، 1957.

* البكري، أبو عبيد عبدالله بن عبد العزيز.

4 ـ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، نشر: دي سلان، الجزائر، 1857.

* التنسي، أبو عبدالله محمد بن عبد الجليل.

5 ـ كتاب نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان (مخطوط) نشر جزء منه ملحقا لكتاب دولة الأدارسة ملوك تلمسان وفاس وقرطبة، لإسماعيل العربي.

* الجزنائي، علي.

6 ـ جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس، الرباط، المطبعة الملكية، 1967.

* ابن حوقل، محمد بن علي النصيبي.

7 ـ صورة الأرض، بيروت، دار مكتبة الحياة، 1979.

* ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبدالله محمد.

8 ـ تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط/ القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام، تحقيق، احمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، الدار البيضاء، دار الكتب، 1964.

* ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد.

9 ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت، دار الكتاب العربي، 1956.

* ابن أبي دينار، محمد بن أبي القاسم القيرواني.
10 ـ المؤنس في أخبار إفريقية والمغرب، تحقيق، محمد شمام، تونس، المكتبة العتيقة، 1967.
* ابن أبي زرع، علي بن أبي زرع الفاسي.
11 ـ الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب ومدينة فاس، الرباط، نشر، دار المنصور للطباعة والوراقة، 1972.
* ابن عذاري، أحمد بن محمد المراكشي.
12 ـ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، نشر، كولان وليفي بروفنسال، ليدن، 1948، أعادت دار الثقافة نشره في بيروت.
* ابن القاضي:
13 ـ جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، الرباط، دار المنصور للطباعة والوراقة، 1973.
* الكندي، محمد بن يوسف.
14 ـ الولاة والقضاة، بيروت، 1908.
* مجهول المؤلف.
15 ـ كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق، سعد زغلول عبد الحميد، الإسكندرية، 1958.
* المقري، أحمد بن محمد.
16 ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق، إحسان عباس، بيروت، 1968.
* ياقوت، أبو عبدالله شهاب الدين ياقوت الحموي.
17 ـ معجم البلدان، بيروت، 1957.
* اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب.
18 ـ كتاب البلدان، نشره دي غوية مع كتاب الأعلاق النفيسة لابن رستة، ليدن، 1892.

ب ـ المراجع الثانوية:

* إسماعيل، عثمان عثمان.
19 ـ تاريخ شالة الإسلامية، بيروت، دار الثقافة، 1975.
* بونار، رابح.
20 ـ المغرب العربي تاريخه وثقافته، الجزائر، 1981.

* بروفنسال، ليفي.

21 ـ الإسلام في المغرب والأندلس، تعريب، محمود عبد العزيز سالم وصلاح الدين حلمي، القاهرة، مكتبة نهضة مصر، 1956.

* التازي، عبد الهادي.

22 ـ جامع القرويين، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1972.

* جوليان، شارل اندريه.

23 ـ تاريخ إفريقيا الشمالية، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، تونس، الدار التونسية للنشر، 1985.

* حركات، إبراهيم.

24 ـ المغرب عبر التاريخ، الدار البيضاء، دار السلمي(د.ت).

* سالم، السيد عبد العزيز.

25 ـ تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، 1982.

* سليمان، أحمد سعيد.

26 ـ تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، مصر، دار المعارف، 1969.

* طه، عبد الواحد ذنون.

27 ـ «موارد تاريخ ابن عذاري المراكشي عن شمال إفريقيا إلى نهاية عهد المرابطين»، مجلة المجمع العلمي العراقي، ج4، م36، بغداد، 1985.

* عبد الحميد، سعد زغلول.

28 ـ تاريخ المغرب العربي، الإسكندرية، 1979.

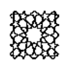
* العربي، إسماعيل.

29 ـ دولة الأدارسة ملوك تلمسان وفاس وقرطبة، بيروت، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983.

* محمود، حسن أحمد، والشريف، أحمد إبراهيم.

30 ـ العالم الإسلامي في العصر العباسي، القاهرة، دار الفكر العربي، 1973.

تاريخ وحضارة دولة بني الأغلب في إفريقية



إن المتتبع لتاريخ المغرب العربي في أواخر القرن الثاني للهجرة/ الثامن الميلادي، يجد قيام عدة دول مستقلة، وقد أشرنا فيما سلف إلى دولة الأدارسة في المغرب الأقصى، كما قامت في هذا الجزء أيضا من المغرب دولة بني مدرار في سجلماسة، ودولة بني صالح بن منصور الحميري في الريف المغربي بنكور. ودولة بني صالح بن طريف البرغواطي في شالة بتامسنا. وقامت في المغرب الأوسط دولة الرستميين في تيهرت، أما المغرب الأدنى، فشهد قيام دولة الأغالبة.

وكان للاستقلال المبكر الذي تمتع به المغرب الأقصى بعد حركات التمرد التي قام بها البربر سنة 123هـ/ 739 ـ 740م أثر في نجاح قيام بعض هذه الدول، لا سيما دولة الأدارسة، أما بالنسبة للمغرب الأدنى، فقد كانت الظروف السياسية التي سادت في ولاية إفريقية في أواخر العهد الأموي، وأوائل العصر العباسي، مشجعة على قيام كيان شبه مستقل في هذه المنطقة، التي تميزت بظهور حركات متعددة للخوارج الصفرية والأُباضية بالإضافة إلى حركات التمرد التي قام بها الجند.

وفي المشرق كان وضع الخلافة صعبا لكثرة ما نجم من صعاب واضطرابات في أرمينيا وأذربيجان، وخراسان، واليمن. ولهذا فقد تأثرت خزينة الدولة بشدة لهذه الأحداث، واتخذ الخليفة هارون الرشيد فعلا إجراءات مالية شديدة لمقاومة هذه الحالة في سنة 184هـ/ 800م[1]. وهي السنة التي عين فيها إبراهيم بن الأغلب على إفريقية. فجاءت المساومة التي اقترحها الأخير بشأن عدم أخذ مساعدة من بيت المال، ودفع مبلغ سنوي إلى بغداد، في وقت مناسب فخفف الوطأة على بيت المال، وأتاح له الامتلاء من جديد، ولهذا لقي طلب إبراهيم في بغداد تأييدا طيبا.

يضاف إلى ذلك أن سياسة الرشيد العامة في ذلك الوقت كانت الحد من نفوذ البرامكة، الذين لم يكن يتحملهم إلا على مضض، لممارستهم سلطة هائلة في الدولة، بفضل قدرتهم، ونفوذهم، وأقاربهم، ومواليهم الكثيرين. وكان محمد بن مقاتل العكي، والي القيروان الأخير قبل ابن الأغلب، في حماية البرامكة، حيث كان جعفر بن يحيى البرمكي شديد العناية به، ولا بد أنه حصل على منصبه بمساعدتهم[2]. لذلك فإن عزله، والتحوير الذي طرأ على ولاية إفريقية، وقيام الأغالبة، يندرج تماما ضمن السياسة العامة للخليفة، ولا يجوز فصل تأسيس الإمارة الأغلبية عن عقدة متشابكة جدا لسياسة الخلافة. حيث لم يتول ابن الأغلب مركزه الجديد في القيروان إلا لمزاياه الشخصية، ولم تكن له صلات بالبرامكة، وإنه قدم الوعود العديدة للعمل على تخفيف سياسة الرشيد، لا سيما إزاء العلويين[3].

(1) ينظر: اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، بيروت، 1960: 2/ 415؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، نشر: دي غويه، ليدن، 1879 ـ 1901، 3/ 649.

(2) الحلة السيراء، تحقيق، حسين مؤنس، القاهرة، 1963 : 1/ 89.

(3) يقارن: محمد الطالبي، الدولة الأغلبية، تعريب، المنجي الصيادي، دار المغرب الإسلامي، بيروت، 1985، ص125 ـ 126.

إن قيام دولة الأغالبة، وتولي إبراهيم بن الأغلب إدارة المغرب الأدنى يشير إلى وجود تغيير كبير في الوضع السياسي للمنطقة. حيث ينتهي عصر الولاة في المغرب الأدنى، ويبدأ عصر الاستقلال الذاتي، حيث استقل إبراهيم بن الأغلب بحكم البلاد، وأورثها أبناءه من بعده، ولم يعد يربط الخلافة بهذه المنطقة سوى الخطبة والدعاء للخليفة العباسي في أيام الجمع. أما السلطة الحقيقية، فانحصرت في أسرة آل الأغلب، وقد نجحت هذه الأسرة في إدارة البلاد لمدة تزيد على قرن من الزمن، حتى مجيء الفاطميين سنة 296هـ/ 908م[4].

وهكذا لم يعد للسلطة المركزية دور كبير في التأثير على هذه المنطقة، ومن الملاحظ أن النزعة الاستقلالية في هذه البلاد ظهرت منذ فترة مبكرة حينما حاول عبد الرحمن بن حبيب (127 ـ 137هـ/ 744 ـ 754م) والي إفريقية التخلص من سلطة الدولة العباسية في بداية تكوينها، وانشغالها بمشكلاتها في المشرق.

ونتيجة لاستمرار حركات التمرد والفتن في إفريقية، وما نجم عنها من فوضى واضطراب، لم تتمكن السلطة العباسية من السيطرة الفعلية الكاملة عليها. وقد أتاحت هذه الظروف الفرصة لإبراهيم بن الأغلب، عامل الزاب، لإقامة كيان شبه مستقل برعاية الخلافة العباسية، حيث أقنعت الأحداث المتوالية في المغرب الأدنى الخليفة هارون الرشيد بصعوبة السيطرة المباشرة على هذه المنطقة. وهذا ما دفعه لقبول ما عرضه عليه ابن الأغلب باستقلال ولاية إفريقية استقلالا جزئيا عن الخلافة العباسية، والاكتفاء بالتبعية الاسمية، مقابل مبلغ معين من المال يدفع إلى الخلافة في كل عام.

ومن الأسباب الأخرى التي شجعت الرشيد على الاعتراف بالاستقلال الجزئي لولاية إفريقية وقيام الدولة الأغلبية، هي قيام دولة الأدارسة في

(4) ينظر: حسن علي حسن، تاريخ المغرب العربي (عصر الولاة)، القاهرة، 1977، ص 196.

المغرب الأقصى سنة 172هـ. وذلك بعد أن نجح إدريس بن عبدالله بن الحسن في الإفلات من موقعة فخ سنة 169هـ/ 785م، والالتجاء مع مولاه راشد إلى المغرب، حيث بايعه السكان المحليون من قبيلة أوربة بالإمامة، ثم تبعهم في ذلك قبائل زواغة، وزواوة، وسدراتة، وغياثة، ومكناسة، وغمارة، فنجح في تكوين دولة علوية، وتطلع إلى توحيد المغرب. وكانت فكرة توحيد المغرب بالمشرق العربي تحت ظل الدولة الإدريسية، أمنية تراود تفكير معظم الأدارسة، الذين كانوا على اتصال وثيق بأهل إفريقية لدرجة أن بعض أمراء الأغالبة فكر في مبايعتهم بدلا من العباسيين، أو بمعنى آخر هدد بالانضمام إلى الأدارسة، إذا ما فكر العباسيون في التأثير على استقلاله الذاتي. فكان من الطبيعي أن يخشى الخلفاء العباسيون من مطامع الأدارسة في إفريقية، وفي مصر أيضا. فرضي الرشيد بإقامة دولة الأغالبة لتكون حاجزا بين البلاد التابعة للعباسيين، وبلاد الأدارسة في المغرب الأقصى[5].

أصل الأغالبة:

يرجع الأغالبة في أصلهم إلى الأغلب بن سالم بن عقال بن خفاجة التميمي[6]، الذي كان من الجند العرب المقيمين في خراسان، وساهم في الثورة العباسية، مع أبي مسلم الخراساني. ثم انتقل بعد قيام الدولة العباسية إلى العراق، وأصبح يعمل ضمن الحرس الخاص للخليفة أبي جعفر المنصور. وقد وجهه الأخير مع محمد بن الأشعث الخزاعي في سنة 144هـ/ 761م إلى شمال إفريقيا لتثبيت السلطة العباسية هناك. بعد قيام حركات عديدة مناوئة من قبل الخوارج الأباضية والصفرية. وقد أوصى المنصور أن يكون

(5) ينظر: ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثالث الخاص بالمغرب نشر بعنوان: المغرب العربي في العصر الوسيط، تحقيق: أحمد مختار العبادي، ومحمد إبراهيم الكتاني، الدار البيضاء، 1964ص17 هامش2.

(6) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، القاهرة، 1962، ص221.

الأغلب هو الأمير بعد محمد بن الأشعث، إن حصل للأخير حادث. وتمكن محمد بن الأشعث، بمساعدة الأغلب، من الانتصار على القبائل البربرية الخارجية المتمردة، مستفيدا من الانقسامات التي حدثت بين صفوفها، ثم أصبح واليا على القيروان. وعُين الأغلب على الزاب[7]، فأقام الأخير في طبنة نحو أربع سنوات، ثم ولاه الخليفة أبو جعفر المنصور على إفريقية بعد أن تمرد الجند على ابن الأشعث وطردوه من الولاية عام 148هـ/ 765م[8].

استطاع الأغلب أن يعيد الاستقرار إلى الولاية، وقد كتب إليه المنصور «يأمره بالعدل في الرعية وحسن السيرة في الجند وتحصين مدينة القيروان وخندقها وترتيب حرسها...»[9]. وهذه التوصيات التي أشار إليها الخليفة مطابقة تماما لوضع التمرد القائم في إفريقية، حيث كان على الوالي أن يحتاط باستمرار من خطرين متلازمين، الجند من جهة، والبربر الخوارج من جهة أخرى. وقد سقط الأغلب نتيجة لضربات هاتين القوتين[10]، حيث قتل بعد إصابته بسهم حينما كان يدافع عن القيروان في أثناء إحدى هجمات المتمردين عليها سنة 150هـ/ 768م، فكانت ولايته سنة واحدة وثمانية اشهر[11].

---

(7) تشكل بلاد الزاب القسم الجنوبي من ولاية قسنطينة بالجزائر الحالية، وتشغل المساحة الكبيرة الواقعة في جنوب جبال أوراس. ومن أهم قواعد الزاب، مدينة طبنة Tobna، التي اندثرت اليوم، ومدينة بسكرة Biskara، والمسيلة: ينظر: دائرة المعارف الإسلامية، مادة: زاب، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص66، هامش (2).

(8) ينظر: ابن الأبار، الحلة السيراء :1/ 68 ـ 69.

(9) ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: ج.س كولان، و ليفي بروفنسال، ليدن، 1948: 1/ 74.

(10) يقارن: محمد الطالبي، الدولة الأغلبية، ص85 ـ 86.

(11) ينظر ابن الأبار، الحلة السيراء: 1/ 71؛ ابن عذاري، 1/ 75.

إبراهيم بن الأغلب ودوره في المغرب قبل الولاية:

كان إبراهيم بن الأغلب في ذلك الوقت صبيا يبلغ عمره نحو عشر سنين ويبدو أن أسرة الأغلب انتقلت بعد ذلك إلى مصر حيث يذكر المؤرخون، أن إبراهيم قضى صباه في الدرس والتحصيل بالفسطاط، وأنه كان يحضر مجالس الفقيه الليث بن سعد (ت سنة 179هـ/ 795م)، الذي كان معجبا بإبراهيم، واجتهاده، وما تميز به من الصفات، حتى قال عنه يوما «ليكونن لهذا الفتى شأن»، وزوَّجه بجارية تدعى جلاجل[12]. وقد دخل إبراهيم بن الأغلب في جند مصر، ولكنه اضطر إلى مغادرة البلاد، بعد فترة من الاضطرابات والانتفاضات التي قام بها الجند، فرحل إلى المغرب بينما بقي أخوه عبدالله بمصر، وكان غنيا جدا[13].

ويفهم من رواية أحمد بن ناقد مولى بني الأغلب، التي ينقلها البلاذري، أن ابن الأغلب كان من وجوه جند مصر، فهاجم مع بعض رجاله بيت المال، وأخذوا مقدار أرزاقهم وهربوا إلى الزاب. وهناك سيطر ابن الأغلب على من كان بتلك الناحية من الجند، واكتسب ود أهالي المنطقة. واستطاع بذلك التغلب على الزاب، ثم لاطف هرثمة بن أعين والي إفريقية، وأرسل إليه الهدايا، واعتذر عما بدر منه من أخذ المال بمصر، وأنه لم يقم بذلك عن معصية بل لضرورة دعته إلى الحصول عليه. فرضي عنه هرثمة، وأقره رسميا على ولاية الزاب[14].

وعلى الرغم من الشوائب الموجودة في هذه الرواية والغموض الذي يكتنف بعض أحداثها، لا سيما الدافع الذي دفع بن الأغلب لسرقة بيت المال وهو من كبار قادة الجند، فإنها تقدم معلومات مفصلة عن بداية حياته

(12) المصدر نفسه: 1/ 92؛ الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق: المنجي الكعبي، تونس، 1968، ص212 ـ 213.

(13) المصدر نفسه، ص213، الحلة السيراء: 1/ 93.

(14) البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق: رضوان محمد رضوان، مصر، 1959، ص235.

في المغرب. في حين تكتفي بقية المصادر بإيجاز خبر وصول ابن الأغلب إلى الزاب، وتصفه بأنه قائد كبير تولى هذه الولاية من قبل الخليفة هارون الرشيد، في عهد والي إفريقية محمد بن مقاتل العكي(15). ولكن هذه المصادر لا تشير إلى تاريخ، وكيفية رحيل إبراهيم من مصر إلى الزاب، ومن المرجح أنه دخل إلى هذه المنطقة منفيا قبل نحو عشر سنوات من ارتقائه للإمارة في القيروان، أي في سنة 174هـ/ 790م. ويبدو أن حياته هناك كانت هادئة دون أحداث، فقد اتعظ بنزاعاته في مصر، وأدرك أن أحسن الطرق وأكثرها اختصارا لبلوغ ما يطمح إليه من الحكم، هي الطرق الشرعية. فتجنب الدسائس، وعقد الصداقات، وقوى من وضعه حتى فرض نفسه في الوقت المناسب. فكان بمثابة السيد بين الجند، وأبرز شخصية لديهم، وأصبح في نظر زملائه الضابط المثالي في ولاية الزاب. وقد استغل إبراهيم هذه المكانة، وحاول تبرير سلوكه إزاء الاضطرابات التي حصلت في مصر، فقدم شواهد على ولائه لبني العباس مدعمة بالهدايا الضرورية لوالي إفريقية هرثمة بن أعين، الذي عينه عاملا على الزاب سنة 179هـ/ 795م كما أشارت إلى ذلك رواية البلاذري التي أسلفنا ذكرها(16).

ولما رجع هرثمة بن أعين إلى بغداد بعد فترة وجيزة من ولايته على القيروان، عين الخليفة الرشيد محمد بن مقاتل بن حكيم العكي بدله سنة 181هـ/ 797م. ويبدو أن هذا التغيير في الولاة رافقه تغيير إداري آخر قام به الرشيد بشأن إعادة تنظيم الولايات في المغرب بصورة تستجيب أكثر لسياسة الرشيد، لا سيما بالنسبة للزاب الذي يمكن أن يكون بمثابة جسر متقدم للقيام بعمل واسع النطاق إزاء الأدارسة في المغرب الأقصى. ولهذا فقد أصبح ابن الأغلب في منصب والي يرجع بالنظر مباشرة إلى بغداد دون القيروان. أي بعبارة أخرى، فإن ولاية الزاب فصلت عن القيروان وأُلحقت

(15) ينظر: الرقيق، ص213؛ ابن عذاري: 1/ 92، الحلة السيراء، 1/ 93.

(16) فتوح البلدان، ص235؛ ويقارن، محمد طالبي، الدولة الأغلبية، ص115.

مباشرة بالخلافة العباسية، في حين بقيت إفريقية بيد الوالي ابن العكي. وهذا ما أشار إليه المؤرخون بقولهم: «وكانت ولايته الزاب من قبل هارون الرشيد وابن العكي على إفريقية»[17].

ولاية ابن الأغلب على إفريقية:

كانت سياسة محمد بن مقاتل العكي غير مرضية بالنسبة لأهل إفريقية، فهو لم يحاول الاستفادة من أخطاء الولاة السابقين، ولم يدرك طبيعة الأوضاع في إفريقية، وظروف الجند فيها، فقطع بعض أرزاقهم، مما أدى إلى استيائهم منه. يضاف إلى ذلك أنه أساء إلى أحد كبار المتصوفة في القيروان، وهو البهلول بن راشد، فضربه بالسياط، وحبسه حتى مات. ففقد بذلك حب الناس ومساندتهم له، وأصبحت البلاد مهيأة للعصيان والتمرد على العكي[18].

وكان من جملة الذين خرجوا عليه، واليه على تونس، تمام بن تميم التميمي، الذي استطاع أن يدخل القيروان ويُخرج منها محمد بن مقاتل العكي. وهنا يأتي دور ابن الأغلب الذي كان يرقب الأحداث من إقليم الزاب، ويتحين الفرص لتحقيق أهدافه وأغراضه. فوجد أن الاعتداء على والي القيروان وخلعه من ولايته هو عمل غير شرعي، لذلك، ومن أجل أن ينال رضا الخلافة أسرع إلى القيروان لإرجاع الوالي السابق، ومحاربة المتمرد تمام، الذي ما أن سمع بالخبر، حتى تخلى عن القيروان، وغادرها إلى تونس[19]. ويبدو أن عودة العكي مرة ثانية إلى ولاية إفريقية لم تلق قبولا لدى الأهالي، فانضم بعضهم إلى تمام الذي ابتدأ يتجهز للقيام بهجوم آخر

(17) الرقيق، ص213؛ وينظر: ابن عذاري، 1/ 92؛ وابن الأبار، الحلة السيراء، 1/ 93، اللذان رويا نفس الخبر ولكن باختلاف قليل في الألفاظ.

(18) ينظر: الرقيق، ص203؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت، 1979، 6/ 154؛ أعمال الأعلام، ص12 ـ 13.

(19) الرقيق، ص205 ـ 206؛ الكامل في التاريخ، 6/ 154 ـ 155؛ ابن عذاري، 1 ـ 90.

على والي إفريقية، لكن إبراهيم بن الأغلب استطاع أن يقضي على حركته، وأرسله مع بعض زملائه الخارجين على السلطة، ليسجن في بغداد[20].

وهكذا استمر إبراهيم بن الأغلب في سياسته الرامية إلى التقرب من الخلافة، وكسب ود الناس الذين كانوا يكرهون ابن العكي وسياسته. وقد ساعدت هذه الظروف إبراهيم في تحقيق أهدافه والوصول إلى منصب والي القيروان. فتشير إحدى الروايات إلى أن صاحب بريد بالقيروان، كتب إلى الخليفة هارون الرشيد يعلمه بما جرى بين ابن العكي وتمام، وموقف إبراهيم بن الأغلب في إرجاع السلطة الشرعية. فاستشار الرشيد هرثمة بن أعين، والي إفريقية السابق، الذي أكد له إخلاص إبراهيم للخلافة ورضا الناس وحبهم له، فكان ذلك سببا في تعيين ابن الأغلب على ولاية إفريقية[21]. وتذكر رواية أخرى أن ابن الأغلب هو الذي كاتب الرشيد بناء على رغبة أهل البلاد، يطلب منه ولاية إفريقية، وأنه عرض عليه الاستغناء عن المعونة المالية السنوية التي كانت تقدمها الخلافة من مصر إلى القيروان، وتبلغ مئة ألف دينار، وأنه تعهد على العكس من ذلك بدفع مبلغ أربعين ألف دينار سنويا إلى بيت المال في بغداد[22].

ويروي لنا البلاذري رواية ثالثة ينقلها عن أحمد بن ناقد مولى بني الأغلب، وهي تشير إلى أن الرشيد هو الذي عرض على ابن الأغلب تولي إفريقية، وذلك عندما علم بحدوث قلاقل في هذه المنطقة، بعد أخذ نصيحة هرثمة بن أعين في الأمر الذي «أشار عليه باستصلاح إبراهيم واصطناعه وتوليته بلاد المغرب اصطناعا له ليستقبل به الإحسان ويستقبل به

(20) ينظر: الرقيق، ص207 ـ 211.

(21) المصدر نفسه، ص220؛ الكامل في التاريخ: 6/ 155.

(22) المصدر نفسه: 6/ 155؛ ويقارن: سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، الإسكندرية، 1979، 2/ 29 ـ 30.

النصيحة»[23]. إن هذه الرواية التي نقلها أحد موالي الأغالبة، تعكس وجهة النظر الرسمية الأغلبية، وهي لا تتحدث عن تدخل أهل إفريقية، أو تدخل إبراهيم، في ولاية ابن العكي، أو مطالبة ابن الأغلب بالولاية، الأمر الذي يُحرِّمه الفقه، ولا شك أن إبراهيم، وهو تلميذ الفقيه الليث بن سعد، كان يعرف ذلك ويعيه جيدا[24].

وعلى أي حال، فقد تم تعيين ابن الأغلب على إفريقية، سواء كان ذلك بمبادرة الرشيد نفسه، أم نتيجة لسياسة إبراهيم وتدخله في إفريقيا لإعادة السلطة الشرعية، أم مكاتبته الشخصية للرشيد وطلبه الولاية وفق الشروط التي أشرنا إليها، وقد تم عزل ابن العكي عن إفريقية وتعيين إبراهيم بن الأغلب في بداية سنة 184هـ/ 800م.

جهود ابن الأغلب في تثبيت أركان الدولة:

1 ـ بناء مدينة العباسية:

ابتدأ إبراهيم بن الأغلب حكمه ببناء مدينة جديدة لتكون مقرا لإدارته وعاصمة لحكمه. فشرع في سنة 184هـ/ 800م[25]، أو 185هـ/ 801م[26]، في بناء مدينة القصر الأبيض جنوبي القيروان. وسماها المدينة العباسية، لتكون قرينة للهاشمية، وهي أول عاصمة عباسية قبل بغداد، وذلك تعبيرا عن ولائه للعباسيين[27]، وتسمى العباسية أيضا باسم القصر، أو القصر القديم[28].

(23) فتوح البلدان، ص235.
(24) يقارن: محمد الطالبي، الدولة الأغلبية، ص122، هامش (202).
(25) البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، نشر: دي سلان، الجزائر، 1857، ص228؛ الكامل في التاريخ، 6/ 156.
(26) ابن عذاري، 1/ 92.
(27) فتوح البلدان، ص235.
(28) ينظر: الرقيق، ص222؛ ابن عذاري، 1/ 93؛ ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، تحقيق: محمد شمام، تونس، 1967، ط2، ص49.

ويبدو أن ابن الأغلب قد أخذ عبرة من دروس الماضي والاضطرابات التي حلت بالقيروان، فرأى أن يبتعد عنها قليلا. ويمدنا البكري بمعلومات جيدة عن هذه المدينة وطبيعة بنائها، فقد اشتملت على قصر الأمير وما يلحق به من أبنية الدولة ودواوينها، ودار سك النقود، ومساكن الحاشية، والمسجد الجامع، ومعسكرات الحرس، والأسوار التي تحيط بالمدينة. وكان لها خمسة أبواب، وفي وسط المدينة كانت توجد رحبة كبيرة واسعة عرفت باسم «الميدان» ربما كانت تستخدم لعرض الجند. وقد اتسعت هذه المدينة وأخذت تنافس القيروان بحماماتها الكثيرة، وفنادقها، وأسواقها، وخزانات مياهها التي تزود القيروان في أوقات حاجتها إلى الماء[29].

لقد هدف ابن الأغلب من إنشاء هذه المدينة إلى تحقيق التحرر من تسلط الجند، حتى تكون مقرا حصينا له ولحرسه المخلصين الذين ابتدأ بشرائهم من العبيد. وقد أوحى إلى جنده أنه يريد إكرامهم عن حمل سلاحه وخدمته باستخدام هؤلاء السود الذين بلغ عددهم بمرور الأيام نحو خمسة آلاف رجل، فأسكنهم حوله في مدينته الجديدة[30]. وعندما تم بناء المدينة أخذ ينقل إليها السلاح والعتاد الضروري بالتدريج، ثم غادر القيروان في جنح الظلام حتى لا يشعر به خصومه الذين أدركوا غايته من بناء المدينة، وأنه سيفلت من قبضتهم، فنجح في الانتقال بسلام، وأسكن معه حاشيته وجنوده السود. بهذا أصبحت هذه المدينة مقرا للأغالبة، ومعسكرا لقواتهم[31].

(29) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص28.

(30) فتوح البلدان، ص235، الرقيق، ص222.

(31) المصدر نفسه، ص222؛ ابن عذاري: 1/ 93؛ النويري، نهاية الأدب، نشر: جاسبار راميرو، غرناطة، 1917، ج22، قد2، ص64 ـ 65.

2 ـ القضاء على الفتن والثورات الداخلية:

أ ـ ثورة خُريْش بن عبد الرحمن الكندي في تونس سنة 186هـ/ 802م:
لم يكن هذا المتمرد من الجند، ولكنه من أبناء العرب الذين دخلوا إفريقية أيام التحرير العربي الإسلامي واستقروا فيها. ويبدو أن حركة خريش هذه كانت موجهة ضد الخلافة العباسية بالدرجة الأولى، لأنه، كما يذكر المؤرخون، نزع السواد وهو شعار العباسيين، ودعا إبراهيم بن الأغلب إلى الرحيل إلى بغداد. وقد أيدته جماعات من العرب والبربر[32]. واحتفظ لنا ابن الأبار بنص الرسائل المتبادلة بين الأمير إبراهيم وخريش[33]، وهي الوثائق الوحيدة التي يمكن أن تلقي بعض الضوء على ظروف ودوافع هذه الحركة، حيث إن إشاراته إلى الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، تعني أن للحركة لونا علويا يستند عليه، وأن خريشا كان يجمع الناس بالدعوة إلى الحق والعدل.

وقد عجل الأمير إبراهيم في مقاومة الحركة، فأرسل قائده عمران بن مجالد، الذي تمكن من القضاء عليها بسهولة، وقام بقتل معظم المشاركين فيها. ويبدو أن هذه الحركة قامت على جمع الناس وتحريضهم في الخفاء، وهي تشبه بقية الحركات التي قام بها أنصار العلويين في المشرق، فما أن ترى النور، حتى تنتهي بسرعة كبيرة، بحيث لا تقدر على إثبات مبادئها بوضوح. إن الغموض الذي أحاط بهذه الحركة، هو نصيب جميع الأعمال التي نشأت في الخفاء، والتي كان يثيرها بعض الأشخاص الذين يستجيبون لدعوة أحد أفراد ذرية الإمام علي عليه السلام، أو أحد أتباعه المستترين[34].

ب ـ الاضطرابات في طرابلس: شكل أهالي مدينة طرابلس مصدرا آخر

(32) الحلة السيراء، 1/ 101 ـ 102؛ وينظر: الرقيق، ص224؛ الكامل في التاريخ، 6/ 156.
(33) الحلة السيراء، 1/ 102 ـ 104.
(34) يقارن: محمد الطالبي، ص158، 159، 160.

للمتاعب والقلق لابن الأغلب، فقد استعمل عليهم عدة ولاة، لكنهم كانوا يشكون منهم، فيعزلهم ويولي غيرهم. وفي سنة 189هـ/ 805م ازدادت الاضطرابات، حيث قام أهل المدينة على الوالي سفيان بن المضاء، الذي ولي للمرة الرابعة عليهم. واتفق أهل البلد على طرده وإرجاعه إلى القيروان، فزحفوا إليه، فأخذ سلاحه وقاتلهم، فأخرجوه من داره إلى المسجد الجامع، فقاتلهم فيه، فقتلوا أصحابه، ثم أمّنوه فخرج عنهم ولم يمض على ولايته شهر واحد[35]. وقد وقف الجند موقفا سلبيا من هذه الأحداث، ولم يتدخل لحماية الوالي، لكنه أقام واليا آخر، هو إبراهيم بن سفيان التميمي. ويبدو أن الأمير وافق على هذا الاختيار، لكن الاضطرابات لم تنته، فقد وقع خلاف بين جماعات من سكان المدينة. حتى «فسدت طرابلس»، فبلغ ذلك إبراهيم ابن الأغلب، فأرسل جمعا من الجند وأمرهم أن يحضروا المتخاصمين إلى القيروان، فوصلوا في ذي الحجة سنة 189هـ/ 805م، وطلبوا العفو من الأمير، فعفا عنهم، وأذن لهم بالرجوع إلى مدينتهم[36].

جـ ـ عصيان الجند بقيادة عمران بن مجالد: تعد حركة العصيان التي تزعمها عمران بن مجالد، قائد الأمير ووزيره، من أخطر الحركات التي تعرض لها ابن الأغلب، وهي أول إنذار جدي هدد دولة الأغالبة سنة 194هـ/ 810م. وقد اشترك مع عمران اثنان من كبار رجال الدولة، وهما عامر ابن المعمر بن سنان التميمي، صاحب الشرطة ووالي مدينة قسطيلية السابق، وعمرو بن معاوية القيسي، وكان يتولى ناحية القصرين في إفريقية[37].

لقد كانت حركات الجند وعصيانهم أمرا مألوفا في إفريقية قبل قيام دولة الأغالبة، ولهذا فقد اتخذ إبراهيم إجراءات كثيرة للاحتماء من هذه الطوارئ. وقد سبقت الإشارة إلى بنائه لمدينة العباسية، وشحنها بالأعتدة

(35) الكامل في التاريخ، 6/ 192 ـ 193؛ وينظر، ابن خلدون، كتاب العبر: 4/ 420.

(36) الكامل في التاريخ: 6/ 193.

(37) ينظر: الحلة السيراء: 1/ 104، 106، 110.

والسلاح، واتخاذه العبيد للحراسة الخاصة، كما قام بنفي بعض العناصر المريبة إلى بغداد، لا سيما أولئك القادة المعروفين بكثرة وثوبهم على الولاة في القيروان[38]. ولكن الخطر ظهر من أصدقاء كان الأمير يعدهم أوفياء، فما هي يا ترى أسباب استياء عمران بن مجالد وجماعته من القادة الكبار؟ يرجع النويري هذه الأسباب إلى مسألة شخصية، مفادها أن عمران بن مجالد خرج مع الأمير يوما، فجعل يحادثه، وإبراهيم لا ينتبه إليه، لأنه كان منصرفا إلى التفكير في مدينته الجديدة العباسية، فغضب عمران، وتغير على أميره منذ ذلك الوقت[39].

ولا يمكن الاقتناع بهذا التفسير القائم على المسائل الشخصية، لأن الأحداث التاريخية تحتاج إلى أسباب وتعليلات مقنعة. وربما كان الأقرب إلى الصحة، أن عمرانا أبتدأ بالتغير على صديقه القديم، إبراهيم، نتيجة لعملية بطيئة من الالتباس وعدم الثقة. حيث كان الأمير يزداد بعدا عن جنده، وذلك باتخاذ الحرس الأسود، وبنائه لمقره الجديد الذي أثار التباعد والانفصال بينه وبين جيشه. ومن جهة أخرى، فقد كان رفاق الأمير من القادة يرون أنه ارتقى إلى الحكم بفضل مساعدتهم، وأنه لا بد أن يبقى مدينا لهم على الدوام. ولم يكن إبراهيم ليرضى عن هذا الوضع. يضاف إلى ذلك أنه ابتدأ يهمل شؤون الجند، لا سيما ما يتعلق بدفع الرواتب، وهي مسألة حساسة جدا وأساسية في نظر المقاتلين، وهكذا ابتدأ الجند المخلصون للأمير على الأقل حتى سنة 186هـ/ 802م يتململون من سياسته. ويفسر هذا الموقف حيادهم سنة 189هـ/ 805م في أثناء اضطرابات طرابلس. ومن بعد هذا التاريخ ابتدأت العلائق تسوء بينهم وبين الأمير أكثر فأكثر. وكانت كلما تزايدت عدم ثقة الأمير، وتأكد اتجاهه إلى مدينته الجديدة (القصر القديم)، وسلم أمر المحافظة على أمنه إلى حرسه الأسود، تحول الجند تدريجيا من

(38) المصدر نفسه، 1/ 107 ـ 108.

(39) نهاية الأرب: 22/ القسم الثاني، ص65.

الولاء إلى الحياد والتحفظ، ومن ثم العداء الذي بدأ يتضح بالتدريج. فانتهى الأمر العصيان الذي فجره قائد الجند، فتبعه المقاتلون الذين تأخرت أرزاقهم نتيجة للمصاريف العسكرية التي ذهبت للإنفاق على التحصينات في مدينة الأمير الجديدة. وانضم إلى العصيان كذلك جنود الثغر الذين طالبوا أيضا بأرزاقهم المتأخرة[40].

استطاع عمران بن مجالد أن يكسب كثيرا من الأنصار، لا سيما من أهل القيروان، التي نجح في الاستيلاء عليها في 10 رجب 194هـ/ 19 نيسان 810م. وقد نفذت قوات عمران ثلاث هجمات على مدينة العباسية، باءت كلها بالفشل، نتيجة للتحصينات القوية وللاحتياطات التي اتخذها ابن الأغلب[41]. وبعد ذلك أحيطت المدينة بخندق فأصبحت صعبة المنال، ولعبت الدور الذي كان ينتظره منها الأمير إبراهيم، فحمت الدولة من أول انتفاضة قوية للجند. ومع هذا فقد استطاع عمران أن يحصل على تأييد معظم أهالي البلاد، حتى أنه تلقب بالأمير[42]. ولكن هذا الانضمام لم يكن صريحا وكاملا، لأن فقهاء القيروان الحذرين اختاروا أن يقفوا موقف الحياد بين الجانبين، رغم عدائهم المتزايد لإبراهيم ابن الأغلب، وكان من هؤلاء شقيق عمران، المدعو (أبو نجدة) يزيد بن مجالد[43]. وقد حاول عمران أن يكسبهم إلى جانبه، فطلب من ممثلهم الفقيه أسد بن الفرات، الالتحاق بصفوفه، وحاول أن يكرهه على ذلك، فرفض وهدد بإعلان رأيه الصريح في الفتنة علانية، وهو، أن مصير جميع المتحاربين بالمعسكرين القاتلين والمقتولين هو نار جهنم، فعدل عمران عن محاولته[44].

(40) ينظر: فتوح البلدان، ص235؛ وقارن، محمد الطالبي، ص167.

(41) الكامل في التاريخ: 6/ 236.

(42) أبو العرب، طبقات علماء إفريقية وتونس، تحقيق: علي الشابي ونعيم حسن اليافي، تونس، 1968، ص160.

(43) المصدر نفسه، ص160.

(44) الكامل في التاريخ: 6/ 236؛ الحلة السيراء، 1/ 105؛ ابن خلدون، العبر، 4/ 421.

وقد استمرت الحركة طوال عام كامل، راحت البلاد خلاله نهبا للفوضى والاضطراب. ولكن الوقت لم يكن لفائدة عمران ومؤيديه من الجند الذين كانت جيوبهم خاوية بعد شهور طويلة من القتال المضني دون أن يحققوا أية نتيجة إيجابية، لهذا، فقد كانوا مستعدين لتناسي أحقادهم وخصومتهم لقاء ما يكفيهم من أموال. وجاءت هذه الأموال إلى الأمير في الوقت المناسب من الخليفة في بغداد. وتشير إحدى الروايات أنها أُخذت من خراج مصر[45]. وقد أرسل ابن الأغلب ابنه عبد الله إلى طرابلس لاستلام المال، خشية أن يقع بيد خصومه، ثم قام باستعراض جيشه قرب أسوار القيروان، وأمر مناديه بدعوة كل من له اسم في ديوان أمير المؤمنين إلى الحضور لتسلم عطائه، ونجحت هذه الخطة نجاحا تاما. ففر قادة الجند ليلا وساروا إلى بلاد الزاب، وأسرع إبراهيم بدخول القيروان، التي عاقبها، فقلع أبوابها، وثلم أسوارها، حتى لا تعود مرة أخرى إلى التمرد. ثم ازداد اهتمامه بالعباسية، فأقطع أهل بيته ومواليه الإقطاعات داخل أسوارها، فأصبحت العاصمة الرسمية بدلا من القيروان. وفرض الأمير سلطته في نهاية الأمر، وجعل من مقر إقامته المحصنة مركزا سياسيا منيعا للإمارة[46].

وهكذا تخلصت الدولة الفتية من محنة كبيرة بفضل حكمة إبراهيم بن الأغلب وواقعيته، الذي فضل السياسة على القتال، حتى إنه لم يلاحق المتمردين الذين رحلوا إلى الزاب. وقد توفي إبراهيم في سنة 196هـ/ 812م وله من العمر ست وخمسون سنة، بعد حكم دام أكثر من اثني عشر عاما، وقد خلفه أبناؤه الذين أفادوا من جهوده في تأسيس الدولة الأغلبية، حيث ترك لهم إبراهيم إمارة متكاملة الأجزاء.

---

(45) البلاذري، فتوح البلدان، ص235.

(46) ينظر: النويري، نهاية الأرب، 22/القسم الثاني، ص66؛ ويقارن: الكامل في التاريخ، 6/ 156 ـ 157؛ وينظر أيضا: محمد الطالبي، الدولة الأغلبية، ص171.

جدول أمراء الأغالبة[47]

سالم بن عقال التميمي الأغلب

1 ـ إبراهيم الأول (184 ـ 196هـ/ 880 ـ 812م)

2 ـ أبو العباس عبد الله الأول (196 ـ 201هـ/ 812 ـ 817م).

3 ـ أبو محمد زيادة الله الأول (201 ـ 223هـ/ 817 ـ 838م).

4 ـ أبو عقال الأغلب (223 ـ 226هـ/ 838 ـ 841م).

5 ـ أبو العباس محمد الأول (223 ـ 242هـ/ 841 ـ 856م).

6 ـ أبو إبراهيم أحمد (226 ـ 249هـ/ 856 ـ 863م).

7 ـ زيادة الله الثاني (الأصغر) (242 ـ 250هـ/ 863 ـ 864م).

8 ـ أبو الغرانيق محمد الثاني (250 ـ 261هـ/ 864 ـ 875م).

9 ـ إبراهيم الثاني (261 ـ 289هـ/ 875 ـ 902م).

10 ـ أبو العباس عبدالله الثاني (289 ـ 290هـ/ 902 ـ 903م).

11 ـ أبو مضر زيادة الله الثالث (290 ـ 296هـ/ 903 ـ 909م).

علاقة الأغالبة بالخلافة العباسية:

إن التحول الذي تم في ولاية إفريقية سنة 184هـ/ 800م كان بمثابة عهد أُبرم بصورة رسمية بين بغداد والقيروان، واعترف فيه لإبراهيم بن الأغلب بلقب أمير وراثي له حق الإشراف الكامل، في حدود إمارته، على الإدارة المدنية والعسكرية، مقابل اعترافه بالسلطة العليا في بغداد. ولم يصحب هذا التحول أي تغيير في لقب «الأمير» حيث استمر إبراهيم الأول في التلقب به، وكذلك أولاده وأحفاده الذين تولوا الحكم من بعده.

وقد جرت العادة أن يرسل الخليفة العباسي بعهد البيعة إلى الأمراء

(47) ينظر: أحمد السعيد سليمان، تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، 1/ 48.

الأغالبة حتى يكتسب صفة الشرعية، ولكن انتقال السلطة من أمير إلى آخر في القيروان كان مسألة داخلية بحتة، لم تتدخل فيها الخلافة، ولم يكن لها من الوسائل التي تمكنها من التدخل لو أرادت. ولهذا فقد كان إرسال عهد البيعة عملا شكليا يقوم به الخليفة. فقد أشار ابن عذاري[48]، إلى أن الأمين «أقر» حال تسلمه الخلافة، إبراهيم بن الأغلب في منصبه، كذلك قام المأمون بنفس العمل إزاء عبدالله الأول. واستمر بقية الخلفاء في توجيه مثل هذا العهد بانتظام إلى القيروان.

ولكن ما هي صلة الأمير بالنسبة للخليفة، وما هي واجباته والتزاماته؟ لقد سبقت الإشارة إلى المبلغ الذي تعهد الأمير الأغلبي بتقديمه إلى بغداد، ومع هذا فقد تحتم على الخليفة الأمين أن يقدم مساعدة مالية سريعة للإمارة في أثناء قيام عصيان عمران بن مجالد[49]. ويبدو أن ما كانت تقدمه القيروان إلى الخلافة تحول بعد فترة وجيزة من الاستقلال إلى نوع من الهبة السخية التي هي رمز للولاء أكثر منها مساهمة مالية حقيقية لموازنة بيت مال الخلافة. وليست لدينا معلومات عن مدى انتظام مثل هذه الهبات. وجملة القول، لم يكن هناك خراج منتظم ولا التزامات مالية فعلية[50].

أما بالنسبة للالتزامات العسكرية، فهي أيضا غامضة، فعلى الرغم من توفر إشارات في المصادر إلى وجود حشود كبيرة من الجنود الأفارقة في بغداد، وأن هؤلاء قاموا بدور كبير في الحرب الأهلية التي قامت بين الأمين والمأمون[51]، وكذلك عن دور المغاربة في خلع وتنصيب بعض الخلفاء

(48) البيان المغرب، 1/ 94، 95.

(49) أشار ابن الأثير، وابن خلدون، إلى أن الخليفة الرشيد أرسل مالا إلى إبراهيم، ولكن وفاة الرشيد كانت قبل سنة من حركة عمران، لهذا فمن المحتمل جدا أن الأموال أرسلت في عهد الأمين، ينظر: الكامل في التاريخ، 6/ 156؛ العبر: 421؛ ويقارن محمد الطالبي، الدولة الأغلبية، ص170.

(50) ينظر: المرجع نفسه، ص358، 360.

(51) الكامل في التاريخ: 6/ 279، 282.

العباسيين[52]، لكن يحتمل أن هؤلاء جندوا مباشرة من قبل الخلافة، وربما اقتصر دور الأغالبة في ذلك على تسهيل عملية التجنيد[53].

وعلى صعيد العلاقات العامة بين الأغالبة والخلافة العباسية، فقد استمرت العلاقات الطيبة التي ابتدأت بين الرشيد وإبراهيم الأول طيلة عهد الأغالبة. فاتخذ الأغالبة اللون الأسود، الشعار الرسمي للعباسيين، ودافعوا عن راية الخلافة العباسية، سواء في داخل البلاد، حينما قضوا على الحركات المناوئة للخلافة كحركة خريش مثلا، أم في الخارج. فكانوا يقفون دائما إلى جانب الخلافة في ميدان السياسة الخارجية، فحينما حصل تقارب بين بغداد والدولة الميروفنجية، شارك الأغالبة مشاركة وثيقة في السياسة التي وضعها الرشيد بهذا الخصوص. واتخذوا إزاء الأمويين في الأندلس، والأدارسة، والرستميين، والبيزنطيين، نفس المواقف التي اتخذها العباسيون. كذلك عملوا بنفس السياسة الدينية التي سار عليها خلفاء بغداد، فقد اعتنق أمراؤهم مذهب الاعتزال، الذي أيده الخليفة المأمون. ولكن موقفهم تطور في نفس الاتجاه وبنفس السرعة المعمول بها في الشرق إزاء التحول عن هذا المذهب[54].

وكانت المراسلات بين الخلافة والأغالبة هي إحدى المظاهر التي تدل على مدى التآلف والانسجام بين الجانبين، فقد كان الرشيد يكاتب إبراهيم الأول باستمرار، وكذلك فعل إبراهيم[55]. واستمر الحال على هذا الوضع في عهد الأمراء الذين جاؤوا من بعد إبراهيم. فقد كتب المأمون إلى زيادة الله الأول يشكره على عدم اعترافه بإبراهيم المهدي، الذي ادعى الخلافة في

(52) المصدر نفسه، 7/ 168، 173، 174، 229.

(53) يقارن: محمد الطالبي، المرجع السابق، ص360.

(54) المرجع نفسه، ص386

(55) ينظر: الرقيق، ص235، 227؛ المالكي، رياض النفوس، تحقيق: حسين مؤنس، القاهرة، 1951، 1 / 152.

بغداد بعد مقتل الأمين[56]. ويحتمل أن تبادل الرسائل هذا تناقص مع مرور الأيام، لكنه لم ينقطع أبدا، وكان يزداد تواترا في أوقات الشدة والأزمات، لا سيما عند اقتراب خطر الفاطميين، ومحاولاتهم للقضاء على الأغالبة.

وقدمت بغداد خدمات أخرى للأغالبة، منها أنها كانت ملجأً يرجع إليه أمراء القيروان في الساعات الحرجة، لنفي أو حبس أحد أعدائهم السياسيين[57]. كما رحل إليها أيضا بعض أفراد الأسرة الحاكمة مثل، الأغلب ابن إبراهيم الأول، الذي تنازع مع أخيه زيادة الله، وفي ذلك بلا شك فائدة كبيرة للدولة، في مجال تحقيق الاستقرار الداخلي[58]. وكانت العلائق الطيبة بين بغداد والقيروان تسمح أيضا بالتزاور والاتصال. فعلى سبيل المثال، استقر أحد أبناء الخليفة المهتدي (255 ـ 256هـ/ 869 ـ 870م) المسمى عبد الوهاب، في بلاد القيروان، وتزوج من ابنة أخي الأمير إبراهيم الثاني[59].

وعندما حدثت الحرب الأهلية بين الأمين والمأمون، وقفت القيروان إلى جانب الأمين، وربما كان لموقف الأخير، الذي بادر رغم مصاعبه إلى إرسال مساعدة مالية لإبراهيم الأول، أثر في تعاطف القيروان معه. ولا ننسى في هذا المجال أيضا أن الأغالبة كانوا من العرب، وموقفهم هذا ينسجم مع الموقف الطبيعي للعرب في تأييد الأمين. وقد ساعدت القوة الإفريقية التي كانت في بغداد بقيادة محمد بن إبراهيم بن الأغلب، الأمين ووقفت إلى جانبه. كما عرض عليه هؤلاء محاولة الخروج والالتجاء إلى الشام.[60] وعلى الرغم من هذا الموقف، فقد حاول المأمون، بعد توليه الخلافة، أن يسير على سياسة الوفاق مع القيروان، فأرسل كتابا يقر فيه عبدالله الأول على

(56) الحلة السيراء، 1/ 166.

(57) المصدر نفسه : 1/ 107 ـ 108.

(58) ابن عذاري، 1/ 67؛ وينظر، ابن خلدون، العبر، 4/ 422.

(59) محمد الطالبي، الدولة الأغلبية، ص269.

(60) ينظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 3/ 911؛ الكامل في التاريخ، 6/ 282.

الإمارة بعد وفاة والده إبراهيم[61]. كذلك بادر بإرسال اعترافه بإمارة زيادة الله الأول حال توليه الحكم بعد وفاة أخيه عبدالله[62]. وكان هذا الإجراء ضروريا، لا سيما وأن زيادة الله لم يعترف بإبراهيم المهدي، الذي نصب خليفة في بغداد بعد مقتل الأمين، كما أشرنا إلى ذلك قبل قليل[63].

ويبدو أن المأمون قد حاول بعد ذلك أن يسترجع سلطة الخلافة وهيبتها على الولايات كافة، وذلك بسبب الحرب الأهلية ومخلفاتها. فكتب في نطاق هذه السياسة إلى زيادة الله أن يدعو في خطبة الجمعة إلى إضافة اسم المأمون باسم عبد الله بن طاهر بن الحسين، والي مصر، المشرف من الناحية النظرية على كل ولايات الغرب. فرد زيادة الله ردا قاسيا، تميز بالجرأة والغطرسة. وقابل الرسول الذي جاء بكتاب الخليفة وقال له: «قد علم أمير المؤمنين طاعتي له وطاعة آبائي لآبائه، وتقدم سلفي في دعوتهم، ثم يأمر الآن بالدعاء لعبد خزاعة؟ هذا والله أمر لا يكون أبدا، ثم مد يده إلى كيس إلى جانبه فيه ألف دينار فدفعه إلى الرسول ليوصله إلى المأمون، وكانت الدنانير مضروبة باسم إدريس الحسني، ليعلمه ما هو عليه من فتنة المغرب ومناضلة العلويين. . .»[64].

فذهب الرسول بهذه الرسالة، ولكن زيادة الله ندم بعد ذلك على هذا الرد القاسي، فحاول عبثا اللحاق بالرسول، ثم كتب كتابا آخر يتلطف فيه، ويعتذر عن لهجة الكتاب الأول. فوصل الكتابان إلى المأمون، فيروى أنه أهمل الكتاب الأول، وأجاب الثاني إجابة لطيفة. ولم يكن بمقدوره أن يفعل أكثر من ذلك، أو أن يبدي رد فعل آخر، إذ لا يمكنه التفكير في القيام

---

(61) ابن عذاري، 1/ 95.

(62) ابن خلدون، العبر: 4/ 422.

(63) ينظر: الحلة السيراء، 1/ 166.

(64) الحلة السيراء، 1/ 165 ـ 166؛ وينظر أيضا، النويري، نهاية الأرب، القسم الثاني: 22/ 72؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص17؛ ابن خلدون، العبر، 4/ 422.

بمغامرة في الغرب، وأمور الدولة كما هي عليه بعد الخروج من الفتنة والحرب الأهلية. ولا يمكن لسياسة التصلب أن تؤدي إلا لزيادة عدد الذين لا يعترفون بشرعية الخلافة العباسية، كالأمويين في الأندلس، والأدارسة في المغرب الأقصى، والرستميين في المغرب الأوسط. لذلك فقد كان بقاء الأغالبة في الفلك الروحي لخلافة بغداد يستحق بعض التنازلات، لأن العمل على إسقاطهم، على فرض إمكان حدوثه، كان يعني النزاع مع أناس خدموا الدولة العباسية منذ قيامها، وكانوا في جملتهم مخلصين لهم، كما أشار الأمير زيادة الله في كتابه إلى المأمون[65].

ويقال بأن الخليفة المعتصم قد راوده في آخر أيامه حلم العودة إلى المغرب «ليملك البلاد التي لم تدخل في فلك بني العباس لاستيلاء الأموي عليها. . .»[66]. ويبدو أن هذا الخبر لا يعدو أن يكون عبارة عن رغبة واضحة من الخلافة لتنفيذ مشروعها في العودة إلى الحدود الواسعة للدولة العربية الإسلامية التي كانت عليها في عهد الخلافة الأموية. وقد انشغلت الخلافة العباسية بعد وفاة المعتصم بمشاكلها الداخلية الخاصة، لا سيما في أثناء تسلط الأتراك على الخلافة. ولكن ظهور خطر الفاطميين، وعجز آخر أمراء الأغالبة، زيادة الله الثالث، أيقظ من جديد حلم الخلافة للتدخل المباشر. ومع هذا فإن جيوش الخليفة لم تتعد مصر، واقتصرت على إزالة حكم الطولونيين في عام 292هـ/ 905م. وقد اكتفى الخليفة العباسي آخر الأمر بتقديم التأييد الأدبي للأمير الأغلبي، الذي نجح أيضا في نيل ثقة الخليفة بفضل الهدايا والهبات[67].

---

(65) ينظر: محمد الطالبي، الدولة الأغلبية، ص375.

(66) السيوطي، تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، 1964، ص 336 ـ 337.

(67) محمد الطالبي، المرجع السابق، ص376.

علاقة الأغالبة بالإمارة الأموية في الأندلس:

حكمت العلاقات بين الأغالبة والأمويين في الأندلس نفس المبادئ العامة التي وجهت دائما السياسة الخارجية الأغلبية، أي أنها اندرجت ضمن النزاع الكامن بين العباسيين والأمويين. ونظرا لبعد المسافة بين الأغالبة والأندلس، فقد اقتصرت العلاقات على تحفظ معاد على صعيد السياسة الرسمية[68]. ولكن من جهة أخرى، فقد استغل بعض المتمردين في الأندلس، هذه السياسة، وتوجهوا بأنظارهم إلى الأغالبة، فأظهر عمر بن حفصون، أحد كبار المتمردين، الميل إلى دعوة العباسيين، وكاتب الأمير الأغلبي إبراهيم بن أحمد (إبراهيم الثاني) ولاطفه بالهدايا، وكلّفه بالحصول على ضمان بني العباس للقيام على الأمويين في الأندلس، وقد أجابه الأمير الأغلبي، وكافأه على هداياه، وطمع فيه[69]. ولكن دعم الأغالبة لم يتعد هذه التشجيعات الرخيصة، والتأييد الشفوي، ولم يتحول أبداً إلى التدخل العسكري المباشر، وذلك على الرغم من إصدار المتمردين لعدد من القطع النقدية المنقوش عليها شعار (غ ل ب) أي شعار الأغالبة الذي ميَّز عملتهم الرسمية[70].

وعلى الرغم من العداء الرسمي نجد قيام نوع من التعاون بين المقاتلين الأفارقة والأندلسيين في صقلية. حيث يُفهم من الروايات العربية أن الأندلسيين وصلوا في أوائل سنة 215هـ/ 830م إلى صقلية على دفعتين في ثلاثمئة مركب، وأن الدفعة الأولى كانت بقيادة أصبغ بن وكيل المعروف

(68) المرجع نفسه، ص413، 414.

(69) ينظر: ابن حيان، المقتبس، نشر: ملشور انطونيه، باريس، 1937، ص93؛ ويقارن: أمين توفيق الطيبي، دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، الدار العربية للكتاب تونس، 1984، ص128.

(70) See: G. Miles, The Coinage of the Umayyads of Spain, New-York, 1958, pp. 48, 230-231.

بـ«فرغلوش»، بينما كانت الدفعة الثانية بقيادة سليمان بن عافية الطرطوشي. وقد اشترك هؤلاء مع الجيش الأغلبي، وساعدوا في فك حصار الجيش في ميناو.[71] ومما يذكر أن هؤلاء الأندلسيين خرجوا من بلادهم يريدون الجهاد في البحر المتوسط، فدفعتهم الريح إلى صقلية، حيث شاركوا إخوانهم الأفارقة الذين كانوا منهمكين في عملية افتتاح صقلية، بقيادة القائد عثمان بن قرهب[72]، وهكذا وحد الجهاد بين رعايا الدولتين، على الرغم من الخصومة والنزاع الذي كان سائدا بين حكامهما.

أما على صعيد العلاقات الاقتصادية والبشرية والثقافية، فلم تكن هناك أية قطيعة بين القيروان وقرطبة، أو غيرهما من عواصم المغرب العربي. وظلت عاصمة الأغالبة بالنسبة لجميع الحواضر المغربية الأخرى التي اختلفت عنها في نظمها السياسية والدينية، المرحلة التي لا بد من المرور بها لغرض التوجه إلى المشرق. فكان يمر عن طريق القيروان، منتوجات الصناعة، والفكر، والطلبة، والرحلات العلمية المتبادلة بين الأندلس والمشرق[73].

اهتمام الأغالبة بإنشاء الأسطول ونشاطهم في البحر المتوسط:

كانت ولاية إفريقية تشكل قوة برية فقط منذ إنشاء مدينة القيروان سنة

---

(71) ابن عذاري، 1/ 104؛ الكامل في التاريخ: 6/ 337.

(72) الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، 1975، ص429.

(73) ينظر: عبد الواحد ذنون طه، أهمية الرحلات العلمية بين المشرق والأندلس، بحث منشور ضمن كتاب «دراسات أندلسية» الموصل، 1986، ص207.

(74) ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، نشر: شارلس توري، نيوهيفن، 1920، ص189 ـ 190؛ الكندي، الولاة والقضاة، بيروت، 1908، ص13؛ الكامل في التاريخ، 2/ 117 ـ 118؛ الطبري: 1/ 2867، وما بعدها، 2927.

(75) Cf. P. Sebag "Les Trevaux maritimes de Hassan Ibn Nu'man", Institute de Belles Letters Arabes, XXXIII, 1970, p.55.

50هـ/ 670م. ولكن بعد قيام الوالي حسان بن النعمان الغساني ببناء السفن التي كانت تنتجها دار الصناعة في تونس، فقد أُختير لهذه المدينة مكانٌ حصينٌ جدا، فهي تقع على بحيرة تتصل بواسطة برزخ بالبحر المتوسط. فقطع حسان البرزخ، وبنى المدينة بالقرب من البحيرة. ولغرض توفير الأيدي العاملة المتخصصة لبناء السفن طلب حسان من الخليفة عبد الملك أن يرسل له عمالا أقباطاً من مصر، ولبى الخليفة طلبه، فوصلت البلاد ألف أسرة قبطية، وبدأت بمهمة بناء الأسطول العربي في إفريقية[74]. وبعد بناء هذه القوة العربية الجديدة، أصبح عرب إفريقية يجوبون البحر المتوسط، ويعترضون سفن البيزنطيين، ويغيرون على سواحلهم في جزر البحر، لا سيما صقلية، وسردانية، وكورسيكا ولكن هذا لا يمنع أن يكون العرب قد قاموا بعمليات بحرية قبل بناء هذه القاعدة، وما معركة ذات الصواري التي انتصر فيها العرب على البيزنطيين عام 34هـ/ 654 ـ 655م في شرقي البحر المتوسط، سوى مثال بسيط على ذلك[75].

وقد تطورت بحرية تونس الإفريقية بمرور الزمن، حيث استكملت في عهود الولاة الذين جاءوا بعد حسان، من أمثال موسى بن نصير، وعبيد الله ابن الحجاب، فأصبحت على جانب كبير من القوة[76]. وقامت بعمليات كثيرة على جزر الحوض الغربي من البحر المتوسط، لا سيما صقلية. وقد منحت إفريقية قاعدة جيدة للعرب، فاستخدموها استخداما كاملا، وقاموا في خلال نصف قرن (من 84هـ/ 703م ـ 135هـ/ 752م) بما لا يقل عن عشرين عملية بحرية ناجحة[77]. ولكن الحملات البحرية توقفت بعد هذا التاريخ لما يقرب من نصف قرن أيضا، أي إلى أوائل عهد الأغالبة في تونس، وذلك بسبب انشغال الولاة في المغرب بالفتن والاضطرابات. فأمن البيزنطيون في صقلية، وقاموا بأعمار الجزيرة من جميع الجهات، وبنوا فيها الحصون

(76) ينظر: محمد الطالبي، الدولة الأغلبية، ص422، 424.

(77) الكامل في التاريخ، 5/ 456؛ ويقارن: عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي: 2/ 195.

والمعاقل. كما قاموا بتخصيص مراكب تطوف بالجزيرة، تشابه ما يعرف اليوم بدوريات الحراسة، للدفاع عن السواحل. والاستيلاء على السفن التجارية للمسلمين. وبهذه الوسيلة جمع أسطولهم بين الدفاع عن الجزيرة، وقطع خطوط الملاحة العربية[78].

وفي خلال هذه الحقبة قام العرب في إفريقية بحركة واسعة لإنشاء الرُبط في السواحل للتخلص من الغارات المفاجئة للبيزنطيين، ويعد رباط المنستير من أقدم الرُبط في إفريقية. وقد أُنشأ بناء على أمر الوالي العباسي هرثمة بن أعين سنة 180هـ/ 796م. وكان عبارة عن حصن كبير كثير المساجد والمساكن والأبنية العالية المتكونة من طبقات يعلو بعضها الآخر، وله ميناء تشحن فيه السفن التي تحمل الملح من المناطق المجاورة، كما كان يوجد بالقرب منه خمسة محارس متقنة البناء، معمورة بالصالحين المرابطين من أجل الجهاد[79].

وعندما جاء الأغالبة توسعوا في عملية بناء الرُبط التي كانت تسمى أيضا بالقصور والمحارس. ويشير اليعقوبي إلى هذه الأماكن المحصنة بقوله: «ومن اسفاقس إلى موضع يقال له بنزرت مسيرة ثمانية أيام وفي جميع المراحل حصون متقاربة ينزلها العبَّاد والمرابطون»[80]. وقد استفاد الأغالبة من الحصون والأبراج البيزنطية القديمة التي كانت منتشرة على الساحل واستخدموها في أغراضهم الدفاعية، يضاف إلى ذلك مجموعة الربط أو المحارس التي كانت حول المدن الساحلية الهامة، مثل صفاقس، وسوسة، وبنزرت، والتي ما زالت باقية حتى اليوم. وقد أشار البكري إلى بعض هذه

(78) ينظر: البكري، ص37 ـ 39؛ الرقيق، ص65 ـ 66؛ المالكي، 1/ 37؛ ياقوت، معجم البلدان، بيروت، 1957، 2/ 61 ـ 62.

(79) ينظر: البكري، ص36، 84.

(80) كتاب البلدان، منشور مع كتاب الأعلاق النفيسة لابن رستة، ليدن، 1892، ص350.

المحارس القريبة من صفاقس، ومنها محرس بطوية، ومحرس الريحانة[81].

وعلى صعيد الحملات البحرية والاهتمام بالأسطول العربي في عهد الأغالبة، ابتدأ خلفاء إبراهيم بن الأغلب القيام بنشاط بحري ملحوظ، حيث شرع عبدالله بن إبراهيم، ومن بعده زيادة الله الأول في بناء أسطول قوي. فبالإضافة إلى دار صناعة السفن في تونس، أنشا دار أخرى في مدينة سوسة، حيث عمل فيها فتيان زيادة الله الأول من السود في بناء السفن اللازمة للأسطول العربي، وقد ضاق المكان في هذه الدار، لا سيما في أثناء التهيؤ لافتتاح صقلية، حتى إن العاملين اضطروا إلى استخدام مقبرة سوسة، وهدموا ما فيها من قبور لتوسيع دار الصناعة، ووضع المراكب التي كانوا يقومون بإنشائها[82].

وتمت عدة حملات بحرية في عهد زيادة الله الأول قبل القيام بعملية فتح صقلية، ففي سنة 201هـ/ 816م أُرسلت مراكب كثيرة إلى جزيرة سردانية. ولكن هذه الحملة لم تنجح تماما بسبب عطب بعض مراكبها وإصابة قسم من رجالها، مما دعا الأمير إلى مكافأة من رجع منهم سالما[83]. كما أشار ابن الأبار إلى حملة أخرى أُرسلت إلى صقلية من قبل زيادة الله سنة 204هـ/ 819م بقيادة أحد أقاربه المدعو محمد بن عبد الله بن الأغلب، وذلك قبل افتتاح الجزيرة سنة 212هـ/ 827م بنحو ثمان سنين[84]. وأُرسلت حملة أخرى بعد سنتين، أي في 206هـ/ 821 ـ 822م، وكانت وجهتها سردانية، لكنها لم

(81) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص19 ـ 20؛ ويقارن: أحمد مختار العبادي، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، الإسكندرية، 1968، ص291 ـ 292.

(82) ينظر: المالكي، رياض النفوس: 1/ 400.

(83) الكامل في التاريخ: 6/ 329.

(84) الحلة السيراء: 1/ 181، وقد اختلف المؤرخون المحدثون بشأن هذه الحملة، فمنهم من يستبعد وقوعها، مثل محمد الطالبي، الدولة الأغلبية، ص420، ومنهم من يأخذ بها. ينظر: عزيز أحمد، تاريخ صقلية الإسلامية، تعريب، أمين توفيق الطيبي، الدار العربية للكتاب، ليبيا ـ تونس، 1980، ص12.

تكلل بالنجاح الكامل، لغرق سفن عديدة في طريق العودة[85].

وهكذا وبفضل هذه الحملات المتكررة، تعرَّف العرب في إفريقية على جزر البحر المتوسط، مثل صقلية، وسردانية، وكورسيكا. وأصبحت هذه الجزر الهدف المباشر للقوة البحرية العربية التي نمت وترعرعت، وأصبحت على أشد ما تكون من قوة في عهد الأغالبة، الذين أحسنوا استخدامها في سبيل تعزيز السيادة العربية على البحر المتوسط، ونشر لواء العروبة والإسلام على منطقة الجزر الغربية لهذا البحر. وما فتح صقلية الذي يعود الفضل فيه إلى الأغالبة إلا ثمرة طيبة ناضجة، لاهتمامهم بالأسطول، وتنميتهم للقوة البحرية وحمايتهم للسواحل والثغور.

فتح صقلية وأهميته:

توجهت أنظار العرب إلى صقلية بسبب موقعها الجغرافي الممتاز في البحر المتوسط، فهي تربط بين السواحل الأوربية وسواحل شمال إفريقيا، لا سيما بلاد تونس الحالية. وصقلية هي امتداد جغرافي لشبه جزيرة إيطاليا، التي تمتد من وسط أوربا جنوبا إلى قلب البحر المتوسط، وهي ولهذا أقرب إلى سواحل إيطاليا الجنوبية، حيث لا يفصلها عنها سوى مضيق مسينة Messina. ولا يتجاوز اتساع هذا المضيق في أضيق جهاته سوى ميلين، أو ثلاث كيلومترات تقريبا، وقد عرفه العرب أيضا باسم مجاز الفارو، أي مجاز المنار، نسبة إلى ضوء نار البركان القريب، الذي كان يستضاء به في السفر ليلا في البر والبحر على السواء[86].

---

(85) الكامل في التاريخ، 6/ 379؛ ابن عذاري، 1/ 97.

(86) ياقوت، معجم البلدان: 3/ 416؛ ابن جبير، رحلة ابن جبير، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1981، ص263؛ ميخائيل أماري، المكتبة العربية الصقلية، نصوص في التاريخ والبلدان والتراجم والمراجع، ليبسك، 1857، أعادت طبعها بالأوفست مكتبة المثنى بغداد، ص78، 83، وينظر أيضا: المسعودي، التنبيه والإشراف (في: المكتبة الصقلية) ص2.

أما عن المسافة بين جنوبي صقلية وبين أقرب سواحل إفريقية إليها، وهي شبه جزيرة شريك في شمال تونس، فتصل إلى مئة وعشرين كيلومترا. وكانت تُقطع، حسبما يقول ياقوت، في مدة يومين بالريح الطيبة(87). وتوجد بين صقلية وبين سواحل إفريقية بعض الجزر الصغيرة، منها جزيرة قوصرة، بين ساحل مدينة المهدية والركن الجنوبي الغربي لصقلية حيث مدينة مازر. وتعرف قوصرة في الوقت الحاضر باسم جزيرة بنطلارية، وتبعد عن مازر نحو مئة كيلومترا(88). وهكذا كانت جزيرة صقلية، بفضل موقعها المتوسط بين إيطاليا وإفريقية، وبفضل الجزر الصغيرة التي تربط بينهما، معبرا طبيعيا بين السواحل الأوربية والسواحل الإفريقية، على مر العصور التاريخية(89).

وقد أدرك العرب أهمية هذا الموقع الجغرافي والعسكري الممتاز لجزيرة في وسط البحر المتوسط، فضلا عن غناها من حيث الثروة الحيوانية والزراعية والمعدنية. ويشير الجغرافيون والرحالة العرب إلى هذه الأهمية والغنى، فيقول الاصطخري، إن بهذه الجزيرة من الخصب والزروع والمواشي والرقيق ما يفضل عن سائر البلاد الإسلامية المتاخمة للبحر(90). أما ابن حوقل الذي زار الجزيرة بنفسه سنة 362هـ/ 972 ـ 973م، فيذكر أن جميع أرضها مسكونة ومزروعة(91). وقد رسم الإدريسي خريطتها وبيّن مدنها وقراها، ووصفها بقوله: «إن جزيرة صقلية فريدة الزمان فضلا ومحاسن، ووحيدة البلدان طيبا ومساكن، وقديما دخلها المتجولون من ساير الأقطار، والمترددون بين المدن والأمصار، وكلهم أجمعوا على تفضيلها، وشرف

(87) معجم البلدان: 3/ 416.

(88) المصدر نفسه، 4/ 413؛ البكري، جغرافية الأندلس وأوربا من كتاب المسالك والممالك، تحقيق: عبد الرحمن علي الحجي، دار الإرشاد، بيروت، 1968، ص226.

(89) ينظر: عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، 2/ 199.

(90) المسالك والممالك، المكتبة الصقلية، ص3.

(91) صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1979، ص113.

مقدارها، وأُعجبوا بزاهر حسنها، ونطقوا بفضائل ما بها...»[92]. أما ابن جبير، فيذكر بأن خصب صقلية أكثر من أن يوصف، وشبهها على أنها ابنة الأندلس في سعة العمران وكثرة الخصب والرفاهية[93]. وقد أشار ياقوت إلى أنها كثيرة المواشي والحيوانات الأليفة والوحشية، وأن بها جميع الفواكه على اختلاف أنواعها، وأن كلأها لا ينقطع صيفا وشتاء[94].

ونظرا لموقع الجزيرة الجغرافي في منتصف البحر المتوسط، وأنها كانت أشبه بمعبر بين إفريقيا وأوربا، فقد طرأ على تكوينها البشري الكثير من التغيير والتبديل، فجاء إليها الفينيقيون منذ القدم، وكذلك اليونان، والقرطاجيين، ثم الرومان، وقبائل الجرمان، والقوط، وأخيرا البيزنطيين، الذين انتزعوها من أيدي القوط في حدود سنة 535م، في عهد الإمبراطور جستنيان Justinian[95].

أوضاع صقلية في ظل الحكم البيزنطي:

حكم البيزنطيون صقلية مئتين واثنين وتسعين عاما، منذ استيلاء القائد بلزاريوس عليها سنة 535م، إلى أن افتتحت من قبل الأغالبة عام 212هـ/827م. ولم تكن الأحوال العامة فيها جيدة في ظل الحكم البيزنطي. فقد كره الشعب الصقلي هذا الحكم، ورغب بالخروج عن سلطة الإمبراطورية البيزنطية، لما كانوا يدفعونه من ضرائب باهضة، وما يلاقونه من مصادرات لممتلكاتهم بالقوة، فضلا عن التعسف الذي كان يلاقيه الصقليون من قبل حكامهم البيزنطيين[96]. ولم تكن الإمبراطورية البيزنطية هي المستغل الوحيد

---

(92) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، المكتبة الصقلية، ص25.

(93) رحلة ابن جبير، ص266، المكتبة الصقلية، ص82.

(94) معجم البلدان: 3/ 417.

(95) ينظر: إحسان عباس، العرب في صقلية، دار الثقافة، بيروت، ص25، ويقارن: عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، 2/ 208.

(96) Cambridge Medieval History, Cambridge, 1964, VOL. II,p.20-21.

لصقلية، بل كانت الكنيسة تشاركها النفوذ والسلطان لكثرة أملاكها في الجزيرة. فكان لكنيسة روما Rome وميلان Milano ورافنا Ravenna، وغيرها من المدن الإيطالية إقطاعات كثيرة حول مدن سرقوسة وقطانية وميلاص وبلرم. ويعمل في هذه الإقطاعات فلاحون يسمون بالكولونيين Coloni، وهم أشبه ما يكونون بالعبيد من حيث ارتباطاتهم بالأرض ودفعهم للضرائب. وكان عدد هؤلاء كبير جدا، ولم تعمل الكنيسة، أو البابوات على إصلاح حالهم، أو تحريرهم. واستمر الرهبان في تملك الأراضي والمزارع، حتى يقال بأنهم كانوا يملكون نحو نصف الجزيرة[97].

لم يكن المجتمع الصقلي في ظل الحكم البيزنطي إذا سعيدا، بل كانت الجزيرة تضم خليطا من الأجناس، أهم عناصره الإغريق، والإيطاليين، إلى جانب جماعات أخرى من اليهود المنكمشين على أنفسهم، ولكنهم لم يكونوا كثيري العدد[98]. وقد أضافت السلطة إلى هذه الأجناس بعض المنفيين، حيث كانت تعتبر صقلية منفى للمذنبين والمجرمين، والجنود الخارجين على القانون. وكانت الخرافات تسيطر على حياة تلك الأجناس، حتى مزجها الناس بالدين، فعبدوا القديسين والشهداء. وجملة القول إن صقلية البيزنطية كانت قبيل الفتح العربي الإسلامي، قد فقدت شخصيتها ومقومات الحياة العمرانية فيها. كما اختنق فيها كل شعور بالرفعة الإنسانية، وبلغت درجة واطئة جدا من الانحطاط في كل مجالات الحياة[99]. ويؤكد

---

(97) Scott, History of the Moorish Impire in Europe, Philadelphia-London, 1904, VOL.II, p.6.; Amari, Storia de Musulmani di Sicilia, VOL. I.p. 124-125, 328.
نقلا عن: تقي الدين عارف الدوري، صقلية، علاقاتها بدول البحر المتوسط الإسلامية، دار الرشيد للنشر، بغداد، 1980، ص41 ـ 42.

(98) Amari, Storia de Musulmani di Sicilia, VOL, I, p. 3214. نقلا عن: إحسان عباس، العرب في صقلية، ص29.

(99) ينظر: المرجع السابق، ص21؛ محمد الطالبي، الدولة الأغلبية، ص453.

الجغرافي العربي ياقوت الحموي هذه الحقيقة[100]، فيشير إلى أن صقلية كانت قليلة العمارة، خاملة قبل الإسلام، فلما حرر العرب المسلمون بلاد المغرب، هرب بعض أهل أفريقية إليها، فأقاموا بها، وحاولوا إعمارها، وأحسنوا في ذلك، حتى افتتحت أيام الأغالبة. وهذا يدل على الصلة الوثيقة بين إفريقية وصقلية في أثناء دخول العرب إلى المغرب، كما يدل أيضا على سهولة الانتقال والعبور بين الجانبين.

العلاقات بين صقلية والأغالبة قبل الفتح:

تطلبت ظروف إبراهيم بن الأغلب الداخلية أن يتبع سياسة سلمية مع البيزنطيين، لانشغاله في تثبيت أركان دولته الفتية، ومحاولته لتخليصها من الأخطار الخارجية، وتأمين التجارة العربية في سواحل إفريقية، ودفع خطر الأدارسة في المغرب الأقصى، لا سيما بعد مبايعة إدريس الثاني سنة 187هـ/ 803م. لهذا فقد توصل إلى عقد هدنة مع قسطنطين بطريق صقلية البيزنطي سنة 189هـ/ 805م، أمدها عشر سنوات. ولم تشر المصادر العربية إلى هذه الهدنة التي التزم بها الجانبان، كما لم تسجل أية غارة بينهما حتى وفاة إبراهيم الأول[101].

وقد واصل ابن الأمير إبراهيم وخلفه، أبو العباس عبد الله الأول (196 ـ 201هـ/ 812 ـ 817م) نفس سياسة والده إزاء البيزنطيين في صقلية، فجدد الهدنة، التي أشرفت على النهاية، مع بطريق صقلية جريجوري، في تاريخ لم يذكر في مصادرنا. ويرى الدكتور محمد الطالبي، أن هذه الهدنة أبرمت

---

(100) معجم البلدان: 3/ 417.

(101) ينظر: فازيليف، العرب والروم، ترجمة: محمد عبد الهادي شعيرة، مطبعة الاعتماد، مصر، بدون تاريخ، ص64؛ ارشيبالد لويس، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط (5400 ـ 1100م)، ترجمة: أحمد محمد عيسى، نشر: مكتبة النهضة المصرية مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة، بدون تاريخ، ص165، 176؛ مورينو، المسلمون في صقلية، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1957، ص7 ؛ Amari, op. Cit., VOL.I.p. 353، نقلا عن: تقي الدوري، صقلية، ص32.

في نهاية حكم عبدالله الأول بن إبراهيم، وظلت نافذة المفعول حتى سنة 212هـ/ 827م[102]. ومن أجل أن يتخلص الأمير من معارضة الفقهاء في القيروان لهذه المعاهدة، أشركهم في إبرامها، حيث جاء في كتاب الهدنة على لسان أحد هؤلاء الفقهاء، وهو سليمان بن عمران، الذي تولى قضاء القيروان فيما بعد: قال: «كنت حضرت في أيام أبي العباس بن الأغلب في هدنة صقلية، وقد جمع شيوخ القيروان ووجوههم، وكنت فيمن حضر، فكتب بين يديه كتاب الهدنة، وقرئ على جماعة الناس، وكان فيه : إن من دخل اليهم من المسلمين وأراد أن يردوه إلى المسلمين كان ذلك عليهم»[103].

وكما يبدو، كفلت هذه الهدنة حرية التجارة، حيث أخذت بنظر الاعتبار سلامة التجار العرب في صقلية، والتجار البيزنطيين في إفريقية[104]. ولكن على الرغم من هذه الهدنة، فقد كان للأغالبة دوافع عديدة للتحول عن هذه السياسة، لا سيما وأنهم علموا بخرق البيزنطيين لأحد بنودها، وأنهم يحتجزون بعض الأسرى المسلمين في صقلية، الأمر الذي دفعهم إلى التفكير جديا في القيام بعملية عسكرية غايتها افتتاح الجزيرة وضمها نهائيا إلى دولتهم في إفريقية.

أسباب فتح الأغالبة لصقلية:

أ ـ الأسباب الخارجية

1. كان زيادة الله قد قرر انتهاج سياسة بحرية قوية غرضها تضييق الخناق

---

(102) الدولة الأغلبية، ص 439، 440، وهو يعارض بهذا رأي كل من Amari، وفازيليف، ينظر هامش (268) من المرجع نفسه، ص440.

(103) المالكي، رياض النفوس، 1/ 186.

(104) يقارن: عزيز أحمد، تاريخ صقلية الإسلامية، ص12؛ محمد الطالبي، الدولة الأغلبية، ص440، تقي الدوري، صقلية، ص33.

على الأسطول البيزنطي. ولما كانت صقلية تمثل أحد مراكز هذا الأسطول، الذي ظل يهدد السواحل العربية لحقبة طويلة من الزمن، لا سيما في أوقات انشغال العرب في مشاكلهم الداخلية، فقد قرر زيادة الله توجيه ضربة قوية لهذا الأسطول بمحاولة السيطرة على قاعدته في صقلية، لأنها اتخذت قاعدة للهجوم على العرب. وكان آخر هجوم تتعرض له السواحل العربية من صقلية قد تم في السنة التي سبقت الفتح (أي سنة 211هـ/ 826م)، حيث تعرضت إفريقية لهجمة بحرية قامت بالنهب وأسر التجار. وكان يقود هذه الغزوة قائد تدعوه المصادر العربية باسم فيمي Euphemius، الذي سيكون له دور كبير في عملية فتح الجزيرة فيما بعد[105]. يضاف إلى ذلك فإن السيطرة على الجزيرة كان يعني الهيمنة على القسم الأوسط من البحر المتوسط، وهذا معناه التمكن من أحد مفاتيح البحر المتوسط المهمة، والتحكم فيه، والسيطرة على مواصلاته، ووقف سيادة البيزنطيين على النشاط التجاري فيه، وإزالة الخطر عن التجارة العربية في موانئ ومدن الساحل المغربي[106].

2. ويعزو أحد المستشرقين السبب في انتهاج الأغالبة لهذه السياسة البحرية، والاتجاه إلى افتتاح صقلية، إلى أنهم لم يتمكنوا أن يحرزوا نجاحا في التقدم شرقا أو غربا، أي إنهم لم يستطيعوا السيطرة على برقة ومصر، وبقية المغرب[107]. وهذا صحيح، حيث كانت مصر تحكم مباشرة من قبل الدولة العباسية، أما في الغرب، فلم يستطع الأغالبة أن يحققوا أي تقدم يذكر، لسيطرة الرستميين على المغرب

(105) ينظر: المرجع السابق، ص37.

(106) الكامل في التاريخ، 6/ 334.

(107) Vonderhyden, La Barberi Orientale sous La Dynastie des Benou L-Arlab,800-909,Paris,1927,p.280-281.

نقلا عن تقي الدوري، المرجع السابق، ص34.

الأوسط، والأدارسة على المغرب الأقصى.

3. كانت صقلية ملجأً لاعداء العرب من البيزنطيين الذين هربوا في أثناء التحرير العربي للمغرب، واستقروا في الجزيرة، وعملوا على إعمارها، والاستعداد للوثوب منها على إفريقية. وقد ذكرنا إشارة ياقوت الحموي إلى هؤلاء سابقا. وهذا شجع الأغالبة على التفكير جديا في افتتاح الجزيرة، بعد أن تيسرت لهم القوة البحرية الكافية لذلك.

4. وكان للظروف السياسية التي تمر فيها الإمبراطورية البيزنطية آنذاك، أثر في تشجيع الأغالبة على فتح صقلية، فقد حدثت ثورة توماس الصقلي في آسيا الصغرى سنة 206هـ/ 821م، مما اضطر الإمبراطور ميخائيل الثاني (205 ـ 214هـ/ 820 ـ 829م) إلى سحب جيوشه من صقلية وبقية أطراف الإمبراطورية، لدفع الخطر عن العاصمة. وعلى الرغم من القضاء على هذه الثورة سنة 209هـ/ 824م، لكن البيزنطيون عانوا من نتائجها السلبية على إمبراطوريتهم[108]. يضاف إلى ذلك أنهم خسروا في سنة 212هـ/ 827م جزيرة كريت (أقريطش) التي استطاع مهاجروا الأندلس من افتتاحها بقيادة أبي حفص عمر بن عيسى البلوطي. وهؤلاء هم بقايا الربضيين المنفيين من الأندلس، الذين تمردوا على الحكم الأول بن هشام سنة 202هـ/ 818م[109]. وقد أدت هاتان الحادثتان إلى

---

(108) ينظر: فازيليف، العرب والروم، ص66، 70؛ اومان، الإمبراطورية البيزنطية، تعريب: مصطفى طه بدر، مطبعة الاعتماد، مصر، 1953، ص162، تقي الدوري، صقلية، ص39.

(109) ينظر: ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، مدريد، 1926، ص51 ـ 52؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثالث الخاص بالأندلس، نشر: ليفي بروفنسال، بيروت، 1956، ص16؛ المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق، إحسان عباس، بيروت، 1968، 1/ 339؛ أحمد العدوي، الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم، القاهرة، 1958، ص107 ـ 110. وعن كريت تحت ظل الأندلسيين ينظر: د. أسمت غنيم، الإمبراطورية البيزنطية وكريت الإسلامية، جدة، 1977، خليل إبراهيم السامرائي، إمارة كريت الأندلسية، مجلة الجامعة، الموصل، أيلول، 1978.

ضعف الدولة البيزنطية، وقلة قدرتها على الدفاع عن صقلية، حيث اغتنم القائد فيمي (اوفيموس) هذه الظروف وتمرد في صقلية، لأنه كان يرمي إلى الاستقلال عن الإمبراطورية البيزنطية. ومما زاد في ضعف الأسطول البيزنطي في صقلية أيضا، أن هذا القائد أسلم القسم الذي كان تحت سيطرته للأغالبة بعد فشل تمرده، مما شجعهم على تنفيذ عملية الفتح[110].

ب ـ الأسباب الداخلية:

1. كان لعامل الجهاد في سبيل الله أثر واضح في التحريض على افتتاح صقلية، حيث كان أهل إفريقية قد تفقهوا في الدين، وأصبح منهم العلماء والفقهاء، لا سيما أولئك الذين كرسوا حياتهم في الرُبط على السواحل للجهاد ضد البيزنطيين. ولهذا فان الخروج في حملة لافتتاح صقلية كان من أعظم ما يتمناه هؤلاء. ومما يؤكد هذا الأمر، اختيار الفقيه أسد بن فرات، قاضي القيروان، قائدا لهذه الحملة، فهو يعبر أصدق تعبير عن روح الجهاد التي سيطرت على الفاتحين. فقد ولاه زيادة الله «على الجيش وأقره على القضاء مع القيادة، فخرج معه أشراف إفريقية من العرب، والجند، والبربر، والأندلسيين، وأهل العلم والبصائر»[111].

2. يضاف إلى ذلك، أن زيادة الله أراد أن يظهر أمام أهل إفريقية بمظهر المجاهد في سبيل الله ليسكب قلوبهم، ويعزز مكانته في نفوسهم[112].

(110) ينظر: الكامل في التاريخ، 6/ 334؛ فازيليف، العرب والروم، ص70، 72؛ لويس، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، ص170؛ مورينو، المسلمون في صقلية، ص8؛ تقي الدوري، ص40.

(111) ابن عذاري، البيان المغرب، 1/ 103.

(112) يقارن: السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، ط2 الإسكندرية، 1982، ص301.

وكان للمهاجرين الأندلسيين إلى المغرب، وهم من بقايا الربضيين الذين أشرنا إليهم قبل قليل، والذين استقروا في إفريقية، دور كبير في فتح صقلية، لأنهم شكلوا أحد عناصر الجيش الفاتح، حسب ما أشار ابن عذاري إلى ذلك[113]. وربما كان وجودهم في المغرب، واستعدادهم للاشتراك في الفتح والجهاد سببا في إقدام الأغالبة على التوجه إلى صقلية.

3. وقد أشار عدد كبير من المؤرخين المحدثين إلى أن عدم الاستقرار الذي شهدته معظم ولايات إفريقية، بسبب اضطراب جند الأغالبة، يمكن أن يكون من الأسباب التي دعت الأمير زيادة الله إلى توجيه نشاط جنده ورعاياه إلى الجهاد في سبيل الله لافتتاح صقلية، بدلا من انشغالهم في الفتن والاضطرابات فيما بينهم.[114] وربما كان هذا الأمر صحيحا، ولكن لا يمكن الركون إليه كثيرا، لأن عدم الاستقرار كان موجودا أيضا في الحقبة التي سبقت حكم زيادة الله، ولم يحاول إبراهيم بن الأغلب أن يمتص هذا التوتر بتوجيه الجند إلى فتوحات خارجية، لأن الظروف في عهده لم تكن تسمح بذلك. ولكن الظروف تغيرت في عهد زيادة الله، من حيث ازدياد القوة البحرية العربية نتيجة لتطور صناعة السفن ودور الصناعة في كل من تونس وسوسة، وظهور عوامل خارجية مشجعة، لا سيما التغييرات التي حصلت في السياسة الصقلية بالذات، وتمرد فيمي أو أوفيموس على بطريق صقلية البيزنطي، واستنجاده بزيادة الله الأغلبي، فكان هذا الحادث هو السبب المباشر للفتح.

(113) البيان المغرب، 1/ 103، ويقارن: تقي الدوري، المرجع السابق، ص41.

(114) ينظر: جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، 2/ 69؛ عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، 2/ 210؛ تقي الدوري، صقلية، ص34 ـ 35، والمراجع المذكورة في هامش (1) ص35.

السبب المباشر للفتح:

ترجع الروايات البيزنطية السبب في الصراع الذي حدث بين قائد الأسطول أوفيميوس وبطريق الجزيرة قسطنطين إلى قصة مفادها أن أوفيميوس أحب راهبة اسمها هومونيزا Homoniza، وتزوجها على كره منها، ومن أهلها. وعندما بلغ ذلك مسامع الإمبراطور ميخائيل الثاني، أمر بالتحقيق في الأمر، ومعاقبة اوفيموس في حالة ثبوت التهمة بجدع أنفه(115). فثار الأخير بمساندة وحدات الأسطول التابعة له، واحتل مدينة سرقوسة Siracusa، وهزم قسطنطين الذي أُسر وأُعدم. واتخذ اوفيمويوس نفسه ملكا، وأعلن الاستقلال عن الإمبراطورية، وعهد إلى أتباعه بحكم ولايات الجزيرة. وكان من هؤلاء قائد أرمني اسمه بلاطة، لم يلبث أن طمع في ملك الجزيرة، فقام على اوفيميوس، وأعلن ولاءه للإمبراطور ميخائيل الثاني. ثم تحالف مع ابن عم له، الذي كان حاكما على مدينة بلرم، فنجح الاثنان في هزيمة اوفيميوس، وانتزاع العاصمة سرقوسة من بين يديه. وهنا لم يجد اوفيميوس ملجأً إلا الاتصال بالأمير الأغلبي زيادة الله للتدخل والمساعدة(116).

ويبدو أن حكاية زواج اوفيميوس الأسطورية هذه، ما هي إلا ذريعة اتخذتها السلطات البيزنطية للتخلص من هذا القائد الطموح، وأن الأسباب الحقيقية لقيامه على السلطة تكمن في الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية للجزيرة بشكل خاص، والإمبراطورية عامة(117). ولعل النجاح الذي أحرزه العرب في انتزاع جزيرة كريت (اقريطش) من البيزنطيين، قد أوحى إلى اوفيميوس القيام هو الآخر على الإمبراطور، وانتزاع صقلية

(115) فازيليف، العرب والروم، ص67 ـ 68؛ عزيز أحمد، تاريخ صقلية الإسلامية، ص13؛ وينظر، تقي الدوري، صقلية، ص44.

(116) الكامل في التاريخ، 6/ 334؛ النويري، نهاية الأرب (المكتبة الصقلية، ص427)؛ ابن خلدون، العبر، (المكتبة الصقلية، ص466).

(117) ينظر: فازيليف، العرب والروم، ص70؛ مورينو، المسلمون في صقلية، ص8.

لنفسه[118]. وعلى أي حال فقد كان اوفيميوس طموحا في الميدان السياسي، وكان يمارس قيادة عسكرية هامة قبل أن يقوم بتمرده، فكان كما وصفه ابن الأثير: «حازما شجاعا»[119]، مارس نفوذا كبيرا على رجاله، نظرا لانتصاراته، وخبرته القتالية في إفريقيا. فأراد أن يجرب حظه في الانسلاخ عن جسم الإمبراطورية، ورفع راية التمرد عليها، ولكنه لم ينجح بسبب تفكك العصبة التي كان يرأسها بعد النصر، وصار معاونوه القدامى منافسين له. مما أدى إلى هزيمته، واضطراره للفرار.

ولدى وصول اوفيميوس إلى إفريقية، طلب مساعدة الأغالبة، وهوّن على الأمير زيادة الله أمر فتح صقلية[120]، ووعده بملك الجزيرة[121]. ولا تشير المصادر العربية إلى غير هذا الشرط، لكن المصادر الأوربية ذكرت شروطا أخرى، مفادها أن يتم فتح الجزيرة بجيوش الأغالبة، وأن يحكمها اوفيميوس بلقب إمبراطور، ويدفع جزية للأمير الأغلبي، إذا اعترف الأخير به، وأمده بمساعدة عسكرية، أو أن يكون زيادة الله بمثابة إمبراطور للجزيرة وينوب عنه اوفيميوس في حكمها[122].

لقد سبقت الإشارة إلى وجود هدنة نافذة المفعول بين الأغالبة وصقلية، ويتضمن أحد بنودها، على أن من أراد من أسرى المسلمين أن يعود من صقلية فعلى البيزنطيين أن يردوه، وقد أخبر اوفيميوس زيادة الله

(118) يقارن: عزيز أحمد، تاريخ صقلية الإسلامية، ص13.

(119) الكامل في التاريخ، 6/ 334؛ وينظر أيضا: ابن خلدون: العبر (المكتبة الصقلية، ص466).

(120) معجم البلدان، 3/ 417.

(121) الكامل في التاريخ، 6/ 335.

(122) ينظر: Scott, History of the Moorish Empire, VOL. II. P.10.؛ فازيليف، العرب والروم، ص71؛ مورينو، المسلمون في صقلية، ص8؛ وينظر: أيضا: عزيز أحمد، تاريخ صقلية الإسلامية، ص13؛ محمد الطالبي، الدولة الأغلبية، ص440؛ تقي الدوري، ص46 ـ 47.

بوجود أسرى من المسلمين في صقلية، خلاف نص المعاهدة، وأكد هذا الأمر، رسل بطريق صقلية، الذين جاءوا إلى إفريقية بعد لجوء اوفيميوس[123]. لذلك فقد جمع زيادة الله وجوه أهل القيروان وفقهاءها للنظر في أمر الصلح المبرم مع صقلية، واطلاعهم على موضوع اوفيميوس وطلبه لتدخل الأغالبة عسكريا في الجزيرة. وقد انقسم الناس إلى فريقين، الأول: أقلية متريثة لا ترى القيام بعمل عسكري، ولا تشير به، وكان القاضي محمد ابن عبد الله الكناني المعروف بأبي محرز (ت سنة 214هـ/ 829 ـ 830م)[124]على رأس هؤلاء، حيث كان من رأيه التأني وجمع معلومات أكثر، والتأكد فعلا من نقض البيزنطيين لمعاهدة الصلح. أما الفريق الثاني، فقد كان متحمسا للقتال والتدخل في صقلية، باعتبار أن هذه الفرصة يجب أن لا تفوت للجهاد في سبيل الله، وإعزاز دينه. وقد تزعم القاضي أسد بن الفرات (ت 213هـ/ 828م)[125]، هذا الفريق، وقدم حلا لمشكلة المعاهدة، حيث اعتبر اوفيميوس وجماعته بمثابة سفراء يمكن قبول شهادتهم في أمر الأسرى، فقال: «بالرسل هادناهم وبالرسل نجعلهم ناقضين»[126]، واستند أيضا إلى نص الآية الكريمة: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾[127]. فاقتنع الأمير زيادة الله، وتحلل من الهدنة، وأصدر أمره بالتهيؤ لعملية الفتح[128].

(123) المالكي، رياض النفوس، 1/ 186.

(124) ينظر عنه: أبو العرب، طبقات علماء إفريقية وتونس، ص166 ـ 167؛ المالكي، رياض النفوس، 1/ 189 ـ 196.

(125) ينظر: أبو العرب، المصدر السابق، ص163 ـ 166، المالكي؛ المصدر السابق، 1/ 186 ـ 187؛ الحلة السيراء، 2/ 380 ـ 381.

(126) الحلة السيراء، 1/ 186.

(127) سورة محمد، الآية 35.

(128) المالكي: 1/ 186 ـ 187؛ وينظر أيضا: محمد بن محمد الأندلسي، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1984: 1/ 734.

تنفيذ عملية الفتح:

أسند زيادة الله قيادة الحملة إلى أسد بن الفرات، الذي كان على علمه وفقهه معدودا بين الشجعان. وقد أُقر على القضاء بالإضافة إلى القيادة، وتمت الاستعدادات للحملة، حيث هيئت السفن في دار صناعة سوسة[129]، وجهزت بكل ما تحتاج إليه، حتى خرجت بعدة كاملة[130]. وقد نظم حفل كبير عند ركوب أسد وجيشه للبحر، حيث أمر زيادة الله جميع وجوه دولته بمصاحبة الحملة من القيروان إلى سوسة في موكب عظيم[131]. وأقلع الأسطول الأغلبي من مرسى سوسة في يوم السبت، النصف من شهر ربيع الأول سنة 212هـ/ 14 حزيران 827م، وكان يتألف من نحو مئة مركب، سوى مراكب اوفيميوس. أما رجال الحملة، فقد بلغ عددهم نحو سبعمئة فارس بخيلهم، وعشرة آلاف راجل[132]. وكان هؤلاء يتألفون من عناصر عديدة، أهمهم العرب، الذين أشار اليهم ابن عذاري، على أنهم أشراف إفريقية، والجند، الذين يقصد بهم عسكر الأمير وفتيانه من الصقالبة والسود، والبربر، وهم من السكان المحليين في شمال إفريقيا، لا سيما من هوراة في طرابلس ونفزاوة، ومن قبائل الزاب، مثل كتامة، وكذلك من الأندلسيين، وهم الذين لجاءوا إلى شمال إفريقيا بعد هيجة الربض في قرطبة سنة 202هـ/ 818م، ومنهم أيضا كثير من أهل العلم والبصائر، الذين ساهموا في الحملة بقصد الجهاد.[133]

(129) المصدر نفسه: 1/ 186 ـ 187.

(130) البكري، جغرافية الأندلس وأوربا من كتاب المسالك والممالك، ص220.

(131) المالكي: 1/ 187؛ ابن عذاري، 1/ 102.

(132) اختلف المؤرخون في الأعداد التي رافقت الحملة، كما اختلفوا أيضا في نسبة الفرسان إلى المشاة، ينظر: المالكي: 1/ 187؛ معجم البلدان، 3/ 417؛ الحلة السيراء، 2/ 381؛ النويري (في المكتبة الصقلية، ص428).

(133) ينظر: البيان المغرب: 1/ 102؛ ويقارن: البكري، جغرافية الأندلس وأوربا، ص220؛ عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، 2/ 217 ـ 218.

وصلت الحملة إلى مازر (مازرة Mazara) بعد ثلاثة أيام من إقلاعها. وقد أُختير هذا الساحل للنزول، لأنه يعد أقرب سواحل الجزيرة إلى إفريقية، وأنه كان بعيدا عن مركز الثقل البيزنطي في الشرق، حيث تتواجد القواعد القوية، مثل سرقوسة، وقطانيا Catania، وطبرمين Tabrmina، كما أن مدينة مازر نفسها كانت بعيدة عن الساحل بعدة أميال[134].

معركة مرج بلاطة Palates:

بقيت الحملة في مازر ثلاثة أيام، للتعرف على المنطقة وبث السرايا فيها، ومعرفة أخبار القائد بلاطة، الذي سيطر على الجزيرة بعد طرد اوفيميوس، فعلم أسد بن الفرات عن طريق عيونه، ورجال اوفيميوس، الذي عسكر بالقرب من الجيش العربي، أن بلاطة قد تحصن في بعض قلاعه بمرج يدعى باسمه (مرج بلاطة) في منتصف الطريق بين مازر وبلرم. فسار إليه، ولما بلغ هذا المكان، طلب من اوفيميوس وجنده، عدم التدخل في القتال، ورفع شارة مميزة، تجنبا لكل خطإ يمكن أن يحصل في أثناء الالتحام، فوضعوا بعض الحشائش وأغصان الأشجار على رؤوسهم للتمويه.[135] ودارت المعركة بين الطرفين، حيث كانت قوات بلاطة تتفوق من الناحية العددية على المسلمين، لكن استبسال هؤلاء، وموقف أسد القيادي الشجاع، وحثه للجند على القتال، أدى إلى هزيمة بلاطة، وفراره إلى معقل قصريانة Castrogiovanni، ومنه توجه إلى قلورية Calabra حيث قتل هناك[136].

وتعد هذه المعركة التي تمت في 17 ربيع الثاني 212هـ/ 15 تموز 827م

(134) يراجع: عبد الحميد، المرجع السابق، 2/ 218.

(135) المالكي، 1/ 188، معجم البلدان، 3/ 417.

(136) الكامل في التاريخ، 6/ 335؛ النويري (في المكتبة الصقلية، ص428)؛ ابن خلدون، العبر (في المكتبة الصقلية، ص466).

على درجة كبيرة من الأهمية العسكرية، إذ فقد فيها العدو البيزنطي عددا كبيرا من أفراده، بينما حصل العرب على غنائم كثيرة ساعدت على تقوية عزيمتهم في الجزيرة[137]، وقد عدَّ الأغالبة هذا الانتصار فتحا للجزيرة، فكتب الأمير زيادة الله يبشر الخليفة المأمون بانتصار أسد بن الفرات، وافتتاح صقلية على يديه[138].

التوجه إلى سرقوسة:

رجع أسد بن الفرات إلى قاعدة الجيش الأغلبي القتالية في مازر، حيث ولى عليها أحد قادته، وهو أبو زكي الكناني، ثم اتجه إلى سرقوسة عاصمة صقلية من أقرب الطرق وأكثرها أمانا، أي الطريق الرومانية، القديمة المحاذية للساحل الجنوبي للجزيرة. وقبل أن يصل إلى العاصمة، اجتمع به بعض ممثلي البيزنطيين من سرقوسة، وعرضوا عليه أن يدفعوا الجزية، ولكن كان ذلك حيلة منهم لوقفه عن التقدم ريثما يستكملون استعداداتهم وتحصين المعاقل والقلاع، ونقل كنوز الكنائس إلى أماكن آمنة. وقد أدرك القائد أسد ابن الفرات بعد عدة أيام أنهم خدعوه، فعاد إلى الهجوم، وبث السرايا في المنطقة لجمع الغنائم، ثم تهيأ لمحاصرة المدينة[139].

كانت سرقوسة مدينة منيعة جدا، وتتمتع بتحصينات قوية، ولم يكن مع أسد بن الفرات سوى ثمانية أو تسعة آلاف رجل، بسبب المعارك التي خاضها، والحاميات التي تركها في المواقع التي سيطر عليها في الطريق. يضاف إلى ذلك، لم تتوفر لديه آلات الحصار، ولا المراكب الكبيرة الضرورية التي تساعد في الاستيلاء على هذه المدينة الحصينة. ومن جهة أخرى، عمد أهل المدينة وحاميتها إلى نقل كل المواد الغذائية والمواشي من

---

(137) ينظر: ابن عذاري، 1/ 102.

(138) المالكي، 1/ 188.

(139) ينظر: الكامل في التاريخ، 6/ 335؛ النويري، (في المكتبة الصقلية، ص428).

المنطقة القريبة من تحصيناتهم، مما اضطر الجيش العربي إلى أكل لحوم خيوله، وقد تناقصت معنويات الجند، حتى طالب أحدهم بترك الحصار، والعودة إلى إفريقية، مما اضطر أسد بن الفرات إلى معاقبته بالجلد، حتى يعود الهدوء إلى نصابه[140].

ووصلت في هذه الأثناء إمدادات من إفريقية[141]، ومن الأندلس أيضا[142]، وكان هؤلاء الأندلسيون على الأغلب من المتطوعين القادمين للجهاد من سواحل الأندلس، أو من كريت، ولا علاقة لهم بالموقف الرسمي للدولة الأموية في الأندلس، التي لم يكن لها أي دافع لتأييد المشروع الأغلبي في فتح الجزيرة، ناهيك عن المساهمة فيه. كذلك تلقى البيزنطيون المحصورين في سرقوسة تعزيزات بعث بها الإمبراطور ميخائيل الثاني، الذي نجح أيضا في إقناع رئيس البندقية للمساهمة في أسطوله ضد الحملة العربية في صقلية[143]. ويذكر ابن الأثير، أن والي بلرم حاول فك الحصار عن سرقوسة بجيش كبير، فتصدى له المسلمون، واستطاعوا أن يكبدوه خسائر كبيرة[144]. واعتدَّ أسد بن فرات ورجاله بهذا النصر، وشددوا الحصار على سرقوسة وأحرقوا الأسطول الذي قدم لنجدتها[145]. ونتيجة للضغط الذي تعرضت له المدينة، ولطول مدة الحصار التي دامت نحوا من عام، طلب أهلها عقد هدنة، والتفاوض من أجل رفع الحصار، وقد مال أسد بن الفرات إلى ذلك، لكن جيشه رفض هذا الأمر، وأراد مواصلة

(140) المالكي، 1/ 189.

(141) الكامل في التاريخ، 6/ 335؛ ابن خلدون: العبر، (في المكتبة الصقلية، ص467).

(142) ابن عذاري، 1/ 103؛ النويري، (في المكتبة الصقلية، ص249)؛ وينظر أيضا: الحميري، الروض المعطار، 366.

(143) فازيليف، العرب والروم، ص78؛ عزيز أحمد، تاريخ صقلية الإسلامية، ص15.

(144) الكامل في التاريخ: 6/ 335.

(145) ينظر: ابن عذاري، 1/ 103.

القتال،[146] وبات وضع أهل المدينة حرجا، إلا أنه، لحسن حظهم، تفشى وباء في المعسكر العربي، توفي فيه عدد كبير من المسلمين، من ضمنهم أسد بن الفرات، سنة 213هـ/ 828م[147].

مصير الحملة بعد وفاة أسد بن الفرات:

حرمت الحملة من قائد شجاع نزيه، واستمر تفشي الوباء في صفوف الجند، مما هيّأ الفرصة للرهائن البيزنطيين في المعسكر للفرار. وقد اجتمع قادة الجند، وانتخبوا واحدا منهم ليخلف أسد، وهو محمد بن أبي الجواري[148]. وفي هذه الأثناء وصلت إمدادات جديدة إلى البيزنطيين من القسطنطينية والبندقية[149]، فلما رأى العرب ذلك إضافة إلى اشتداد الوباء بين صفوفهم، عزموا على رفع الحصار عن سرقوسة والرجوع إلى إفريقية، بسبب استحالة إنجاز الفتح. ولكن الأسطول البيزنطي حاصرهم أمام مرسى المدينة الكبير، ومنعهم من المرور، فعادوا إلى الساحل، وأحرقوا مراكبهم حتى لا تقع بأيدي الأعداء، وساروا باتجاه داخل الجزيرة، ومعهم اوفيميوس، حيث افتتحوا حصن ميناو Mineo الذي يبعد مسافة يوم واحد باتجاه الشمال الغربي من سرقوسة[150]. ثم استولوا على حصن آخر يدعى جرجنت Girgenti وسكنوا فيه. وقد قوى هذا النصر معنوياتهم، لهذا تركوا حامية ميناو، وتوجهوا مع اوفيميوس إلى قصريانة، التي تعرف اليوم باسم Enna[151]، وهي من أعظم معاقل الجزيرة التي تتمتع بمناعة طبيعية.

---

(146) النويري (في المكتبة الصقلية، ص429).

(147) البكري، جغرافية الأندلس وأوربا، ص2290؛ الكامل في التاريخ، 6/ 335 ـ 336؛ ابن عذاري، 1/ 104؛ النويري، (في المكتبة الصقلية، ص429). وهو يشير إلى وفاة القاضي أسد بن الفرات نتيجة المرض.

(148) ابن عذاري، 1/ 104.

(149) النويري، (في المكتبة الصقلية، ص429)؛ فازيليف، العرب والروم، ص79.

(150) الكامل في التاريخ، 6/ 336؛ النويري، (في المكتبة الصقلية، ص429).

(151) ينظر: محمد الطالبي، الدولة الأغلبية، ص469.

وفي هذه المدينة اغتيل اوفيميوس من قبل السكان الذين تظاهروا بخلع طاعة البيزنطيين، والاعتراف به إمبراطورا عليهم، وذلك عندما كان يقوم بالتفاوض معهم باسم العرب.[152] ثم تعرض العرب إلى هجمات البطريق البيزنطي ثودط Theodote خارج أسوار قصريانة، فصدوه وإلجأوه إلى دخول المدينة التي ضربوا عليها الحصار. وقد توفي في هذه الأثناء القائد محمد بن أبي الجواري (سنة 214هـ/ 829م)، وتم اختيار قائد آخر، هو زهير بن غوث. وكان هذا أقل حظا من سلفه، حيث هزم من قبل القائد ثودط، وخسر عددا كبيرا من رجاله، واضطر العرب إلى حفر خندق حول معسكرهم لحماية أنفسهم. ثم قرروا الانسحاب إلى ميناو مرة أخرى، حيث حاصرهم الأعداء، وواجهتم مجاعة، وقلّت عندهم المواد الغذائية، حتى اضطروا إلى أكل لحوم دوابهم. ونظرا لعدم تمكن حامية جرجنت من عمل شيء للمحصورين في ميناو، فقد هدموا الحصن، واتجهوا إلى مازر، خوفا من بقائهم وحدهم في الحصن، وهم قلة. وهكذا، وبعد نحو سنتين من نزول الحملة بمازر لم تستطع تسجيل أي نصر حاسم، ولم يبق في أيدي العرب سوى حصني ميناو، ومازر الواقعين في جانبين متقابلين من الجزيرة. وكان الاتصال مقطوعا بين هاتين القاعدتين، بسبب خطورة الطرق، ووجود البيزنطيين فيها[153].

وفي هذه الظروف الحرجة التي أصبح فيها فتح الجزيرة مهددا من الناحية العملية بالفشل، وبات مصير المتبقين من أفراد الحملة هو الهلاك لا محالة، برز عامل مهم لم يكن بالحسبان، يتلخص في وصول إمدادات من إفريقية، ومن الأندلس أيضا، وذلك في بداية سنة 215هـ/ 830م. وكان الأندلسيون قد خرجوا من ميناء طرطوشة، ولم يكونوا من الجند النظامي، بل من المتطوعين المجاهدين، الذين اتخذوا عمليات التصدي للسفن

(152) الكامل في التاريخ، 6/ 336؛ النويري (في المكتبة الصقلية، ص429).

(153) الكامل في التاريخ، 6/ 337؛ ابن خلدون، العبر (في المكتبة الصقلية، ص467 ـ 468).

المعادية في البحر طريقا لهم في الحياة. وقد دفعتهم الريح المعاكسة إلى النزول في ميناء طرابنش Trapant(154). وتشير الروايات العربية، إلى أن هؤلاء الأندلسيين وصلوا صقلية على دفعتين في نحو ثلاثمئة مركب، وكانت الدفعة الأولى بقيادة أصبغ بن وكيل الهواري، الملقب بفرغلوش، بينما كانت الدفعة الثانية بقيادة سليمان بن عافية الطرطوشي(155).

ولما بلغ العرب المحصورين في الجزيرة خبر وصول هؤلاء الأندلسيين، استغاثوا بهم، فأجابوهم إلى ذلك، وانضموا إلى جيش الأغالبة، على أن يكون أصبغ الهواري قائدا للجميع. وقد سار الأندلسيون إلى ميناو لنجدة المحصورين فيها، فهرب الجيش البيزنطي بقيادة ثودط إلى قصريانة، وتحصن فيها. وبعد رفع الحصار عن ميناو، سار الجميع، بعد أن أحرقوا هذا الحصن، إلى بلدة غلوالية أو غَلْيانَة Gagliano، ففتحوها. ثم انتشر الوباء في جيش المسلمين، وتوفي فيه القائد أصبغ الهواري، مما اضطرهم إلى الانسحاب إلى طرابنش. فاستغل بطريق صقلية ثودط هذه الفرصة، وحاول مهاجمتهم، فكرّوا عليه وحاربوه، وتمكنوا من قتله والانتصار على جيشه. ويشير ابن عذاري إلى عودة معظم الأندلسيين إلى بلادهم بعد تعرضهم للوباء وخسارتهم لعدد كبير من الرجال(156). وقد بقي بعضهم في صقلية، وانضموا إلى عرب إفريقية، حيث وافقوا على الانضواء تحت قيادة القائد الاغلبي عثمان بن قرهب(157).

وسار الجميع إلى مدينة بلرم Palermo التي تقع في الساحل الشمالي للجزيرة، وضربوا عليها الحصار لمدة عام كامل، اضطر حاكمها بعد ذلك

(154) الحميري، الروض المعطار، ص429.

(155) ينظر: النويري، (في المكتبة الصقلية، ص430)؛ ويقارن: الكامل في التاريخ، 6/337؛ ابن عذاري، 1/104؛ ابن خلدون، العبر، (في المكتبة الصقلية، ص468).

(156) البيان المغرب: 1/104.

(157) الكامل في التاريخ، 3/337؛ الروض المعطار، ص429.

إلى طلب الأمان، وتسليم المدينة في 30 رجب سنة 216هـ/ 12 أيلول 831م[158]. وهكذا أصبح للعرب موطئ قدم واسع في الجزيرة، بحيث مكّنهم من المضي في افتتاح بقية أجزائها. وقد اتخذوا بلرم عاصمة لهم، واستقروا فيها، ولم يعودوا بحاجة إلى الانحياز إلى المعسكرات أو القلاع الصغيرة. وكانت هذه المدينة تقع في ناحية غنية، ولها ميناء جيد يوفر الاتصال الميسور بالشاطئ الإفريقي، الأمر الذي يضمن للعرب الحصول على المؤن والإمدادات الدائمة من إفريقية. ولذلك فقد اتخذها المسلمون قاعدة لهم، وأخذوا يزحفون منها على بقية النواحي الأخرى من صقلية. وأخذت السرايا تخرج كل يوم، فتغير على المدن والقلاع المجاورة، وترجع محملة بالغنائم والأسرى. ولهذا فقد ضعفت روح المقاومة عند سكان هذه المدن والقلاع، وطلبوا الأمان من المسلمين[159].

توطيد الفتح في عهد ولاة الأغالبة:

ولى زيادة الله ابن عم له على صقلية، وهو أبو فهر محمد بن عبدالله ابن الأغلب، وذلك بعد نحو خمسة أشهر من افتتاح مدينة بلرم. ويبدو أن هذه التولية جاءت نتيجة لخشية الأغالبة من وقوع الجزيرة بيد المجاهدين الأندلسيين، وضمها إلى الدولة الأموية في الأندلس، أو تكوين إمارة مستقلة فيها، كما حدث في جزيرة كريت. وقد أراد الأغالبة أيضا تعزيز ارتباط صقلية بالدولة الأغلبية في أفريقية[160].

أرسل أبو فهر عدة حملات ضد المواقع البيزنطية في الجزيرة، لا سيما

(158) الكامل في التاريخ، 6/ 337؛ الروض المعطار، ص429؛ النويري (في المكتبة الصقلية، ص430 ـ 431).

(159) الكامل في التاريخ، 6/ 449؛ ويقارن، فازيليف، العرب والروم، ص118؛ لويس القوى البحرية، ص213، إحسان عباس، العرب في صقلية، ص35، تقي الدوري، صقلية، ص61.

(160) ينظر: عزيز أحمد، تاريخ صقلية الإسلامية، ص17.

قصريانة، وطبرمين، وسرقوسة، كما قام خلفه في الولاية، أبو الأغلب إبراهيم بن عبد الله (تولى سنة 222هـ/ 837م) بعدة حملات برية وبحرية على المواقع البيزنطية. وكان قد جاء معه بأسطول كبير، استعمله في هذه العمليات. ولكن العرب في صقلية وهنوا، بعد سماعهم بنبأ وفاة الأمير زيادة الله سنة 223هـ/ 838م، وذلك خشية أن يغير خَلَفَه، أبو عقال الأغلب (221 ـ 226هـ/ 838 ـ 841م) سياسته في الفتح، غير أنهم ما لبثوا أن استعادوا تماسكهم وضبطهم لأنفسهم، واستأنفوا نشاطهم السابق[161].

ثم نقلوا هذا النشاط في سنة 228هـ/ 843م إلى شرق الجزيرة، حيث سار الأسطول الأغلبي من بلرم، بقيادة الفضل بن جعفر الهمداني إلى مرسى مسيني، وأحاط به، ثم عقد اتفاقا مع مدينة نابولي في جنوب إيطاليا، التي طلبت الأمان، وساعدت قواتها العرب في الاستيلاء على مسيني[162]. وكانت هذه المدينة قاعدة بحرية هامة تشرف على المضيق الذي يفصل بين صقلية وجنوب ايطاليا[163]. فانفتح أمامهم الطريق إلى أوربا، وأصبحوا يسيطرون على مضيق مسيني. ولما كانوا قد سيطروا فعلا على البحر بين صقلية وإفريقية، لذا أصبح في مقدورهم بعد ذلك الحيلولة دون دخول الأسطول البيزنطي إلى غربي البحر المتوسط. ويعد فتح الأغالبة لمسيني خطوة أساسية في فتح الجزيرة بعد بلرم، إذ ثبتوا أقدامهم في أهم المواقع السوقية. فقد هيمنوا على غربها أولا، ثم سيطروا على الميناء الرئيس في شمالها الشرقي[164].

استمر العرب في تثبيت وجودهم في صقلية طيلة ولاية أبي الأغلب

---

(161) الكامل في التاريخ، 6/ 338 ـ 340.

(162) المصدر نفسه، 7/ 5.

(163) لويس، القوى البحرية، ص214.

(164) يقارن، عبد الحميد، تاريخ المغرب الإسلامي، 2/ 243؛ عزيز أحمد، تاريخ صقلية الإسلامية، ص19؛ تقي الدوري، صقلية، ص64.

إبراهيم بن عبدالله، التي استمرت نحو ست عشرة سنة، حيث توفي في سنة 236هـ/ 851م. وقد اجتمع قادة الجيش بعد وفاته، واختاروا قائدا عسكريا، هو العباس بن الفضل بن يعقوب، وكتبوا بذلك إلى أمير إفريقية، محمد بن الأغلب (223 ـ 242هـ/ 841 ـ 856م) الذي أقر العباس على ولاية صقلية[165]. وقد استطاع العرب بقيادة هذا الوالي الشجاع أن يحققوا أهدافا كبيرة في الجزيرة على طريق إنهاء النفوذ البيزنطي، فشنوا سلسلة من الحملات القوية على معقل قصريانة الحصين، وتمكنوا من السيطرة عليه في عام 244هـ/ 858م. وقد أصبحت مدينة قصريانة من أهم مدن العرب في الجزيرة[166].

وكان رد الفعل البيزنطي قويا لدى الإمبراطور ميخائيل الثالث، الذي أرسل في السنة التالية أسطولا كبيرا يتألف من ثلاثمائة مركب في محاولة للتصدي للعرب واسترجاع المدينة. وقد نزل الجيش المحمول على هذا الأسطول في ميناء سرقوسة. ولما علم به العباس بن الفضل، سبقه إلى القتال، ومزقه ممزّق، كما استولى على مئة مركب من هذا الأسطول. وبعد ذلك صرف هذا الوالي جهده لإسكان المسلمين في قصريانة، وتحصينها، وشحنها بالجنود، لتكون ملجأً لهم مقابل ملجأ البيزنطيين القوي في سرقوسة[167]. وقد اقتصرت ممتلكات البيزنطيين في الجزيرة على الساحل الشرقي فقط حول هذه المدينة، وبعض الجهات الداخلية. واستطاع العرب خلال هذه المرحلة أن يسيطروا على ثلثي الجزيرة[168].

وبعد نحو عشرين سنة من سقوط قصريانة، نجح العرب في السيطرة

(165) الكامل في التاريخ، 7/ 60؛ ابن عذاري : 1/ 111.

(166) الكامل في التاريخ، 7/ 62 ـ 63؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص113 ـ 114؛ النويري، (في المكتبة الصقلية، ص432 ـ 433).

(167) الكامل في التاريخ، 7/ 63.

(168) لويس، القوى البحرية، ص217؛ تقي الدوري، صقلية، ص67.

على أهم قواعد البيزنطيين في الجزيرة، وهي مدينة سرقوسة. وكان أسد بن الفرات يدرك أهميتها منذ بداية حملته على صقلية، وقد حاول فعلا أن يستولي عليها، لكنه لم ينجح في ذلك. واستطاع العرب بعد نحو خمسين سنة من محاولة أسد، أن يدخلوا هذه القاعدة الحصينة، وذلك في عهد الوالي جعفر بن محمد، الذي تابع الحملات عليها، وحاصرها برا وبحرا لمدة تسعة اشهر، ثم دخلها عنوة في رمضان سنة 264هـ/ أيار 878م[169]. وبسقوط سرقوسة أوشك الفتح العربي لصقلية على الاكتمال، باستثناء طبرمين وقطانية، وبعض المناطق الأخرى في شرق الجزيرة.

استكمال فتح الجزيرة في عهد الأمير إبراهيم الثاني:

لم يستطع العرب أن يحققوا تقدما في الفتح بعد سرقوسة إلا بعد نحو خمس وعشرين سنة، وذلك بسبب اضطراب الشؤون الداخلية، وكثرة الفتن والتمردات التي واجهها الولاة في الجزيرة[170]. ومع هذا فقد حدثت اشتباكات كثيرة بين العرب والبيزنطيين، لكنها لم تؤد إلى نتيجة حاسمة حتى ولاية أبي العباس عبدالله بن الأمير إبراهيم الثاني سنة 287هـ/ 900م، الذي شن حملات عديدة على كل من طرابنش، وطبرمين، وقطانية، وجنوب إيطاليا. وقد بقي في الجزيرة حتى سنة 289هـ/ 902م، حيث استدعاه والده إلى إفريقية، وتنازل له عن الإمارة، وحل محله في قيادة الفتح في صقلية[171]. ويبدو أن الأمير إبراهيم بن أحمد (الثاني) 261 ـ 289هـ/ 875 ـ 902م، قرز الخروج إلى الجزيرة في جهاد واسع النطاق. وقد نجح فعلا في الاستيلاء على طبرمين في شعبان 289هـ/ آب 902م. ثم انتقل إلى إخضاع

(169) الكامل في التاريخ، 7/ 320؛ ابن عذاري: 1/ 117؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص116.

(170) انظر: ابن عذاري: 1/ 117، 120، 130 ـ 131، أعمال الأعلام، ص116، 117، 119.

(171) الكامل في التاريخ : 7/ 507، ويقارن: محمد الطالبي، الدولة الأغلبية، ص570 فما بعدها.

بقية الأجزاء الشرقية من الجزيرة في إقليم دمنش Val Demone. كما قام بالعبور إلى مقاطعة قلورية في جنوب ايطاليا، وتوفي هناك، وهو يحاصر مدينة كستنة Cosenza[172]. وبافتتاح مدينة طبرمين أصبحت صقلية بأسرها بيد العرب المسلمين. وكان وقع هذا الانتصار كبيرا على البيزنطيين، حتى أن الإمبراطور ليون السادس (886 ـ 912م/ 273 ـ 300هـ) حزن عليها حزنا عظيما، وامتنع عن لبس التاج مدة سبعة أيام قائلا: «لا يلبس التاج محزون»[173].

استغرق افتتاح جزيرة صقلية نحو ثلاثة أرباع القرن، وهذه حقبة طويلة جدا إذا ما قورنت بفتح الأندلس مثلا، حيث استطاع المسلمون أن يبسطوا نفوذهم على شبه الجزيرة الآيبيرية في أقل من خمس سنوات. ويعود السبب في هذا الاختلاف إلى أن العرب لم يواجهوا في الأندلس سوى سلطة محلية لا تعتمد إلا على نفسها، هي سلطة القوط الغربيين، بينما كان عليهم في صقلية أن يواجهوا مقاومة شديدة من قبل قوات بطريق الجزيرة المحلية، بالإضافة إلى الدعم البيزنطي المتمثل بالإمدادات والأساطيل التي كانت تأتي إلى الجزيرة باستمرار. يضاف إلى ذلك، فإن بعد المسافة بين صقلية والبر الإفريقي ساعد على إطالة أمد الفتح. بسبب صعوبة وصول الإمدادات، بينما كان مضيق جبل طارق الضيق عاملا مساعدا على سرعة العبور والفتح العربي للأندلس[174].

ويلاحظ أيضا أن نشاط عمليات الفتح العربي في صقلية، أو هدوءها كان مرتبطا إلى حد بعيد بالأحوال الداخلية لكل من الإمبراطورية البيزنطية والدولة الأغلبية. فتدفق الإمدادات إلى الجيش العربي الفاتح، أو انقطاعها

(172) الكامل في التاريخ: 7/ 285 ـ 286؛ الروض المعطار، ص385؛ أعمال الأعلام، ص119 ـ 120.

(173) الكامل في التاريخ: 7/ 285.

(174) ينظر: عبد الواحد ذنون طه، الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال إفريقيا والأندلس، بغداد ـ ميلانو، 1982 ص162 فما بعدها.

كان يتوقف على استقرار الأوضاع الداخلية في إفريقية، وقوة أمرائها، أو ضعف شخصياتهم. كذلك فقد كانت الإمدادات البيزنطية تعتمد على شخصيات الأباطرة، ومشاكل الإمبراطورية، كالحروب مع العباسيين في الشرق. والأرمن، والبلغار، والروس، والمدن الإيطالية، والإفرنج. يضاف إلى ذلك فإن أحوال المسلمين في صقلية من استقرار واضطراب، كان له أثر بعيد في سرعة الفتح، أو توقفه، فكلما كان الولاة والقادة المكلفين بالفتح أقوياء وقادرين على إدارة الأمور في الجزيرة كانت عمليات الفتح تسير بسرعة، وتحقق نتائج حاسمة. ولكن هذه العمليات كانت تتوقف عندما تضطرب الأحوال، ويسود الضعف في المجتمع العربي نتيجة الفتن والانقسامات والمشاكل بين مختلف عناصر الجيش[175].

نتائج الفتح العربي لصقلية:

حقق الفتح العربي لصقلية نتائج هامة على كافة الأصعدة السياسية والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية. فمن الناحية السياسية، أنهى هذا الفتح حكم الإمبراطورية البيزنطية على الجزيرة، فأصبحت جزيرة عربية تابعة للدولة الأغلبية، وكذلك فقد انتهت السيادة البيزنطية على البحر المتوسط، لأن العرب سيطروا على أحد المراكز البحرية الهامة في هذا البحر، وهي جزيرة صقلية[176]. وهذا يعني التحكم في القسم الأوسط الشمالي من البحر المتوسط، بحكم موقع هذه الجزيرة فيه. وأصبح الأسطول العربي يتخذ من صقلية قاعدة هامة للهجوم على الجزر والمضائق القريبة، لا سيما إيطاليا، مما مهد لهم السيادة على البحر التيراني والأدرياتيك، وهكذا أصبح البحر المتوسط بحيرة عربية، إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار سيطرة العرب على شواطئ بلاد الشام، ومصر، والمغرب، والأندلس.

---

(175) يقارن: تقي الدوري، صقلية، ص78.

(176) لويس، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، ص170.

أما من الناحية الاقتصادية، فقد أثر الفتح العربي لصقلية على زيادة التبادل التجاري العالمي في البحر المتوسط، واستطاع العرب أن يسيطروا على التجارة العالمية التي تمر عبر هذا البحر، سواء المتجهة منها إلى الشرق، أم إلى سواحل شمال إفريقيا، مما أدى إلى انتعاش اقتصادي ساد جميع دول البحر المتوسط الإسلامية، لا سيما مدن صقلية وإفريقية. أما المبادلات التجارية بين الشرق والغرب، فقد استمرت خاصة بين إفريقية وشبه جزيرة إيطاليا. ومما لا شك فيه فإن المراكز الأغلبية التي أقيمت في صقلية وجنوب إيطاليا، لم تكن قواعد عسكرية، ورؤوس جسور متقدمة للحرب فقط، بل كانت أيضا، مستودعا دوليا للتبادل التجاري يجتمع فيها التجار من أوربا، وصقلية، وشمال إفريقيا[177].

ولقد تمخض الفتح عن نتائج اجتماعية هامة، كان أبرزها استقرار مجموعات كبيرة من العناصر التي يتألف منها الجند في هذه الجزيرة، وتعايشهم مع السكان الأصليين، فأصبح المجتمع الصقلي يضم المسلمين من عرب وبربر، ونصارى، ويهود، وأقوام من اليونان، واللمبارد، والصقالبة، والسود، وغيرهم. وكان العرب يشكلون النخبة الحاكمة، يليهم البربر الذين قاموا أيضا بدور فعال في الفتح. أما النصارى، فكانوا يشكلون أكثرية سكان الجزيرة، وعاشوا في ظل حكم المسلمين، وكانوا أحسن حالا من أولئك الذين كانوا تحت حكم اللمبارد، أو الفرنجة في إيطاليا، وقد اعتنق الكثير منهم الإسلام بمرور الزمن، لا سيما أولئك الموجودين في إقليم مازر (Val di Mazara) في المناطق الغربية من الجزيرة.[178]

وعلى الصعيد الفكري والثقافي، أصبحت صقلية مركزا للآداب والعلوم في البحر المتوسط، وكانت مساجدها مراكز مهمة لهذه النشاطات الفكرية،

(177) يقارن: محمد الطالبي، الدولة الأغلبية، ص589؛ تقي الدوري، صقلية، ص80.

(178) ينظر: عزيز أحمد، تاريخ صقلية الإسلامية، ص29 ـ 30.

وفيها كان يدرس علم النحو واللغة. والعلوم الدينية، كالفقه، والحديث، والقراءات. وكان المعلمون في المحاضر الملحقة بالمساجد في صقلية مُعْفَوْنَ من المشاركة في الجهاد، ويقومون برحلات علمية إلى شمال إفريقيا، ومصر، والشام، والعراق، والحجاز، والأندلس، كما كان يأتي إلى الجزيرة علماء من شمال إفريقيا، ومن نواحي أخرى من العالم الإسلامي. وقد أبقت حركة العلماء هذه الجزيرة ضمن المجرى الرئيس للعلوم الإسلامية، فنبغ فيها علماء في كل المعارف الدينية والدنيوية، وأُلفت فيها الكتب في شتى المواضيع[179]. واستخدم المتعلمون فيها ورقا أبيضَ في كتاباتهم، فكان أول ورق عرفته أوربا. وأصبحت هذه الجزيرة، بحكم موقعها، معبرا لنقل الثقافة والحضارة العربية الإسلامية إلى أوربا. وعندما سيطر عليها النورمان بعد ذلك، لم يملكوا إلا أن يسلموا أنفسهم مختارين لسيادة العرب الحضارية في هذه الجزيرة.[180]

---

(179) المرجع نفسه، ص49 ـ 56.

(180) زيغريد هونكة، شمس العرب تسطع على الغرب، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1980، ص410، 411، فما بعدها.

جريدة المصادر والمراجع

أ ـ المصادر الأولية

* ابن الأبار، محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي.
1 ـ الحلة السيراء، تحقيق، حسين مؤنس، القاهرة، 1963.
* البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز.
2 ـ جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب المسالك والممالك، تحقيق، عبد الرحمن علي الحجي، بيروت، دار الإرشاد، 1968.
3 ـ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، نشر، دي سلان، الجزائر، 1857.
* البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر.
4 ـ فتوح البلدان، تحقيق، رضوان محمد رضوان، مصر، مطبعة السعادة، 1959.
* ابن جبير، محمد بن أحمد.
5 ـ رحلة ابن جبير، بيروت، دار ومكتبة الهلال، 1981.
* ابن حزم، علي بن أحمد.
6 ـ جمهرة أنساب العرب، تحقيق، عبد السلام محمد هارون، القاهرة، دار المعارف، 1962.
* ابن حوقل، محمد بن علي النصيبي.
7 ـ صورة الأرض، بيروت، دار مكتبة الحياة، 1979.
* ابن حيان، حيان بن خلف.
8 ـ المقتبس، نشر، ملشور أنطونيه، باريس، 1937.
* الحميري، أبو عبدالله محمد بن عبد المنعم.
9 ـ الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق، إحسان عباس، بيروت، 1975.
* ابن الخطيب، لسان الدين محمد.
10 ـ أعمال الأعلام، القسم الثالث، نشر بعنوان، المغرب العربي في العصر الوسيط، تحقيق، أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، الدار

البيضاء، 1964.

11 ـ أعمال الأعلام، القسم الخاص بالأندلس، نشر، ليفي بروفنسال، بيروت، 1965.

* ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد.

12 ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت، مؤسسة جمال للطباعة عن طبعة بولاق 1867.

* ابن أبي دينار، محمد بن أبي القاسم القيرواني.

13 ـ المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، تحقيق، محمد شمام، ط2، تونس، 1967.

* الرقيق القيرواني، أبو إسحاق إبراهيم.

14 ـ تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق، المنجي الكعبي، تونس، 1968.

* السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر.

15 ـ تاريخ الخلفاء، تحقيق، محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، 1964.

* الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير.

16 ـ تاريخ الرسل والملوك، نشر، دي غوية، ليدن، 1879 ـ 1901.

* ابن عذاري، أبو العباس أحمد بن محمد المراكشي.

17 ـ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق، ج .س كولان وليفي بروفنسال، ليدن، 1948.

* أبو العرب، محمد بن أحمد التميمي.

18 ـ طبقات علماء إفريقية وتونس، تحقيق، علي الشابي ونعيم اليافي، تونس، 1968.

* ابن القوطية، أبو بكر محمد عمر.

19 ـ تاريخ افتتاح الأندلس، نشر، خوليان رايبيرا، مدريد، 1926.

* المالكي، أبو بكر عبدالله.

20 ـ رياض النفوس، تحقيق، حسين مؤنس، القاهرة، 1951.

* المقري، أحمد بن محمد.

21 ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق، إحسان عباس، بيروت، 1968.

* النويري، أحمد بن عبد الوهاب.

22 ـ نهاية الأرب، نشر، جاسبار راميرو، غرناطة، 1917، ج22.

* ياقوت، أبو عبدالله شهاب الدين الحموي.

23 ـ معجم البلدان، بيروت، 1957.
* اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب.
24 ـ تاريخ اليعقوبي، بيروت، 1960.
55 ـ كتاب البلدان، منشور مع الأعلاق النفيسة لابن رستة، ليدن، 1892.

ب ـ المراجع الثانوية

* أحمد، عزيز
26 ـ تاريخ صقلية الإسلامية، تعريب، أمين توفيق الطيبي، ليبيا ـ تونس، الدار العربية للكتاب، 1980.
* الأندلسي، محمد بن محمد.
27 ـ الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تقديم وتحقيق، محمد الحبيب الهيلة، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1984.
* أماري، ميخائيل.
28 ـ المكتبة العربية الصقلية نصوص في التاريخ والبلدان والمراجع، ليبسك، 1857. أعادت طبعها بالأوفست مكتبة المثنى في بغداد.
* أومان،
29 ـ الإمبراطورية البيزنطية، تعريب، مصطفى طه بدر، مصر، مطبعة الاعتماد، 1953.
* جوليان، شارل أندريه.
30 ـ تاريخ إفريقيا الشمالية، تعريب، محمد مزالي، والبشير بن سلامة، تونس، 1985.
* حسن، حسن علي.
31 ـ تاريخ المغرب العربي (عصر الولاة)، القاهرة، 1977.
* الدوري، تقي الدين عارف.
32 ـ صقلية، علاقاتها بدول البحر المتوسط الإسلامية، بغداد، دار الرشيد، 1980.
* سالم، السيد عبد العزيز.
33 ـ تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، ط2، الإسكندرية، 1982.
* السامرائي، خليل إبراهيم.
34 ـ «إمارة كريت الأندلسية»، مجلة الجامعة، الموصل، أيلول 1978.
* سليمان، أحمد السعيد.

35 ـ تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، مصر، دار المعارف، 1969.

* الطالبي، محمد.

36 ـ الدولة الأغلبية، تعريب، المنجي الصيادي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1985.

* طه، عبد الواحد ذنون.

37 ـ أهمية الرحلات العلمية بين المشرق والأندلس، بحث منشور ضمن كتاب: (دراسات أندلسية)، الموصل، 1986.

38 ـ الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال إفريقيا والأندلس، بغداد ـ ميلانو، 1982.

* الطيبي، أمين توفيق.

39 ـ دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، تونس، الدار العربية للكتاب، 1984.

* العبادي، أحمد مختار.

40 ـ دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، الإسكندرية، 1968.

* عباس، إحسان.

41 ـ العرب في صقلية، بيروت، دار الثقافة، 1975.

* عبد الحميد، سعد زغلول.

42 ـ تاريخ المغرب العربي، الإسكندرية، 1979.

* العدوي، أحمد.

43 ـ الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم، القاهرة، 1958.

* غنيم، أسمت.

44 ـ الإمبراطورية البيزنطية وكريت الإسلامية، جدة، 1977.

* فازليف.

45 ـ العرب والروم، ترجمة محمد عبد الهادي شعيرة، مصر، مطبعة الاعتماد (د.ت).

* لويس، ارشيبالد.

46 ـ القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط (500 ـ 1100)، ترجمة، أحمد عيسى، نشر، مكتبة النهضة المصرية مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة، (د.ت).

* مورينو،

47 ـ المسلمون في صقلية، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، 1957.

* هونكة، زيغريد.

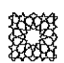
48 ـ شمس العرب تسطع على الغرب، بيروت، دار الآفاق الجديدة، 1980.

49 - Cambridge Medieval History, 1964, VOL. II.

* Miles. G. C.

50 - The Coinage of the Umayyads of Spain, New-York, 1950.

جهود يوسف بن تاشفين
في توحيد الغرب الإسلامي



أُلقي هذا البحث في ندوة جمعية المؤرخين والآثاريين العراقيين
الموصل 1993

المقدمة

تميز تاريخ المغرب والأندلس عبر عصوره المختلفة بوجود نوع من الترابط بين الأحداث في كلا الجانبين، وذلك يعود ولا شك إلى الطبيعة الجغرافية المتميزة التي تربط بين شمال إفريقيا وشبه الجزيرة الآيبيرية فكانت الأحداث التاريخية التي تقع في أحد الجانبين تجد لها صدى واضحا في الجانب الآخر. ولدينا أمثلة كثيرة على ذلك، منها ما يرجع إلى ما قبل الفتح والتحرير، ومنها ما حصل بعد ذلك، وما عملية الفتح العربي الإسلامي للأندلس ذاتها إلا مثال واضح على هذا، حيث كانت تطورات تحرير الشمال الإفريقي تقود حتما إلى التوجه نحو الأندلس، والعمل على ضمها إلى حضيرة الدولة العربية الإسلامية. ومرت بعد ذلك على منطقتي المغرب والأندلس حقب عديدة من التاريخ المشترك الغني بالأحداث الساخنة، وما موضوعنا لهذه الدراسة إلا أحد هذه المظاهر الواضحة.

وتتطلب دراسة هذا الموضوع التركيز على نقاط عدة، منها تبيان أحوال المغرب العربي في عصر الأمير يوسف بن تاشفين، وتسليط الضوء على القوة الجديدة التي برزت في المغرب الأقصى والتي تمثلت بظهور دولة المرابطين، والإشارة إلى جهود أشهر زعمائها، يوسف بن تاشفين الذي نجح في توحيد المغرب تحت سلطة قوية، تطلعت إلى استكمال وحدتها الطبيعية بضم الأندلس. كذلك لابد من الإشارة إلى أحوال الأندلس ذاتها في هذه الحقبة، وما كانت تعانيه من مصاعب داخلية وأخطار خارجية تتمثل في طغيان المد الصليبي الذي قاده الفونسو السادس (Alfonso VI) ملك قشالة، والذي كان يهدد بابتلاع الدويلات الطائفية الواحدة تلو الأخرى، وإنهاء الوجود العربي الإسلامي في شبه الجزيرة الآيبيرية. ويركز البحث بعد ذلك على دور زعيم المرابطين الأمير يوسف بن تاشفين في التصدي لهذا الخطر الماحق، والإسراع لنجدة الأندلس، وضرب قوى الغرب الصليبية في معركة الزلاقة، ومن ثم توحيد الأندلس مع المغرب، وإحباط آمال دولة قشتالة وحلفائها من الصليبيين في إنهاء الوجود العربي الإسلامي في الأندلس.

* * *

كان العالم الإسلامي في هذا العصر الذي نتحدث عنه وهو النصف الثاني من القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر الميلادي، مجزءاً إلى دول متعددة ينتاب الكثير منها الضعف، فالخلافة العباسية كانت تعاني من تسلط السلاجقة، أما شمال إفريقيا فكانت تحت سيطرة الفاطميين وحلفائهم من قبيلة صنهاجة المغربية. وكانت بلاد الشام تستعد للاصطدام بالصليبيين المتعصبين من أجل الدفاع عن الأراضي المقدسة، وقد تمكن الصليبيون فعلا من الاستيلاء على بيت المقدس في عام 492هـ/ 1099م[1].

(1) عز الدين أبي الحسن علي أبي الكرم المعروف بابن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت، دار صادر، 1979: 10/272، 282، 283.

وفي خضم هذه الأحداث نجح المرابطون في توحيد القوى العربية الإسلامية في منطقة المغرب الأقصى، حيث استطاع داعيتهم الديني، عبد الله بن ياسين، أن يوجد قوة سياسية كبيرة خلال الأعوام 429 ـ 444هـ/ 1027 ـ 1052م. قامت فيما بعد بالقضاء على الإمارات الصغيرة في المغرب الأقصى، مثل قبائل غمارة، وإمارة برغواطة، والإمارات الزناتية، وغيرها. وهكذا تحقق حلم عبد الله بن ياسين على يد القائد يوسف بن تاشفين، الذي حرر قبائل صنهاجة وبلاد المغرب من البدع والخرافات، وأقام في المغرب العربي الكبير دولة تمتد حدودها من تونس شرقا حتى المحيط الأطلسي غربا، ومن البحر المتوسط شمالا حتى حدود السودان جنوبا، فحقق بذلك وحدة المغرب السياسية[2].

ويعد يوسف بن تاشفين المؤسس الحقيقي لدولة المرابطين، لأنه هو الذي وطد أركانها، وإعطاها كيانا سياسيا دوليا ثابتا. وينتمي هذا الزعيم إلى قبيلة لمتونة الصنهاجية التي عرفت بالسيادة. وقد حكم يوسف هذه الدولة في بادئ الأمر نيابة عن ابن عمه الأمير أبي بكر بن عمر، الذي انشغل بمجاهدة الكفار الوثنيين في منطقة السودان الغربي[3]. وبعد تنازل هذا الأخير له عام 465هـ/ 1072م أصبح يوسف هو الحاكم الشرعي. وخلال فترة حكمه كنائب لابن عمه، وكسلطان شرعي قام بسلسلة من الإجراءات الداخلية والخارجية لتدعم دولة المرابطين وتنظيم شؤونها.

كان الجيش هو الهدف الأول بنظر ابن تاشفين، حيث عمل على تقويته، وزيادة عدد أفراده من قبائل صنهاجة، وجزولة، والمصامدة، وزناتة، بالإضافة إلى المرتزقة من الأغزاز (جنس من الترك)، والرماة، والعبيد

(2) ينظر: سعدون عباس نصر الله، دولة المرابطين في المغرب والأندلس، بيروت، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، 1985، ص52.

(3) أبو العباس أحمد بن محمد المعروف بابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، بيروت، دار الثقافة، 1967، 4/ 21.

السود، والفرسان الأعلاج من الصقالبة وسواهم، الذين ابتيعوا له من الأندلس[4]. كما أنشا أسطولا ضخما لحماية سواحل المغرب وخدمة أهدافه الوحدوية. وقد أثبت هذا الأسطول جدارته فعلا في حصار سبتة، والاستيلاء على بقية الثغور الواقعة على مضيق جبل طارق[5].

ومن أجل أن يكون للدولة الجديدة كيان راسخ، وقاعدة سياسية وعسكرية أمينة، عمل ابن تاشفين على بناء مدينة مراكش، وأسس بها دارا لضرب النقود، كما أنشأ الدواوين والإدارات المختلفة، واتخذ الأعلام المدبجة بالآيات القرآنية. ثم لم يلبث أن اتخذ لنفسه ألقابا سلطانية فخمة مثل أمير المسلمين وناصر الدين، ولكنه لم يتلقب بلقب أمير المؤمنين، لأنه كان يعد نفسه تابعا للخلافة العباسية التي من حق خلفائها فقط التسمّي بهذا اللقب[6]. وهكذا استطاع يوسف بن تاشفين أن يقيم صرح دولة قوية موحدة في المغرب، لها جيشها القوي الخاص بها، ومؤسساتها الإدارية العديدة، وزعامتها القوية المعترف بها من قبل الخلافة العباسية، فاستكملت بذلك كل متطلبات الشرعية الدينية والسياسية.

وإذا ما التفتنا إلى الأوضاع السائدة في الأندلس في ذلك الوقت نجد، أنه كان يعاني من التفكك السياسي، وانعدام الوحدة الشاملة، والتعرض

---

(4) المصدر نفسه، 4/ 23؛ وينظر، مجهول، كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق، سهيل زكار وعبد القادر زمامة، الدار البيضاء، دار الرشاد الحديثة، 1979، ص25؛ علي بن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب في روض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط، دار المنصور للطباعة والوراقة، 1972، ص139.

(5) ينظر: أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق، إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، 1978، ق2، ج2، ص623 ـ 624.

(6) ابن عذاري، المصدر السابق، 4/ 27 ـ 28؛ الحلل الموشية: ص29 ـ 30، وينظر: محمد سلمان الهرفي، دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف بن تاشفين، بيروت، دار الندوة الجديدة، 1985، ص54 ـ 55.

لخطر الممالك الإسبانية، فضلا عن الانهيار الاقتصادي الذي ازداد بسبب التفكك والحروب الطائفية[7]. فمن الناحية السياسية أصبحت الأندلس مقسمة إلى دويلات صغيرة لا تتوفر فيها الشروط اللازمة لبقائها، فمساحة أراضيها كانت محدودة جدا، وعدد سكانها كان أيضا محدودا. أما السلطات الحاكمة فيها، فلم تكن في غالب الأحيان قادرة على فرض سلطتها على السكان، وحماية أراضيها من نهب الجيوش الأجنبية، فضلا عن مجابهة حركات التمرد من الداخل، مما أدى إلى اتباع ملوك الطوائف لأساليب القوة والقمع لإسكات حركات المعارضة، والشدة مع كل من يرفع صوته للدعوة إلى التوحيد. ومن أمثلة هذه الإجراءات حرق كتب الفقيه الظاهري علي بن حزم القرطبي باشبيلية خلال حكم المعتضد بالله[8].

وكانت الاصطدامات العسكرية من الظواهر المألوفة في عصر الطوائف، وغالبا ما تحل محل الدبلوماسية والتفاهم السياسي. وكثيرا ما كانت تقوم محالفات بين هذه الدويلات تخضع لظروف وأهداف مؤقتة مصلحية، وتتحكم فيها عوامل سياسية واقتصادية. وقد أدت هذه المحالفات إلى قيام حروب مستمرة بين هذه الدويلات، ساعدت على إضعافها جميعا[9]. يضاف إلى ذلك تعرض هذه الدويلات إلى خطر الهجوم الصليبي المتمثل بمملكة قشتالة التي توحدت مع ليون تحت ظل الفونسو السادس، أدى إلى وقوعها جميعا تحت حماية هذه الدولة التي أصبحت تشكل أقوى وحدة سياسية في شبه الجزيرة الآيبيرية. فكان الفونسو السادس يساند الدويلات الطائفية القوية في حروبها ضد الدويلات الأخرى من أجل إضعاف الفريقين ويتجلى ذلك

---

(7) عالج الباحث محمد بن عبود هذه العوامل بتفصيل وافٍ في مقاله القيّم معركة الزلاقة والواقع الأندلسي، الذي نشر ضمن كتاب: مباحث في التاريخ الأندلسي ومصادره، الرباط، منشورات عكاظ، 1989، ص35 ـ 56.

(8) ابن بسام، المصدر السابق، ق10 ج1، ص169 ـ 171.

(9) ينظر: ابن عبود، المرجع السابق، ص43 ـ 45.

بشكل واضح في موقف الفونسو المؤيد للمعتمد بن عباد في مهاجمته لمملكة غرناطة[10].

وبالإضافة إلى الضغوط العسكرية، والتدخل المباشر في شؤون هذه الدويلات من قبل الفونسو السادس، فإنه فرض عليهم دفع الجزية ضمانا لحمايتهم من الحملات العسكرية سواء من قبله أم من قبل الدويلات الطائفية المتحالفة معه[11]. وهكذا أدت ضغوط الفونسو السادس إلى خضوع ملوك الطوائف له، واتخاذهم لسياسة تخدم مصالحه وأطماعه في المدى البعيد[12]. ولم يكن حاكم قشتالة وحده الذي يمارس مثل هذه الضغوط بل كان يشاركه فيها حكام أسبان آخرون، مثل كونت برشلونة، والسيد القمبيطور، الذي مارس ضغوطا عسكرية على بلنسية واحتلها في النهاية سنة 487هـ/ 1094م[13].

وقد أدى تقسيم الأندلس إلى دويلات صغيرة مستقلة إلى عواقب اقتصادية وخيمة على الأندلس، لا سيما وأن اقتصاد هذه الدويلات لم يكن متكاملا. وكان من الصعب ربط العلاقات الاقتصادية بينها نظرا للحروب الدائرة بين معظم هذه الدويلات. يضاف إلى ذلك ما كانت تُكلِّفه الحروب من نفقات، وما تسببه من خسائر اقتصادية وتخريب ونهب مستمر، فضلا عن تأدية مبالغ مالية كبيرة، وتدمير المناطق الزراعية، وخلق حالة من عدم الاستقرار في المدن. ولا يُنسى في هذا المجال ما كان للجزية التي يدفعها حكام الأندلس لمملكة قشتالة وغيرها من الممالك الإسبانية من تأثير سيء على الاقتصاد، الأمر الذي دفع ملوك الطوائف إلى البحث عن وسائل

(10) عبدالله بن بلقين، كتاب التبيان، نشره ليفي بروفنسال بعنوان : مذكرات الأمير عبدالله، القاهرة، دار المعارف، 1955، ص69 ـ 71.

(11) المصدر نفسه، ص76.

(12) يقارن: ابن عبود، المرجع السابق، ص47.

(13) ابن عذاري، المصدر السابق، 4/ 34.

متعددة للحصول على الأموال، لا سيما فرض الضرائب اللاشرعية على الشعب، مما أجج سخط الجماهير على ملوك الطوائف.

ومع ذلك، فإن الأموال التي جمعها هؤلاء الملوك لم تكن تكفي لدفع المبالغ الطائلة للجزية[14]. وقد اضطر هذا الأمر بعض ملوك الطوائف إلى تخفيض قيمة العملة، وخلطها بمعادن أخرى غير الذهب والفضة، مما أدى إلى رفض مبعوث الفونسو السادس استلام مثل هذه النقود باعتبارها مغشوشة[15]، وسبب ذلك انفعال المعتمد بن عباد وأمره بقتل هذا المبعوث، مما ساعد على تفجير العلاقة بين مملكة قشتالة ومملكة اشبيلية[16].

ولكن القرار بالاستيلاء على الأندلس كان قد اتخذ قبل هذه الحادثة، وما احتلال مدينة طليطلة سنة 478هـ/ 1085م إلا تطبيق عمليّ لهذه السياسة التي اتبعها الفونسو السادس ملك قشتالة. ولم يكن التفوق العسكري هو العامل الوحيد الذي دفع بالقشتاليين إلى اتخاذ مثل هذا الموقف. بل ساهم به التفكك السياسي لدويلات الطوائف، وضعفها الاقتصادي فضلا عن وجود عوامل أخرى، منها الروح الصليبية المتعصبة لدى الرهبان الكاثوليك في بلاط الفونسو السادس، الذين كانوا ينتمون إلى دير كلوني في جنوب شرقي فرنسا. وكان لهولاء تأثير كبير على الفونسو السادس وزوجته الفرنسية، لا سيما وأن أحدهم أصبح رئيسا لأساقفة طليطلة بعد استيلاء القشتاليين عليها. وكان هؤلاء غلاة في تعصبهم الديني، وهم الذين أضفوا على الصراع الدائر في إسبانيا صبغة حرب دينية شبيهة بالحرب الصليبية التي كانت على الأبواب في المشرق[17]. وقد دفعوا الفونسو السادس لاتخاذ مثل تلك السياسة

(14) للاطلاع على مبالغ الجزية التي كان يدفعها بعض ملوك الطوائف، ينظر: ابن بلقين، المصدر السابق، ص79.

(15) الحلل الموشية، ص42، أبو عبدالله محمد بن عبد المنعم الحميري، كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق، إحسان عباس، بيروت، مكتبة لبنان، 1975، ص288.

(16) يقارن: ابن عبود، المرجع السابق، ص47 ـ 52.

(17) ينظر: أمين توفيق الطيبي، وقعة الزلاقة المجيدة، ضمن كتاب: (دراسات وبحوث =

التعسفية التي هدفت إلى السيطرة على الأندلس ومحاولة إنهاء الوجود العربي الإسلامي من كل شبه الجزيرة الآيبيرية.

كان على ملوك الطوائف أمام هذا الخطر الشديد أن يتصرفوا بسرعة وأن يختاروا بين أمرين: إما توحيد صفوفهم لمواجهة الفونسو السادس والدخول في معركة مصيرية، أو التوجه إلى المغرب وطلب مساعدة القوة الجديدة بقيادة المرابطين، ولم يكن من السهل على هؤلاء الملوك أن يتوحدوا لأنهم كانوا يعتبرون عداوتهم لبعضهم البعض أعمق من خطورة الفونسو السادس وسياسته التوسعية[18]. لذلك كان لابد من اللجوء إلى الخيار الثاني، على الرغم من خطورة هذا الخيار بالنسبة لمستقبلهم السياسي، وقد عبر ابن المعتمد بن عباد وولي عهده الرشيد عن تخوفه من هذه الخطوة بقوله: «يا أبت أتدخل علينا في أندلسنا من يسلبنا ملكنا ويبدد شملنا؟»، فأجابه المعتمد: «والله لا يُسمع عني أبداً أني أعدت الأندلس دار كفر... حرز الجمال والله عندي خير من حرز الخنازير....»[19]

وتشير المصادر المتوفرة بين أيدينا إلى اطلاع بعض ملوك الطوائف على ما كان يجري في المغرب، وإلى حركة المرابطين، وتوقعهم لامتداد هذه الحركة وشمولها الأندلس في المستقبل[20]. ولكنهم مع ذلك اضطروا

= في تاريخ المغرب والأندلس)، ليبيا ـ تونس، الدار العربية للكتاب، 1984، ص158.

(18) ينظر: ابن عبود، المرجع السابق، ص55.

(19) الحلل الموشية، ص44 ـ 45؛ وينظر أيضا شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق، إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة: 7/ 115.

(20) ابن بسام، المصدر السابق، ق1 ج2 ص40 ـ 41؛ عبد الواحد بن علي المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، نشر: محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، ط7، الدار البيضاء، دار الكتاب، 1978، ص148 ـ 148؛ أبو عبدالله محمد بن أبي بكر القضاعي المعروف بابن الأبار، الحلة السيراء، تحقيق، حسين مؤنس، القاهرة، الشركة العربية للطباعة والنشر، 1963، 2/ 52؛ لسان الدين ابن الخطيب، كتاب أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، نشره ليفي بروفنسال بعنوان: تاريخ اسبانيا الإسلامية، ط2 بيروت، دار المكشوف، 1956، ص243 ـ 245.

للاتصال بها نتيجة للظروف القاهرة التي كانت تمر بالأندلس، وإن تاريخ هذا الاتصال يرجع إلى ما قبل سقوط مدينة طليطلة سنة 478هـ/ 1085م[21]. وقد نمت فكرة الاستعانة بالمرابطين وظهرت بشكل أقوى في أثناء وبعد سقوط طليطلة[22]، حيث مرت بالمراحل الآتية[23]:

1 ـ مرحلة الدعوات والمراسلات الشخصية والخاصة التي ابتدأها المعتمد بن عباد، والمتوكل بن الأفطس، وتميم بن بلقين[24].

2 ـ مرحلة الإعداد من قبل العلماء والفقهاء الذين رحلوا باستمرار من الأندلس إلى المغرب، وكان هؤلاء يحرضون يوسف بن تاشفين على جهاد الإسبان وخلاص المسلمين في الأندلس[25].

3 ـ مرحلة الدعوة الرسمية التي جرت بعد سقوط طليطلة مباشرة، وتزعمها المعتمد بن عباد والمتوكل بن الأفطس وعبدالله بن بلقين[26].

إن ردود فعل المرابطين بزعامة يوسف بن تاشفين كانت إيجابية جدا، ويبدو أن هذه الدعوات الشعبية منها والرسمية لم تكن سوى عامل مساعد للحث على التدخل في الأندلس. وإن فكرة هذا التدخل والانتشار إلى شبه الجزيرة الآيبيرية لم تكن بعيدة عن تفكير يوسف بن تاشفين. لأن منطق الأحداث التاريخية في هذه المنطقة بالذات، كان يفرض عليه الانتشار والتوسع في الطرف الثاني للمضيق، لا سيما بعد أن سيطر على بقية الثغور

(21) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص142.

(22) عبد الرحمن علي الحجي، التاريخ الأندلسي، بيروت، دار القلم، 1976، ص392.

(23) لمزيد من التفصيلات بشأن هذا الموضوع يراجع: خليل إبراهيم السامرائي، علاقات المرابطين بالممالك الإسبانية بالأندلس وبالدول الإسلامية، بغداد، دار الحرية للطباعة، 1985، ص132، فما بعدها.

(24) ينظر: ابن بلقين، المصدر السابق، ص102.

(25) الحلل الموشية، ص23.

(26) ابن خلكان، المصدر السابق، 7/ 116، ابن الخطيب، المصدر السابق، ص249.

الواقعة على المضيق مثل سبتة وطنجة ومليلة، وأصبح لا يفصله عن الأندلس سوى برزخ ضيِّق من الماء. ولهذا فمن المؤكد أن يوسف بن تاشفين كان سيسارع إلى الأندلس حتى لو لم يستصرخه أهلها. فقد كان من المستبعد على أي حال أن يكتفي بما أنجزه من انتصارات في المغرب، وأن يترك الأندلس تحت رحمة التهديد القشتالي المستمر. ويبدو أن الظروف السياسية في الأندلس خدمت يوسف بن تاشفين في هذا المجال، حيث ساعد وقوعها تحت ضغط الغزو الأجنبي على أن تكون هي السباقة في طلب المعونة من المرابطين، قبل أن تفرض عليها فرضا[27].

كان لا بد ليوسف بن تاشفين من أن يؤمِّن عبوره إلى الأندلس، وهذا التأمين لا يتم إلا بالسيطرة الكاملة على مضيق جبل طارق. فطلب من المعتمد بن عباد أن يتنازل له عن الجزيرة الخضراء ليتخذها المرابطون قاعدة لإنزال جنودهم.[28] كما أخذ يعد العدة للعبور والتهيؤ، فأرسل مبعوثيه لشراء السلاح وآلات الحرب من الأندلس، حتى عُرف ذلك العام، وهو عام 479هـ/ 1086م بعام اقتناء العدد، واتخاذ السلاح، وتجنيد الأجناد واختيار الرجال[29]. ولما اطمأن الأمير يوسف إلى استكمال عدته وقوة أجناده، وسيطرته التامة على المضيق، عبر في منتصف ربيع الأول 479هـ/ 1086م من مدينة سبتة، ونزل الجزيرة الخضراء. وقام بتحصين هذه المدينة وما يتبعها من قواعد، مثل جبل طارق، وطريف، لتكون راس جسر لهجومه، وتؤمن له خط الرجعة في حالة انسحابه، وهو في ذلك يقتدي بما فعله طارق بن زياد

(27) يقارن: أحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي، بيروت، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، 1972، ص216؛ الطيبي، المرجع السابق، ص161.

(28) ابن بلقين، المصدر السابق، ص102 ـ 103؛ ابن الخطيب، المصدر السابق، ص245 ـ 246؛ عبد الرحمن بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، مطبعة بولاق، 1867، 6/ 186.

(29) الحلل الموشية، ص37 ـ 38.

في عبوره إلى الأندلس أيام الفتح الأولى. وقد وافاه في الجزيرة الخضراء بعض رؤساء الأندلس وملوكها، أمثال المعتمد بن عباد، والمتوكل بن الأفطس، وغيرهما ممن أعدوا العدة لعملية الجهاد، والوقوف أمام طغيان الفونسو السادس.[30]

ثم سارت القوات المشتركة لابن تاشفين وأهل الأندلس نحو مدينة اشبيلية، ثم إلى مدينة بطليوس في غرب الأندلس. وكتب الأمير يوسف إلى جميع رؤساء الأندلس يطلب إليهم اللحاق به مع قواتهم، وقد أراد يوسف أن تكون ملاقاة العدو بالقرب من بطليوس، وأن لا يتوغل كثيرا في أرض الأعداء.[31] وكان الفونسو السادس في تلك الأثناء مشغولا بحصار مدينة سرقسطة، فلما علم بنبأ تقدم المسلمين رفع عنها الحصار، وأسرع بجيوشه نحو تجمع قوات يوسف بن تاشفين والأندلسيين. وفي الوقت نفسه استدعى قائده البرهانس (Alvar Hanez) من مدينة بلنسية، كما استدعى شانجة بن رميرة (Shancho Ramirez) ملك أرغون، وأرسل يستغيث بجميع الإسبان في شمال شبه الجزيرة الآيبيرية، وفيما وراء جبال البرتات طالبا إليهم اللحاق به. فانضم إليه الكثير من الأساقفة والقسيسين والرهبان، مؤكدين بذلك الطابع الديني للصراع الدائر. كما استجاب لنداء الفونسو السادس أعداد كبيرة من الفرنج، وكان الأخير لا يريد ملاقاة المسلمين قبل أن يصله المتطوعون والتعزيزات من أرغون وبرجلونة وفرنسا وإيطالية[32]. وهكذا اتخذت المواجهة طابع الجهاد لدى الجانبين، وكان ذلك قبل بدء أولى الحملات الصليبية التي توجهت بتحريض من البابا أربان الثاني لانتزاع بيت المقدس من أيدي المسلمين.[33]

---

(30) ابن بلقين، المصدر السابق، ص103؛ الحلل الموشية، ص51؛ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص145.

(31) ابن بلقين، المصدر السابق، ص105.

(32) المراكشي، المصدر السابق، ص196؛ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص145 ـ 146.

(33) ينظر: الطيبي، المرجع السابق، ص165.

دارت المعركة الفاصلة بين الجانبين في فحص الزلاقة، الذي يعرف بالإسبانية باسم Sagrajas على بعد نحو اثني عشر كيلومترا إلى الشمال الشرقي من مدينة بطليوس، وذلك في يوم الجمعة الثاني عشر من رجب سنة 479هـ/ الثالث والعشرين من تشرين الأول 1086م وانجلت عن نصر ساحق للقوات المرابطية والأندلسية المشتركة، وكان لجمال المرابطين، وأصوات طبولهم الهائلة التي أحدثت اضطرابا في صفوف خيالة العدو، أثرا كبيرا في هزيمة الفونسو السادس في المعركة(34). كذلك يبدو أن المرابطين استخدموا سلاحا جديدا لم يعرفه الإسبان، وهو الخناجر المقوسة التي كان المرابطون يطلقون عليها اسم الطاس أو الاطاس، وبواسطة هذا الخنجر تمكن أحد عبيد يوسف بن تاشفين أن يصل إلى الفونسو السادس ويطعنه في فخذه طعنة ظل أثرها بقية عمره. وفر على أثر ذلك مع ثلاثمئة فارس من جنوده إلى ربوة عالية، حتى جن الليل، فانسل هاربا إلى طليطلة التي وصلها بمعية مئة فارس فقط، بعد أن توفي بقية جنوده متأثرين بجراحهم(35).

وعلى الرغم من أن هذه المعركة لم تقض نهائيا على الخطر الإسباني في الأندلس، ولم يتم على أثرها استرجاع مدينة طليطلة، لكنها ولا شك أنقذت الوجود العربي الإسلامي في الأندلس من سقوط محقق. وتوقف ملوك الطوائف بعدها عن دفع الجزية لالفونسو السادس، وأنقذت المناطق القريبة من غاراته المدمرة. كذلك فقد نتج عنها فقدان خيرة جنود قشتالة المدربين، يضاف إلى ذلك أن هذا النصر رفع من معنويات أهل الأندلس وزاد في انتعاش آمالهم بتحسن الأوضاع، والنجاة من الوقوع تحت ظل

(34) ابن خلكان، المصدر السابق، 7/ 116.

(35) ينظر: أبو مروان عبد الملك بن الكردبوس، تاريخ الأندلس، نشر: أحمد مختار العبادي، مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، العدد 13، 1965 ـ 1966، ص94؛ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص149؛ الحميري، المصدر السابق، ص291؛ الحلل الموشية، ص59/ 61؛ ويقارن: العبادي، المرجع السابق، ص519.

الطغيان الصليبي لالفونسو السادس وحلفائه. وكان هذا النصر الذي أحرزه المسلمون في الزلاقة يُشبَّه بانتصارات العرب الأولى في القادسية واليرموك[36]. وقد أشار إليه الأدباء والشعراء باسم يوم عروبة، ويوم عروبة (بفتح العين) من أسماء يوم الجمعة لغة عند العرب[37].

وبالإضافة إلى النتائج التي أسلفنا الإشارة إليها، فإن هذه المعركة ثبتت من أقدام المرابطين في الأندلس، ورفعت من مكانتهم لدى أهلها[38]. كما ساعدت على إطلاع يوسف بن تاشفين على أحوال ملوك الطوائف، واقتناعه التام بعدم إمكانية استمرار هؤلاء في البقاء، إذا ما أريد للأندلس أن تنجو من الخطر الصليبي المحدق بها. لكنه مع ذلك لم يعلن عن نية ضم الأندلس، بل نصح هؤلاء الملوك قبل أن يغادر البلاد إلى المغرب بالاتفاق والائتلاف، وأن تكون كلمتهم واحدة، لأن ما أصابهم على يد الإسبان لم يكن إلا من جراء ذلك التشتت والاختلاف[39].

وبعد عودة الأمير يوسف بن تاشفين إلى المغرب، عاد ملوكها ورؤساؤها من جديد إلى سيرتهم الأولى من الاختلاف فيما بينهم والاتصال بالعدو. بل إنهم بدأوا يضايقون القوة المرابطية التي بقيت في الأندلس[40]. وقد انتهز الفونسو السادس رحيل يوسف بن تاشفين فحشد قواته، وقام بمهاجمة أراضي إشبيلية، كما آزرت قوة من جنده فرسان حصن الييط Aledo

---

(36) الحلل الموشية، ص66؛ وينظر، السامرائي، المرجع السابق، ص145؛ نصر الله، المرجع السابق، ص95.

(37) الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي الاشبيلي المعروف بابن خاقان، قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، تحقيق، حسين يوسف خريوش، الاردن ـ الزرقاء، مكتبة المنار، 1989، 1/ 60؛ ابن الأبار، المصدر السابق، 2/ 101؛ ويقارن: الطيبي، المرجع السابق، ص169، 171..

(38) المراكشي، المصدر السابق، ص199.

(39) ابن بلقين، المصدر السابق، ص106.

(40) ابن الكردبوس، المصدر السابق، ص114؛ الحلل الموشية، ص71.

وعاثت فسادا في منطقة مرسيه[41]. أما منطقة الثغر الأعلى، فكانت تواجه حربا صليبية يقودها ملك أرغون سانشو راميرز، تسانده قوات صليبية قادمة من خلف جبال البرتات[42]. ولما رأى أهل الأندلس أنهم عاجزون عن الوقوف أمام هذه المخاطر، أعادوا الكرة بالاستنجاد بالمرابطين. وتشير بعض الروايات إلى عبور المعتمد بن عباد إلى المغرب ولقائه ليوسف بن تاشفين وحثه على نجدة الأندلس[43].

وقد عبر يوسف بقواته للمرة الثانية إلى الأندلس عام 481هـ/ 1088م. واتجه إلى حصن لييط الذي يقع على مقربة من مدينة لورقة، وجاءه ملوك الطوائف للمساعدة في ضرب الحصار على هذا الحصن. ولكن المحاصرين داخل الحصن استطاعوا الصمود، ولم تتمكن القوات الإسلامية من الاستيلاء عليه إلا بعد أن هجرته القوات الصليبية، نتيجة لوصول الفونسو السادس، الذي هدم الحصن، وانسحب إلى طليطلة، دون الدخول في معركة لا تحمد عقباها كما حصل في الزلاقة[44].

وكان لعامل الفرقة والتناحر بين ملوك الطوائف أثر في عدم التمكن من اقتحام الحصن، كما تبين للأمير يوسف أن سياسة التعاون مع هؤلاء الملوك لم يعد لها أي نفع بسبب الخلافات، فكان عليه إما أن ينسحب من ميدان المعركة ويترك الأندلس فريسة للصليبيين، وإما أن يعتمد على قواته فقط لصد هؤلاء، وهذا يتطلب خلع ملوك الطوائف. وبطبيعة الحال، فإن الاحتمال الأول لم يكن واردا، نظرا لما قدمناه من مقتضيات الموقع السوقي لدولة المرابطين، وضرورة امتدادها إلى الأندلس حماية لجناحها الدفاعي من ناحية الشمال. لهذا فإن الاحتمال الثاني هو الذي فرض نفسه، لا سيما وأنه

(41) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص152.
(42) محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1969، ص331.
(43) الحلل الموشية، ص68.
(44) المصدر نفسه، ص70؛ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص152.

تشجع من موقف ملوك الطوائف ومنازعاتهم ومحاولاتهم للضغط على القوات المرابطية، بل الكيد لها والتعاون مع ملوك الإسبان[45].

وبالإضافة إلى هذه الأسباب جميعا، واقتناع الأمير يوسف بضرورة توحيد المغرب والأندلس، قرر أن يعزز هذا الأمر بصفة شرعية. فحاول الحصول على فتاوى من علماء المشرق الإسلامي، ومن الأندلس ذاتها، وبالفعل حصل على مثل هذه الفتاوى، التي شجعته على تنفيذ خطته في عزل ملوك الطوائف[46]. وقد ابتدأ بتنفيذ هذه السياسة اعتبارا من العبور الثالث إلى الأندلس عام 483هـ/ 1090م. ففي هذه المرة، حاول أن يقطع أي اتصال بين الإسبان وبين حلفائهم من ملوك الطوائف. فزحف إلى طليطلة، ثم حاصر مدينة قلعة رباح، ثم عاد صوب الجنوب دون أن يطلب مساعدة أي من ملوك الطوائف. ثم ابتدأ بتصفية هؤلاء الواحد تلو الآخر، باستثناء بني هود في سرقسطة، وذلك تقديرا لأهمية موقعهم السوقي باعتبارهم حاجزا بين المرابطين والممالك الإسبانية.

استغرقت عملية القضاء على دويلات الطوائف وتصفيتها فترة زمنية تمتد من عام 483 ـ 509هـ/ 1090 ـ 1115م، وهي حقبة غنية بالأحداث التاريخية المفصلة التي تحتاج إلى دراسة خاصة بها. وقد أصبحت الأندلس نتيجة جهود يوسف بن تاشفين في وحدة تامة مع المغرب، وتكونان معا دولة قوية عاصمتها مدينة مراكش المغربية. وانهارت بذلك أحلام الفونسو السادس بإنهاء الوجود العربي الإسلامي في الأندلس، واستمر ذلك الوجود لنحو أربعة قرون أخرى، زهت فيها حضارة العرب المسلمين، وبلغت ذروتها في الرفعة والتقدم.

---

(45) ينظر: ابن الكردبوس، المصدر السابق، ص106؛ ابن خلدون، المصدر السابق، 6/ 187.

(46) الحلل الموشية، ص73 ـ 76؛ وينظر، إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ط2، الدار البيضاء، دار الرشاد الحديثة، 1984، 1/ 164 ـ 165.

جريدة المصادر والمراجع

أ ـ المصادر الأولية:

* ابن الأبار، محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي.

1 ـ الحلة السيراء، تحقيق، حسين مؤنس، القاهرة، 1963.

* ابن الأثير، عز الدين علي بن أبي الكرم.

2 ـ الكامل في التاريخ، بيروت، دار صادر، 1979.

* ابن بسام،أبو الحسن علي بن بسام الشنتريتي.

3 ـ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، 1978.

* ابن بلقين، الأمير عبد الله بن بلقين.

4 ـ كتاب التبيان، نشره ليفي بروفنسال بعنوان: مذكرات الأمير عبد الله، القاهرة، دار المعارف، 1955.

* الحميري، أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم.

5 ـ كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق، حسين يوسف خريوش، الأردن، الزرقاء، مكتبة المنار، 1989.

* ابن الخطيب، لسان الدين محمد.

7 ـ كتاب أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، نشره ليفي بروفنسال بعنوان: تاريخ إسبانيا الإسلامية، ط2، بيروت، دار المكشوف، 1956.

* ابن أبي زرع، علي بن أبي زرع الفاسي.

8 ـ الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط، دار المنصور للطباعة والوراقة، 1972.

* ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد.

9 ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت، مؤسسة جمال للطباعة عن طبعة بولاق، 1867.

* ابن خلكان، أحمد بن محمد بن أبي بكر.

10 ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق، إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، (د.ت).

* ابن عذاري، أبو العباس أحمد بن محمد المراكشي.

11 ـ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، بيروت، دار الثقافة، 1967.

* ابن الكردبوس، أبو مروان عبد الملك.

12 ـ تاريخ الأندلس، نشر، أحمد مختار العبادي، مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، العدد 13، 1965 ـ 1966.

* مجهول المؤلف.

13 ـ كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق، سهيل زكار وعبد القادر زمامة، الدار البيضاء، دار الرشاد الحديثة، 1979.

* المراكشي، عبد الواحد بن علي.

14 ـ المعجب في تلخيص أخبار المغرب، نشر، محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، ط7، الدار البيضاء، دار الكتاب، 1978.

ب ـ المراجع الثانوية:

* الحجي، عبد الرحمن علي.

15 ـ التاريخ الأندلسي، بيروت، دمشق، دار القلم، 1976.

* حركات، إبراهيم.

16 ـ المغرب عبر التاريخ، ط2، الدار البيضاء، دار الرشاد الحديثة، 1984.

* السامرائي، خليل إبراهيم.

17 ـ علاقات المرابطين بالممالك الإسبانية بالأندلس وبالدول الإسلامية، بغداد، دار الحرية للطباعة، 1985.

* الطيبي، أمين توفيق.

18 ـ «وقعة الزلاقة المجيدة» منشورة ضمن كتاب، دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، ليبيا ـ تونس، الدار العربية للكتاب، 1984.

* العبادي، أحمد مختار.

19 ـ في التاريخ العباسي والأندلسي، بيروت، دار النهضة العربية، 1972.

* ابن عبود، محمد بن عبود.

20 ـ «معركة الزلاقة والواقع الأندلسي» منشورة ضمن كتاب: مباحث في التاريخ الأندلسي ومصادره، الرباط، منشورات عكاظ، 1989.

* نصر الله، سعدون عباس.

21 - دولة المرابطين في المغرب والأندلس، بيروت، دار النهضة العربية، 1985.
* الهرفي، محمد سلمان.
22 - دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف بن تاشفين، بيروت، دار الندوة الجديدة، 1985.

الموحدون: مدخل لدورهم السياسي والحضاري في الغرب الإسلامي



قدم هذا البحث إلى الموسوعة الإسلامية
في جمهورية مصر العربية، ونشر في مجلة التربية والعلم
المجلد التاسع - العدد الثاني - الموصل 2002

قامت دولة الموحدين نتيجة لجهود طائفة دينية إصلاحية، كونها محمد ابن عبدالله بن تومرت، الذي ينتمي إلى قبيلة هرغة، إحدى فروع مصمودة، في السوس بالمغرب الأقصى[1]. ولد هذا الرجل قريبا من عام 473هـ/ 1080م، في قرية (إيجلي إن وارغن) من أسرة معروفة بالتقوى والورع، وقد

(1) تنظر ترجمته عند: عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق: محمد سعيد العريان ومحمد العلمي، ط7، الدار البيضاء، دار الكتاب، 1978، ص262، فما بعدها؛ عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم المعروف بابن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت، دار صادر، 1979، 10/ 569 - 577؛ أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق، إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة (د.ت): 5/ 45 - 55؛ عبد المجيد النجار، المهدي بن تومرت، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1983، ص21 - 158.

نسب نفسه إلى البيت العلوي عن طريق الأدارسة[2]، وإن كان هناك من يرتاب في هذا النسب[3]. عُرف ابن تومرت بتوجهه إلى الدراسة والعلم منذ الصغر، فدرس في بلده، ثم خرج مهاجرا من المغرب في طلب العلم في بداية القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد. فمر بالأندلس، ومنها توجه إلى المشرق، حيث قضى نحو عشر سنوات، التقى خلالها بعدد كبير من العلماء، أمثال أبي بكر الطرطوشي، وأبي بكر الشاشي، والكيا الهراسي، والمبارك بن عبد الجبار، وأبي حامد الغزالي[4]. ولكن هناك من يشكك في لقائه للغزالي وينفي اجتماعه به[5].

ومهما يكن من أمر، فان ابن تومرت لا بد وأن قرأ كتب الإمام الغزالي في بغداد، واتصل بالمدارس الفكرية المختلفة التي كانت سائدة في المشرق، كالأشاعرة، والمعتزلة، والشيعة، وغيرها من المذاهب. وأكب بالخصوص على دراسة فقه أبي الحسن الأشعري، لا سيما علم الكلام، الذي يتصدى لتأويل المتشابه من الآيات القرآنية الكريمة. وكان هذا العلم محرما من قبل المرابطين في المغرب[6]. وبالإضافة إلى هذه الثروة العلمية الزاخرة التي حصل عليها ابن تومرت في اثناء رحلته المشرقية، فإنه اطلع على أحوال العالم الإسلامي، وأدرك ظروف الانهيار التي كانت تعانيها دول

---

(2) ينظر: المراكشي: المصدر السابق، ص262.

(3) ينظر: علي بن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط، دار المنصور للطباعة والوراقة، 1972، ص172.

(4) ابن خلكان، المصدر السابق: 5/ 46؛ مجهول، كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق: سهيل زكار وعبد القادر زمامة، الدار البيضاء، دار الرشاد الحديثة، 1979، ص140.

(5) ينظر: المراكشي، المصدر السابق، ص263؛ ابن الأثير، المصدر السابق، 10/ 569؛ ويقارن: روجي لي تورنو، حركة الموحدين في المغرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، ترجمة، أمين الطيبي، ليبيا ـ تونس، الدار العربية للكتاب، 1982، ص16.

(6) المراكشي، المصدر السابق، ص270.

إمارات بلاد المغرب، مثل الزيديين في المغرب الأدنى، وبني حماد في المغرب الأوسط، والمرابطين في المغرب الأقصى، واقتنع بأن الإسلام، لا سيما في المغرب الأقصى لم يكن كما ينبغي أن يكون، وأن واجبه الدعوة لإصلاح هذه الحال، والتخطيط لإقامة دولة إسلامية قوية، تستولي على مقاليد الأمور(7).

ابتدأ ابن تومرت دعوته بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في أثناء عودته إلى المغرب، فتعرض لغضب السلطات الفاطمية في مصر، حيث نفي وأرسل على متن إحدى السفن المتوجهة إلى المغرب. وجرت له في مختلف الأماكن التي وصلها وقائع مع الفقهاء والسلطات والناس، تشير إلى صلابته، وشدة تمسكه في النهي عن المنكر، لا سيما في تونس، وقسنطينة، وبجاية(8). وفي المدينة الأخيرة، التي وصلها عام 511هـ/ 1117م، أغلظ لأميرها وأتباعه القول، كما تعرض لتغيير بعض المنكرات في الطريق، مما أدى إلى هيجة أنكرها الأمير والناس، فأتمروا به، ففر من المدينة، والتجأ إلى ضيعة ملالة، التي تبعد بضعة أميال عن بجاية، حيث احتمى ببعض بطون قبائل صنهاجة التي آوته ومنعته(9).

وفي ملالة التقى بالرجل الذي سيخلفه، ويصبح المؤسس الحقيقي لدولة الموحدين، وهو عبد المؤمن بن علي، الذي كان موطنه سلسلة جبال ترارة الساحلية غربي وهران، وكان في طريقه مع عمه للذهاب إلى المشرق. ولكن ابن تومرت استطاع أن يقنعه بالتخلي عن رحلته، وملازمته، ومن ثم

(7) يقارن: مراجع عقيلة الغناي، سقوط دولة الموحدين، بنغازي، منشورات جامعة بنغازي، 1975، ص37 ـ 38.

(8) ينظر: أبو بكر بن علي الصنهاجي المكنى بالبيذق، أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، الرباط، دار المنصور للطباعة والوراقة، 1971، ص11، 12، 13.

(9) عبد الرحمن بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، 1979، 6/ 227.

التوجه معه إلى المغرب. وفي الطريق استمر ابن تومرت في عادته بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وجرت له في مدن المغرب التي دخلها أيضا مشاكل وأحداث متعددة مع الفقهاء والسلطات، لا سيما في وجدة، وفاس، ومكناسة، وسلا، وأخيرا في مراكش عاصمة المرابطين[10]. ووصلت جرأة ابن تومرت حدها في هذه المدينة، حتى أنه نهى أخت الأمير نفسها لسفورها، وانتقد الأمير علي بن يوسف بن تاشفين في مجلسه، كما دخل مع فقهاء المالكية في جدال كاد أن يؤدي به إلى القتل أو السجن، وفر بعد ذلك إلى أغمات، ومنها إلى منطقة السوس، حيث ارتمى بين أحضان قبيلة هرغة[11].

استقر ابن تومرت في تنملل، وهي بلدة في أعلى وادي نفيس، وفيها أنشأ رباطا للعبادة، وألف عقيدته التوحيدية باللسان البربري، حتى يسهل فهمها على قومه البربر، فانتشرت دعوته بين القبائل. ولما استوثق من قوته أخذ يبشر بفكرة المهدي، حتى اقتنع به أصحابه، وبايعوه على أنه المهدي المنتظر. ثم صنف لهم كتبا في العلم، منها كتاب سماه (أعز ما يطلب)، وعقائد أصول الدين. وقد نظم المهدي الموحدين في طبقات، فجعل منهم العشرة، وهم المهاجرون الأولون الذين أسرعوا إلى إجابته، ويسمون بالجماعة. وكان منهم كبار شيوخ القبائل المصمودية وغير المصمودية، بالإضافة إلى خاصة أصحابه ممن يثق في قدراتهم الشخصية، أمثال عبد المؤمن بن علي، والبشير الونشريسي، والشيخ عمر بن يحيى كبير شيوخ هنتاتة. أما الطبقة الثانية، فهي طبقة الخمسين[12]، وهم الأنصار من أتباعه،

(10) تنظر تفاصيل هذه الأحداث عند: البيذق، المصدر السابق، ص16 ـ 26؛ النجار، المرجع السابق، ص95 فما بعدها.

(11) ابن خلكان، المصدر السابق: 5/ 49 ـ 51.

(12) المراكشي، المصدر السابق، ص275 ـ 276.

ثم طبقة السبعين[13]، وبعدها طبقة الطلبة، وطبقة الحفاظ، وطبقة أهل الدار، وسبع طبقات أخرى تضم قبائل مختلفة. وكان يسمي أتباعه بالمؤمنين والموحدين[14]، لأنهم أول من تحدث في التوحيد وعلم الكلام بالمغرب، وكان ذلك محرَّما في عهد المرابطين، كما أسلفنا.

استغل ابن تومرت تحريم المرابطين لعلم الكلام، وعدم تأويلهم للآيات القرآنية التي تتصل بذات الله، كوجه الله، ويد الله، والاستواء على العرش، فاتهمهم بالتجسيم والكفر، لأنهم يضيفون صفات بشرية ومادية على ذات الله، كما يزعم. وهكذا استطاع أن يظهر المرابطين كفارا في أعين رعيتهم، ومن ثم يحل للموحدين قتالهم. فبدأ بعد تنظيم الموحدين ضمن الطبقات التي أسلفنا الإشارة إليها، في مواجهة دولة المرابطين مواجهة مباشرة. فاستطاع أن يهزم قواتهم في معارك متعددة، الأمر الذي أدى إلى تحطيم معنوياتهم. وتمكن الموحدون من فرض السيادة على القبائل التي تقطن منطقة السوس كلها خلال السنوات 516 ـ 518هـ/ 1122 ـ 1124م. ثم توالت المعارك بين الطرفين، وتشجع الموحدون نتيجة انتصاراتهم، فنزلوا إلى السهول وهاجموا عاصمة المرابطين مراكش في عام 524هـ/ 1130م، لكنهم هزموا أمام أسوارها، وقتل قائدهم أبو محمد البشير الونشريسي، أحد أصحاب المهدي العشرة، في معركة البحيرة، واستطاع عبد المؤمن بن علي

---

(13) ابن القطان، نظم الجمان في أخبار الزمان، تحقيق، محمد علي مكي، تطوان، 1965، ص30.

(14) المراكشي، المصدر السابق، ص276؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص177؛ الحلل الموشية، ولزيادة المعلومات عن هذه الطبقات، ينظر: شارل اندريه جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، تعريب، محمد مزالي والبشير بن سلامة، تونس، الدار التونسية للنشر، 1985، 2/ 130 ـ 132؛ عبد الله علي علام، الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، القاهرة، دار المعارف، 1968، ص67 ـ 70؛ ويراجع عقيلة الغناي، قيام دولة الموحدين، بنغازي، المكتبة الوطنية، 1971، ص228 ـ 235.

أن ينسحب مع بقايا الجيش إلى حصن تنملل[15]. وعلى أثرها توفي ابن تومرت، وتولى الأمر بعده عبد المؤمن بن علي.

وعلى الرغم من أن ابن تومرت لم يحقق النجاح في الإطاحة بدولة المرابطين، لكنه كان قد صنع أداة النصر بتوحيده للقبائل المتفرقة التي كانت تعيش في منطقة جبال الأطلس. وما أن انقضت بعض السنين حتى نمت هذه الجماعة نموا سريعا بقيادة عبد المؤمن بن علي، الذي لم يكن ينتمي إلى أي من قبائل جبال الأطلس، فقد ولد في قرية تاجرا من أعمال مدينة تلمسان، من أسرة بربرية تنتسب إلى قبيلة كومية البترية. وقد استفاد عبد المؤمن من تجربة الموحدين في معركة البحيرة، فقضى نحو عشر سنوات في الاستعداد البطيئ قبل أن يهاجم المرابطين في أراضيهم مرة أخرى. وكانت أعمال الموحدين في هذه المدة تقتصر على الدعاية، والقيام بغارات محدودة على القبائل في المناطق الجبلية المجاورة، وفي المنطقة الجنوبية المتاخمة للصحراء[16].

وفي سنة 535هـ/ 1141م غادر عبد المؤمن تنملل زاحفا نحو الشمال، فسار ببطء متجنبا بانتظام ملاقاة المرابطين في ساحة القتال، بل وطد سلطانه في سائر أنحاء سلاسل جبال المغرب الأقصى، مبتدئاً بالأطلس الأعلى، ثم الأطلس الأوسط، ثم الريف، وأخيرا السلسلة الجبلية الواقعة جنوبي تلمسان. وقد استمرت هذه الحملة نحو سبع سنين، أبدى فيها عبد المؤمن ضروب الحيلة والمهارة العسكرية، مما جعل الجيش المرابطي يحل به الوهن والإعياء دون أن يكثر من التعرض له في معارك مهمة[17]. وفي اثناء هذه الحملة لم يقتصر عبد المؤمن على الاستيلاء على الأراضي، بل عمل على

(15) المراكشي، المصدر السابق، ص282 ـ 283؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص 178 ـ 189؛ الحلل الموشية، ص116.

(16) البيذق، المصدر السابق، ص47 ـ 49.

(17) المصدر نفسه، ص49 فما بعدها؛ وينظر: علام، المرجع السابق، ص117.

كسب الأنصار لعقيدة الموحدين، فضلا عن تجنيد المحاربين من القبائل الجبلية. وهكذا استطاع أن يعزز جنوده ويشطر أراضي المرابطين إلى شطرين في ناحية تازا. ثم توالت انتصاراته، فدخل مدينة تلمسان، وافتتح فاس ومكناسة، وأخيرا تمكن من دخول مراكش عاصمة المرابطين في سنة 541هـ/ 1147م، حيث قتل آخر أمرائها إبراهيم بن تاشفين، وأعوانه[18]. فانهارت دولة المرابطين التي سجلت صفحات رائعة في نصرة الإسلام بالأندلس، وأنشأت دولة كبرى شملت الأندلس والمغربين الأوسط والأقصى.

وبعد أن تم للموحدين القضاء على دولة المرابطين، والسيطرة على ممتلكاتها، ثم القضاء على بعض القبائل الثائرة، والزعماء المتمردين، لا سيما في جنوب المغرب الأقصى (إقليم السوس)، أخذ الخليفة عبد المؤمن بن علي ومستشاريه يفكرون في تنفيذ المرحلة الثانية من مخططهم الرامي إلى السيطرة على كل المغرب العربي، ومن ضمنه بلاد الأندلس الإسلامية. وقد شمل توسع الموحدين في المغرب العربي مملكة بني مناد الصنهاجية بفرعيها، آل حماد في الجزائر، وآل زيري في إفريقية. وكانت ظروف هذه المنطقة قد تدهورت، لا سيما بعد زحف القبائل العربية من بني هلال خلال النصف الأول من القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد. يضاف إلى ذلك سيطرة الأساطيل النورماندية على أجزاء واسعة من الساحل الإفريقي الممتد من طرابلس الغرب شرقا إلى بونة غربا، واحتلالهم لمدينة المهدية عاصمة آل زيري عام 543هـ/ 1148م. ولما ترامت هذه الأخبار إلى خليفة الموحدين، ووصلت وفود مسلمي إفريقية إليه، قرر

---

(18) للاطلاع على تفاصيل هذه المعارك والصراع بين المرابطين والموحدين ينظر: البيذق، المصدر السابق، ص63 فما بعدها؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص188 ـ 189؛ الحلل الموشية، ص136فما بعدها؛ محمد عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1964، القسم الأول، ص254 فما بعدها؛ الغناي، قيام دولة الموحدين، ص295 فما بعدها.

فتح المغرب الأدنى. وكان هذا الأمر يتطلب المرور خلال أراضي آل حماد في الجزائر.وفعلا باغت الجيش الموحدي المغرب الأوسط، على وفق خطة عسكرية مدروسة، فدخل مدينة الجزائر الحالية، وكانت تسمى (جزائر بني مزغنّة)، فهرب حاكمها إلى أبيه في بجاية. وقد وصل الموحدون إلى هذه المدينة وسيطروا عليها عام 547هـ/ 1152م، كما سيطروا أيضا على قلعة بني حماد التي كانت من أحصن القلاع، وتحتل مكانة العاصمة الثانية بعد بجاية[19].

نصب عبد المؤمن بن علي ابنه عبدالله واليا على المغرب الأوسط، وحاول هذا الأخير افتتاح تونس، إلا أن أميرها، ابن خراسان استطاع أن يهزم الجيش الموحدي[20]. فقرر الخليفة عبد المؤمن فتح المغرب الأدنى بنفسه، فسار في صفر عام 554هـ/ 1159م نحو تونس التي استسلمت للموحدين. وكان النورمان في ذلك الوقت يحتلون مدينة المهدية، فاستطاع أن يطوقهم، وفي أثناء الحصار، استولى على صفاقس، وقابس، وجبال نفوسة، وطرابلس، وقفصة. واستمر حصاره للمهدية ستة أشهر، وانتهى باستسلام النورمان، وخروجهم منها سنة 555هـ/ 1160م، وبها تم استيلاء الموحدين على إفريقية[21]. وقد عُرف هذا العام في تاريخ المغرب بسنة الأخماس، وهي سنة توحيد المغرب كله من المحيط الأطلسي إلى قفصة تحت راية الموحدين[22]، كما هي سنة عبور الجيش الموحدي إلى الأندلس، وبناء مدينة جبل طارق (حصن جبل طارق)[23].

(19) ينظر: المراكشي، المصدر السابق، ص298 ـ 303؛ ولمزيد من التفاصيل ينظر: عبد الحليم عويس، دولة بني حماد، بيروت، دار الشروق، 1980، ص193 فما بعدها.

(20) المراكشي، المصدر السابق، ص334.

(21) ينظر: إبراهيم حركات، المغرب عبر العصور، ط2، الدار البيضاء، دار الرشاد الحديثة، 1984، 263/1.

(22) حسين مؤنس، معالم المغرب والأندلس، مصر، دار ومطابع المستقبل، 1980، ص190.

(23) عبد الملك بن صاحب الصلاة، تاريخ المن بالإمامة، تحقيق، عبد الهادي التازي،=

وتعود علاقة الموحدين بالأندلس إلى عام 541هـ/ 1147م حينما عبر جيش موحدي للإطاحة بسلطة المرابطين فيها، والقضاء على الزعامات المحلية التي برزت في أواخر عهد المرابطين. وقد حفز الموحدين على العبور، إضافة إلى محاولاتهم لحماية الإسلام فيه، وحماية عدوة المغرب من أي هجوم مرابطي محتمل من الأندلس، الدعوات الرسمية والشعبية التي وصلتهم من الحكام والعلماء الذين رحبوا بقدومهم. وقد استطاع الموحدون أن يسيطروا على جنوب وغرب الأندلس[24]. كما انشغلوا بالقضاء على بعض التمردات فيه، لا سيما في منطقة اشبيلية، في الوقت الذي كانوا فيه منهمكين في حروبهم في المغرب الأقصى. وبذلك تشتّتت قوتهم أمام هذه التحديات، ولكن مع هذا نجح الموحدون في وضع جميع أملاك المرابطين تحت سيطرتهم، باستثناء شرق الأندلس، قبل حلول عام 545هـ/ 1152م.

وكان شرق الأندلس بيد أحد الزعماء المتنفذين، وهو محمد بن سعد ابن مردنيش، الذي استقل بالمنطقة وتعاون مع الممالك الإسبانية[25]. وقد استغل انصراف الخليفة عبد المؤمن بن علي في حروبه في إفريقية، للتوسع في ممتلكاته نحو الغرب، وتهديد بعض المدن الرئيسة، مثل قرطبة، واشبيلية، وغرناطة، وقرمونة. ولم يكن خليفة الموحدين ليسمح بمثل هذا الموقف، فبادر بالأمر ببناء قاعدة عسكرية في جبل طارق، عُرفت باسم مدينة الفتح. وبعد إنجازها، عبر الخليفة عبد المؤمن بن علي إلى الأندلس لأول مرة، وتدارس أمرها مع أعوانه، وأصدر أوامره للجيش الموحدي

= بيروت، دار الأندلس، 1964، السفر الثاني، ص139 فما بعدها؛ أبو العباس أحمد بن خالد السلاوي، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصا، الدار البيضاء، 1954، 2/ 135.

(24) المصدر نفسه، 2/ 113 ـ 114؛ وينظر، عصمت عبد اللطيف دندش، الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين ـ عصر الطوائف الثاني، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1988، ص103 ـ 106.

(25) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص115، حاشية (1).

بمواصلة محاربة ابن مردنيش ومحاولة القضاء عليه[26].

وهكذا تمكن الموحدون بعد عناء كبير من دحر ابن مردنيش وإبعاده نحو الشرق وتخليص بعض المدن من قبضته، لا سيما غرناطة، لكنهم لم يستطيعوا القضاء نهائيا على حركته. وفكر الخليفة في عملية عسكرية ضخمة للقضاء على ابن مردنيش وحلفائه من الممالك الإسبانية. فنقل العاصمة من اشبيلية إلى قرطبة، وأمر بإعداد قطع بحرية جديدة إضافة إلى الأسطول الموحدي. وبلغت هذه القطع المنشاة في دور صناعة السفن في سواحل العدوة والأندلس نحو مئتي قطعة. كما أعد التموينات اللازمة للجيش، واستكثر من جلب الخيول، والأسلحة، وقسم كل ذلك على الموحدين[27].

خرج الخليفة عبد المؤمن بن علي من عاصمته مراكش عام 558هـ/ 1163م بجيش قدَّر ابن صاحب الصلاة عدده بنحو مئة ألف راجل، ومئة ألف فارس[28]. وتقرر في مجلس الحرب الذي عقده الخليفة في رباط الفتح، تقسيم الجيش الموحدي إلى أربعة أقسام، وتوجيهها إلى أربع جهات مختلفة في الأندلس، تشمل مناطق نفوذ الممالك الإسبانية المختلفة في شبه الجزيرة الآيبيرية ومدنها الرئيسة، مثل قلمرية، وليون، وطليطلة وبرشلونة[29]. ولكن مرض الخليفة المفاجئ، عطل تنفيذ هذا المشروع الضخم، وتريث الموحدون بانتظار شفائه، لكنه توفي في جمادى الآخرة عام 558هـ/ 1163م، وحُمل إلى تنملل، حيث دفن بجوار قبر المهدي بن تومرت[30].

(26) المصدر نفسه، ص147 فما بعدها؛ وينظر: عنان، المرجع السابق، ص377 فما بعدها.

(27) تاريخ المن بالإمامة، ص213 ـ 214.

(28) المصدر نفسه، ص218.

(29) المصدر نفسه، ص219 ـ 220.

(30) المصدر نفسه، ص222 ح ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص202؛ أبو العباس أحمد ابن محمد بن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب/ قسم الموحدين، تحقيق، محمد إبراهيم الكتاني ورفاقه، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1985، ص79.

لم تقتصر أعمال الخليفة عبد المؤمن بن علي على الحروب وتوسيع رقعة الدولة حسب، بل إنه كان مهتما بتنظيم البلاد التي سيطر عليها. فتشير رواية ابن أبي زرع[31]، إلى أنه أمر في سنة 555هـ/ 1160م بأجراء مسح عام لجميع الأراضي التابعة لدولة الموحدين من برقة إلى السوس الأقصى، وفرز المناطق القابلة للزراعة عن الغابات والأراضي القاحلة، حتى يتسنى جباية الضرائب على أساس سليم. كما احتفظ عبد المؤمن بالنظم التي أقامها ابن تومرت لطائفة الموحدين، وأدخل تحسينات عليها، لا سيما بالنسبة لطبقة الحفاظ، الذين أولاهم عناية خاصة، وأمر بتدريبهم على ركوب الخيل، واستخدام الأسلحة، والسباحة. واستفاد منهم بعد ذلك لتولي المناصب الإدارية، بدل أشياخ المصامدة. وقد علل عبد المؤمن إجراءه هذا، بأن العلماء أولى من غيرهم في تولي هذه المناصب[32].

وعلى الرغم من مزايا عبد المؤمن بن علي وإيجابياته، إلا أنه اتخذ بعض الإجراءات التي كان يعتقد أنها ستعزز من قوة الموحدين، لكنها أثبتت على المدى البعيد خطأها، وتسببت في انهيار الدولة الموحدية. وأول هذه الإجراءات إدخال بعض القبائل البدوية العربية من بني هلال إلى المغرب الأقصى، وذلك بعد أن تمت هزيمتهم على يده، ففكر في استخدامهم في الجهاد في الأندلس، وأقنعهم بذلك[33]. وكان هذا الإجراء سليما في حينه، لكنه أصبح كارثة على الدولة وأسرة عبد المؤمن الحاكمة في أواخر أيامها. حيث أضحت هذه القبائل في مركز يمكنها من التدخل في السياسة العامة، وأصبحت عاملا من عوامل الفوضى وعدم الاستقرار[34]. كذلك استجاب عبد المؤمن لطلب بعض مشاوريه أن يسمي أحد أبنائه وليا للعهد، مما أدى إلى

(31) الأنيس المطرب، ص198 ـ 199.

(32) الحلل الموشية، ص150 ـ 151.

(33) علام، المرجع السابق، ص236 ـ 237، 262.

(34) يقارن: روجي لي تورنو، المرجع السابق، ص69 ـ 70.

تمرد اثنين من إخوة المهدي بن تومرت ومحاولتهما الاستيلاء على السلطة في مراكش. كما قام عبد المؤمن بالاستجابة إلى بعض أشياخ الموحدين، بعد امتناع، لتعيين أبنائه على الولايات الرئيسة في الدولة[35].

وهكذا لم تعد دولة الموحدين قائمة بثبات على حركة الموحدين، بل تحولت إلى إمبراطورية وراثية لمصلحة أسرة الخليفة عبد المؤمن بن علي. وأصبح زعماء الموحدين وأشياخهم أشبه بموظفين يلقون بالغ الترحيب والحفاوة من الخلفاء دون أن يكون لهم نفوذ حقيقي. كما ازدادت النزعة الإقليمية لدى سكان المناطق المختلفة من القبائل البربرية نتيجة لهذه الإجراءات. وأدرك المصامدة بالذات ابتعاد عبد المؤمن من الاعتماد عليهم، لا سيما بعد استعانته بالعرب من بني هلال، ووصول تعزيزات كبيرة من قبيلة كومية[36]، مما عزز شعور الموحدين بأن الدولة لم تعد دولتهم، ففتر حماسهم القديم الذي أثاره المهدي بن تومرت، الأمر الذي انعكس سلبا على قوة الدولة فيما بعد[37].

ومع هذا، ففي فترة الخمسين سنة الأولى التي أعقبت وفاة عبد المؤمن ابن علي سنة 558هـ/ 1163م، عاشت الدولة الموحدية، وهي تتمتع بالقوة، مرهوبة الجانب من أعدائها. وتعاقب في هذه المدة على الحكم ثلاثة خلفاء هم: أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، الذي حكم من عام 558 ـ 580هـ/ 1163 ـ 1184م، وأبو يوسف يعقوب المنصور، الذي حكم من عام 580 ـ 595هـ/ 1184 ـ 1199م، ومحمد بن يعقوب الناصر، الذي حكم من عام 595 ـ 610هـ/ 1199 ـ 1213م.

وقد تابع أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن سياسة والده، واختار كبار المسؤولين في الدولة من المصامدة والأسرة الحاكمة، لكنه جوبه بمشاكل

(35) الحلل الموشية، ص151.

(36) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص201 ـ 202.

(37) يقارن: روجي لي تورنو، المرجع السابق، ص70 ـ 77.

داخلية في بداية حكمه، منها رفض اثنين من إخوته أن يقسما يمين الولاء له، وإعلانهما المعارضة التي استمرت نحو سنتين. كما شقت بعض القبائل بالمغرب الأقصى عصا الطاعة، مثل غمارة وغيرها، وثارت مدينة قفصة في إفريقية[38]. إلا أن أبا يعقوب تمكن إما عن طريق الدبلوماسية الماهرة، أو عن طريق القوة الغاشمة من تذليل هذه العقبات، واتخذ لنفسه لقب أمير المؤمنين سنة 562هـ/ 1167م[39].

أما سياسة الموحدين إزاء الأندلس في عهد أبي يعقوب يوسف، فكانت تهدف إلى استكمال السيادة الموحدية على أراضيه، وذلك بالقضاء على إمارة محمد بن مردنيش في شرق الأندلس، والعمل على الحد من أطماع الممالك الإسبانية. وتنفيذا لهذه السياسة، فقد أرسل أبو يعقوب حملة عسكرية إلى الأندلس في عام 560هـ/ 1164م لتعزيز دفاعات بعض المدن ضد هجمات الممالك الإسبانية، ولوضع حد لانشقاق محمد بن مردنيش. وقد تمكنت قوات الموحدين من الانتصار عليه، وإخضاع شرق الأندلس للدولة الموحدية[40]. وفي عام 566هـ/ 1170م عبر أبو يعقوب بنفسه إلى الأندلس، وبقي فيها زهاء خمس سنوات محاربا للمالك الإسبانية النصرانية، إلا أنه لم يحرز نصرا حاسما، واضطر إلى عقد معاهدة صلح مع ملك ليون فراندة الثاني المعروف بالببوج. ولكن الأخير خرق هذه المعاهدة، واستمرت اعتداءات الممالك الإسبانية على مدن الأندلس، الأمر الذي أدى إلى عبور أبو يعقوب مرة أخرى إلى الأندلس عام 580هـ/ 1184م، واتجاهه صوب مدينة شنترين (في البرتغال الحالية) لتحريرها، إلا أنه أمر بالانسحاب فجأة

(38) المراكشي، المصدر السابق، ص364 ـ 365.

(39) ينظر: الرسالة الرابعة والعشرون ضمن (مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية)، اعتنى بإصدارها، ليفي بروفنسال، رباط الفتح، 1941.

(40) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص269 فما بعدها.

قبل افتتاحها، ثم أصيب في المعركة التي تلت ذلك، وتوفي في عام 580هـ/ 1184م[41].

استمر ابنه أبو يوسف يعقوب المنصور بالاهتمام بالأندلس والتصدي لرد اعتداءات الممالك الإسبانية عليها. فعبر إليها مرتين: الأولى عام 586هـ/ 1190م استطاع خلالها استرجاع مدينتي شلب، وقصر أبي دانس من البرتغاليين[42]. وتصدى في الثانية عام 591هـ/ 1195م لملك قشتالة الفونسو الثامن، قرب حصن الارك عند قلعة رباح، فكان النصر للموحدين[43]. وبعدها عقدت هدنة بين الطرفين ابتداء من عام 594هـ/ 1198م ولمدة عشر سنوات أو أكثر[44]. وقبل انتهاء مدة الهدنة، قام ألفونسو الثامن بمعاونة الأرغوانيين، بمهاجمة الأراضي الأندلسية، فاستنجد أهل الأندلس بالخليفة الموحدي الجديد محمد الناصر، الذي تولى بعد وفاة والده يعقوب المنصور سنة 595هـ/ 1198م. فعبر إلى الأندلس عام 607هـ/ 1212م، والتحم بالقوات الإسبانية في وقعة العقاب عام 609هـ/ 1212م، التي منيت فيها القوات الموحدية بهزيمة منكرة، وعاد الخليفة الموحدي إلى مراكش، حيث توفي عام 610هـ/ 1213م[45]، ربما كمدا من هذه الهزيمة التي عدت نذيرا لبداية ضعف الدولة الموحدية.

---

(41) المراكشي، المصدر السابق، ص372 ـ 377 ح ابن عذاري، البيان الموحدي، ص662 ـ 164.

(42) المراكشي، المصدر السابق، ص402 ـ 403 ح ابن عذاري، البيان الموحدي، ص210 ـ 212.

(43) المصدر نفسه، ص196؛ المراكشي، المصدر السابق، ص358 ـ 360؛ عنان، المرجع السابق، ص196فما بعدها.

(44) المراكشي، المصدر السابق، ص404 ـ 407؛ ابن عذاري، البيان الموحدي، ص218 ـ 221.

(45) المراكشي، المصدر السابق، ص456 ـ 459؛ ابن عذاري، البيان الموحدي، ص258 ـ 265.

عقد الخليفة الموحدي الجديد يوسف بن محمد الملقب بالمنتصر بالله معاهدة سلام أخرى مع القشتاليين، إلا أن الخطر جاء هذه المرة من قبل إمارة البرتغال، التي سيطر ملكها الفونسو الثاني على قصر أبي دانس عام 614هـ/ 1217م[46]. ونتيجة لوفاة الخليفة المنتصر بالله فجأة في عام 620هـ/ 1223م، حصل تبدل سريع خلال الأعوام من 620 ـ 640هـ/ 1223 ـ 1242م في تنصيب خلفاء الموحدين[47]، مما أدى إلى عبث ملوك الإسبان في الأراضي الأندلسية، وسيطرتهم على كثير من المدن والحصون. ومما زاد الأمر سوءا، ظهور زعامات محلية جديدة في منطقة المغرب، مثل بني مرين في المغرب الأقصى، وبني زيان في المغرب الأوسط، وبني حفص في إفريقية.

وقد انعكس هذا التمزق في وحدة المغرب على الوجود الموحدي في الأندلس، فسقطت جزر البليار بيد الأرغوانيين، كما قامت زعامات محلية في الأندلس، مثل محمد بن هود الجذامي في مرسيه، ومحمد بن يوسف ابن الأحمر، مؤسس مملكة غرناطة. وخلال المدة ما بين ضعف الدولة الموحدية، وقيام مملكة غرناطة نحو عام 635هـ/ 1237م أو بعدها، سقطت عدة مدن أندلسية بيد الممالك الإسبانية النصرانية، مثل قرطبة سنة 633هـ/ 1236م، وبلنسية سنة 636هـ/ 1238م، ودانية سنة 641هـ/ 1243م، وجيان سنة 643هـ/ 1245م، وشاطبة سنة 644هـ/ 1246م، واشبيلية سنة 646هـ/ 1248م. وهكذا لم يتبق للمسلمين في الأندلس سوى بعض المناطق في جنوب

(46) أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي المعروف بابن الأبار، الحلة السيراء، تحقيق، حسين مؤنس، القاهرة، الشركة العربية للطباعة والنشر، 1963، 2/ 295؛ وينظر أيضا ص272، هامش(1)؛ أبو عبدالله محمد بن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق، إحسان عباس، بيروت، مكتبة لبنان، 1975، ص475.

(47) ينظر: المراكشي، المصدر السابق، ص467، فما بعدها؛ ابن خلدون، المصدر السابق، 6/ 250فما بعدها.

البلاد، حيث قامت مملكة غرناطة، التي حافظت على الوجود الإسلامي في الأندلس لمدة تقرب من قرنين ونصف من الزمن[48].

وفضلا عن مواجهات الموحدين مع الممالك الإسبانية النصرانية في الأندلس، والزعامات المحلية في المغرب، كان عليهم، ومنذ فترة مبكرة، التعامل مع فرع مهم من المرابطين، وهم بنو غانية الذين ينتمون إلى قبيلة مسوفة الصنهاجية. لقد تمكن هؤلاء من إنشاء إمارة في جزر البليار، معترفين بسيادة الخليفة العباسي في بغداد[49]. وبعد أن تم إخضاع شرق الأندلس في عهد أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، دخل في مفاوضات مع بني غانية، لكنه لم يستطع إدماجهم في دولة الموحدين[50]. وقد استغل بنو غانية وفاة الخليفة أبي يعقوب سنة 580هـ/ 1184م، فهاجموا بجاية في الشمال الإفريقي، ثم استولوا على مدن الجزائر، ومليانة، وأشير، وقلعة بني حماد. وتمكنوا من محالفة بعض القبائل المغربية، والعربية، وأحد رجالات صلاح الدين الأيوبي في مصر، شرف الدين قراقوش، الذي نزل بقواته بالقرب من منطقة طرابلس[51].

وقد استطاع الخليفة يعقوب المنصور أن ينزل بهذا التحالف هزيمة منكرة في منطقة الحامة بالقرب من قابس عام 583هـ/ 1187م. ولكن خطر بني غانية ظل جاثما على دولة الموحدين، واستمروا في التمرد والسيطرة على بلاد إفريقية. وقد تجددت الحروب بينهم وبين الموحدين في عهد الخليفة محمد الناصر[52]، الذي رأى أنه لا يمكن لإفريقية أن تصمد في

(48) ينظر: خليل إبراهيم السامرائي ورفاقه، تاريخ المغرب العربي، الموصل، مديرية دار الكتب للطباعة والنشر، 1988، ص316 ـ 317.

(49) المراكشي، المصدر السابق، ص387.

(50) المصدر نفسه، ص388.

(51) ابن خلدون، المصدر السابق، 6/ 192.

(52) المراكشي، المصدر السابق، ص446 ـ 449؛ وينظر: ابن عذاري، البيان الموحدي، صص190، فما بعدها.

وجه بني غانية إلا إذا أُسندت مقاليدها إلى سلطة قوية متواجدة في المنطقة. فعين الشيخ أبا محمد عبد الواحد بن أبي حفص عمر اينتي، أحد أشياخ الموحدين، مسؤولا عاما عن المنطقة لمواجهة هجمات بني غانية والقبائل المعادية للموحدين(53). وهكذا أصبحت إفريقية في مأمن من خطر بني غانية الذين لم تنته حركاتهم تماما قبل عام 630هـ/ 1233م. إلا أن الثمن كان باهضا، ويتمثل في استقلال الوالي الحفصي استقلالا يكاد يكون كاملا، مما هيأ الظروف لتجزؤ دولة الموحدين.

وساعد تناحر أفراد البيت الموحدي من أجل تولي الخلافة، في وهن الدولة، لا سيما بعد وفاة يوسف المنتصر بالله عام 620هـ/ 1224م. وقد أجمع رأي أهل الكتل المتناحرة على مبايعة عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن، الذي كان في سن الشيخوخة ولم يحكم سوى عدة شهور، ثم خلع وقتل في عام 621هـ/ 1224م(54). وأعقبه عبد الله العادل، ابن يعقوب المنصور، الذي لم يطل به الأمد، فاغتيل في مراكش بعد استيلائه عليها سنة 624هـ/ 1227م(55). ثم تنازع اثنان من أسرة عبد المؤمن على العرش، أحدهما أبو العلاء إدريس بن يعقوب المنصور، الذي كان أميرا على اشبيلية، وأعلن نفسه خليفة، وتسمى بالمأمون بعد مقتل أخيه العادل. لكن أشياخ الموحدين لم يرتضوه، وبايعوا ابن أخيه يحيى بن محمد الناصر في مراكش(56). وهكذا أصبح للدولة خليفتان يتصارعان على السلطة. وقد نجح المأمون في العبور إلى المغرب والسيطرة على مراكش بعد إلحاق الهزيمة بيحيى بن محمد الناصر. وبدا المأمون عهده بقتل زعماء الموحدين الذين

(53) المراكشي، المصدر السابق، ص452؛ ابن عذاري، البيان الموحدي، ص245، 248 ـ 249.

(54) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص244 ـ 245.

(55) ابن عذاري، البيان الموحدي، ص269 ـ 273.

(56) المصدر نفسه، ص273 ـ 274.

ساندوا ابن أخيه[57]. كما أقدم على خطوة جريئة تعد الأولى من نوعها في تاريخ الدولة الموحدية، إذ أعلن بطلان إمامة المهدي الموحدي، وكذّب عصمته، وأرسل الكتب إلى كافة الولايات يوضح فيها هذا الأمر[58].

لقد أدى هذا الإجراء الذي اتخذه أبو العلاء المأمون إلى تفاقم مشاكل الموحدين، فعلى الرغم من اختلال الأمن بعد وفاة الخليفة المنتصر بالله، إلا أن الكيان الموحدي ظل قائما. ومن المحتمل أن تدعيمه كان ما يزال ممكنا، لأن المبادئ الأساسية للحركة بقيت كما هي. ولكن المأمون أنكر جزئيا عقيدة الموحدين الأساسية، فماذا بقي إذن من روح الحركة، لا سيما وأنها قامت على فكرة المهدي وعصمته بالذات؟[59] وقد استاء من موقف المأمون هذا كثير من الموحدين لا سيما أبو زكريا الحفصي، حفيد الشيخ أبي حفص، الوالي على إفريقية. فاحتفظ في خطبة الجمعة بالدعاء للمهدي بن تومرت، ومنع الدعاء للخليفة الموحدي، مما مهد السبيل إلى استقلال إفريقية التام في عهد الرشيد بن المأمون عام 634هـ/ 1236م. كما أعلن بنو عبد الواد أيضا استقلالهم، وهم قبيلة من البربر من زناتة، كانوا قد اعترفوا بسلطة الخليفة عبد المؤمن بن علي عام 539هـ/ 1145م، وحصلوا في مقابل ذلك على السيطرة على مقاطعة تلمسان. وتم استقلالهم في عهد الخليفة الرشيد تحت إمرة زعيمهم يغمراسن بن زيان[60]، الذي تمكن أيضا من الانتصار على الخليفة الذي أعقب الرشيد، وهو السعيد بن المأمون في معركة حربية بالقرب من تلمسان، حيث لقي مصرعه عام 646هـ/ 1248م[61].

(57) المصدر نفسه، ص285؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص251 ـ 252.

(58) الحلل الموشية، ص104 ـ 105؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص251.

(59) ينظر: روجي لو تورنو، المرجع السابق، ص109.

(60) ابن خلدون، المصدر السابق، 7/ 79؛ محمد بن عبد الله التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان ـ مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تحقيق، محمود عبيد، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985، ص116.

(61) المصدر نفسه، ص118، 119.

وساهم بنو مرين بقسط وافر في إضعاف دولة الموحدين، وهم قبائل رعوية كانت تقيم على تخوم الصحراء بين منطقتي فقيق والوادي الأوسط لنهر ملوية. وفي أيام قوة الموحدين، تعاونوا معهم، وساهموا في معارك الجهاد الموحدية بالأندلس ضد الممالك الإسبانية، التي تكللت بالانتصار في معركة الارك[62]. وبعد هزيمة الموحدين في موقعة العقاب شعروا بضعف دولة الموحدين، فزحفوا إلى المناطق الجبلية المحاذية للساحل في بلاد الريف بالمغرب الأقصى، وبدأ خطرهم يقلق الدولة الموحدية. وحاول الخلفاء ابتداء من يوسف المنتصر بالله (تولى سنة 610هـ/ 1213م) التصدي لهم والحد من أطماعهم في الاستيلاء على أراضي الموحدين، لكن معظم محاولاتهم باءت بالفشل، وأحرز المرينيون تقدما واضحا، وانتصارات متكررة على جيوش الموحدين، لا سيما بعد مقتل الخليفة السعيد سنة 646هـ/ 1248م بالقرب من تلمسان. فقد استغل المرينيون هذه الحالة، وهاجموا بقايا جيش السعيد في جهات تازا، ثم سيطروا على مكناسة، وفاس ومدينة سلا (رباط الفتح)[63].

إزاء هذا التوسع المريني، تصدى الخليفة عمر بن إسحاق المرتضى الذي تولى بعد السعيد، للمرينيين، لكنهم ألحقوا به الهزيمة عند أحواز فاس سنة 653هـ/ 1255م[64]. وبعد هذا الانتصار، استولى المرينيون على سجلماسة، ودرعة، وسائر بلاد الجنوب. وفي عهد أميرهم يعقوب بن عبد الحق، هاجموا مراكش العاصمة الموحدية عدة مرات، وساعدوا ابن عم الخليفة وقائد جنده إدريس الواثق المعروف بأبي دبوس، على طرد المرتضى

(62) ينظر عن بني مرين وأصلهم: إسماعيل بن الأحمر، روضة النسرين في دولة بني مرين، الرباط، المطبعة الملكية، 1968؛ علي بن أبي زرع الفاسي، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، الرباط، دار المنصور للطباعة والوراقة، 1972.

(63) ابن عذاري، البيان الموحدي، ص390 ـ 391، 396، 416.

(64) المصدر نفسه، ص407؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص258 ـ 259.

واعتلاء كرسي الخلافة. وأخيرا تمكنوا من دخول مراكش في المحرم من سنة 668هـ/ أيلول 1269م، وهزموا الخليفة الموحدي الأخير أبي دبوس وقتلوه، فانهار حكم الموحدين، وسقطت دولتهم[65]. والحقيقة أن دولة الموحدين لقيت حتفها في عام 646هـ/ 1248م، بعد أن أخفق الخليفة السعيد في استعادة هيبة الدولة، واندحر أمام بني عبد الواد في المغرب الأوسط. لكن الانهيار التام استغرق نحو ربع قرن بعد هذا التاريخ، كانت سلطة الخليفة الموحدي خلالها لا تتجاوز رقعة ضيقة مثلثة الشكل تقع بين وادي أم الربيع، وسلسلة الأطلس الأعلى والمحيط الأطلسي.

دامت دولة الموحدين نحو قرن ونصف من الزمن، ابتداء من استقرار المهدي بن تومرت في تنملل، وحتى مقتل آخر خلفائها أبي دبوس عام 668هـ/ 1248م. وعلى الرغم من اصطدامها بشتى المشاكل السياسية التي أشرنا إليها آنفا، لكنها نجحت في ضم إفريقية إلى المغرب، وبالتالي توحدت بلاد المغرب العربي لأول مرة منذ الفتح العربي الإسلامي تحت سلطة سياسية إسلامية واحدة. كما كان لظهورها في الأندلس أثر بارز في إبعاد الخطر الإسباني النصراني، ولولاها لوقعت تلك البلاد لقمة سائغة بيد النصارى منذ وقت مبكر. كذلك فإن تشجيع هذه الدولة على هجرة بني هلال، وسائر القبائل التي صاحبتهم من إفريقيا، قد عمل على تعريب مناطق واسعة من المغرب، لا سيما تلك التي استقروا فيها. فانضافت إلى المجتمع المغربي أفواج بشرية جديدة من العرب الذين عمروا سهول المغرب وصحاريه، بغض النظر عن الأبعاد السياسية الأخرى لهجرة هذه القبائل وما كان لها من دور في العمل على سقوط الدولة.

ونتيجة لاستتباب الأمن الذي حققه الموحدون عند ممارستهم للحكم

(65) الحلل الموشية، ص171؛ ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص117 ـ 118؛ ابن عذاري، البيان الموحدي، ص468، وينظر: الغناي، سقوط الموحدين، ص275.

قامت في عهدهم نهضة اقتصادية عظيمة، سواء في الميدان الصناعي أم الزراعي أم التجاري. ففي الأندلس، عَمُرت مدينة لقنت بعدد من دور الصناعة، وراجت تجارة الحرير في جيان، وبلغ عدد مناسج الحرير ثماني مئة بالمرية، التي كانت تنتج أيضا آلات النحاس والحديد. وكان لهذا النشاط الصناعي أثره في المغرب، فكانت سبتة مثل شاطبة مشهورة بصناعة الورق المعروف بالسبتي، وعلى غرارها كانت فاس عامرة بالطواحين لنفس الإنتاج. وكانت التجارة نشيطة جدا بين مدن الأندلس والمغرب الأقصى، وبين أسواق هذه الأقاليم، والمدن الإيطالية، مثل جنوة، وبيزا، والبندقية، وغيرها من المدن الإيطالية الأخرى والأوربية(66). كما ازدهرت صناعة الأسلحة والآلات الحربية في عهد الموحدين، مثل المجانيق التي تدك الأسوار، وترسل النيران على الأعداء، والسيوف القاطعة، وغيرها. ومما يدل على ازدهار الحركة الاقتصادية في عهد الموحدين، أن مدينة فاس وحدها كان بها أيام الخليفة محمد الناصر 9280 دكانا، و 86 مدبغة، و12 معملا لسبك الحديد والنحاس، و 116 مصبغة، و 472 رحى، و 1270 فرنا للخبز، و400 معملا لصنع الورق، وقيساريتان، و11 مصنعا للزجاج، وداران لضرب النقود(67). كذلك اهتم المصامدة منذ القدم بالزراعة وغرس الأشجار، فأكثروا من غرس الزيتون بناحية فاس، ومكناس، وتازا، واشتهرت بساتينهم بأكدال في مراكش. كما توارد إلى المغرب في عهد الموحدين مهرة الفلاحين من إفريقية، واستوطن بعضهم سلا، وأنشأوا بها البساتين، وعلموا أهلها الفلاحة والغراسة(68).

وشجع الموحدون الحركة الفكرية في جميع مظاهرها، فقد كان كثير

(66) ينظر: جوليان، المرجع السابق، 2/ 160 ـ 161.

(67) علي الجزنائي، جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس، الرباط، المطبعة الملكية، 1967، ص44؛ ويقارن، حركات، المرجع السابق، 1/ 338.

(68) المرجع نفسه، 1/ 338 ـ 339.

من خلفائهم، لا سيما الأوائل منهم، رجالا مثقفين، أبدوا اهتماما كبيرا بالأمور الفكرية. فقد عُرف عن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، أنه كان يبحث عن الكتب والعلماء من أقطار الأندلس والمغرب. وكان ممن صحبه من العلماء المشهورين، أبو بكر محمد بن طفيل، أحد فلاسفة المسلمين، وصاحب رسالة (حي بن يقظان). كما رعى في بلاطه أيضا تلميذ ابن طفيل، الفيلسوف، أبي الوليد بن رشد، وكلفه القيام بتلخيص كتب أرسطو[69]. وحظي ابن رشد أيضا برعاية يعقوب المنصور، باستثناء فترة قصيرة، وكثيرا ما كان يستقبله في بلاطه.

ويمثل عصر الموحدين ذروة النشاط الفكري في بلاد المغرب والأندلس، لتوفر العلماء القادمين من مختلف العالم الإسلامي. وقد أغدقت الدولة بسخاء على طلاب العلم، فبنت لهم المعاهد، ووضعت تحت تصرفهم خزائن الكتب. وكما أسلفنا، كان بعض خلفاء الدولة أنفسهم من كبار العلماء والأدباء، مثل عبد المؤمن، والمنصور، والمأمون. بل إن مؤسس الدولة، ابن تومرت، أقام مذهبه على مبادئ، كان من أهمها دراسة العقائد والأحاديث التي تتصل بمذهبه، وذلك يتطلب تعليما أوليا، وثقافة واسعة[70]. وقد تطورت الحركة الفكرية أيام الموحدين في مختلف فروع المعرفة، مثل الفقه، والتفسير، والقراءات، والجغرافية، والرحلات، والتاريخ، والرياضيات، والطب، والفلسفة، والمنطق، وعلوم اللغة والأدب[71].

وفي مجال الفن والعمارة، اهتم الموحدون بإنشاء المدن وتوسيعها، وبناء الموانئ والحصون والقناطر. وكان عبد المؤمن بن علي مولعا بتشييد

---

(69) المراكشي، المصدر السابق، ص349 ـ 354.

(70) ينظر: النجار، المرجع السابق، (الباب الثاني آراء ابن تومرت، ص159 ـ 379).

(71) لمزيد من التفاصيل عن الحركة الفكرية في عهد الموحدين، ينظر: حركات، المرجع السابق: 1/ 349 ـ 374.

المباني الجديدة، فأسس مدينة تازا في سنة 538هـ/ 1143م، في الممر الذي اشتهر باسمها، والذي يصل بين فاس والمغرب الأوسط، وأمر ببناء المساجد فيها. كما بنى في مراكش جامع الكتبية الكبير، وبنى في منطقة الرباط حصنا على صخرة تتحكم في مصب وادي بو رقراق، واستعان في إنجاز هذه الأعمال بالفنيين الأندلسيين(72).

وقام أبو يوسف يعقوب المنصور بتشييد عدد كبير من المباني الضخمة، ففي مراكش، بنى مدينة كاملة لإيواء بلاطه وخدماته الإدارية، تعرف الآن باسم القصبة، وشيد فيها مسجدا عظيما، وأوصل إليه الماء، كما بنى مارستانا للمرضى والمجانين(73). وأمر في الرباط ببناء سور هائل يحيط بالحصن الذي بناه جده عبد المؤمن بن علي، وزينه بأبواب ضخمة. وشرع في بناء المدينة العظمى (رباط الفتح)، التي كان أبوه يوسف بن عبد المؤمن، هو الذي اختطها ورسم حدودها، حسبما يشير إلى ذلك عبد الواحد المراكشي(74). وأمر يعقوب المنصور ببناء مسجد ضخم في المدينة، يعد من أكبر مساجد العالم الإسلامي، وعمل له مئذنة يصعد إليها بغير درج، ولكن بطريق صاعد صعودا تدريجيا، وقد بقي هذا الجامع ناقصا هو والمئذنة، بسبب توقف العمل فيه لوفاة الخليفة يعقوب المنصور(75)، وتدعى مئذنته الناقصة الآن بصومعة حسان(76). وتم إنجاز مسجد اشبيلية الجامع أيضا في عهده، ومنارته باقية إلى الآن، وتسمى بالدوارة (لاخيرالدا)(77). وهي

(72) المرجع نفسه: 1/ 341؛ جوليان، المرجع السابق، 2/ 165.

(73) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص217.

(74) المعجب، ص384.

(75) المصدر نفسه، ص384.

(76) للمزيد من المعلومات، ينظر: حركات، المرجع السابق، 1/ 343.

(77) عن بناء جامع اشبيلية وصومعته ينظر: ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص474 فما بعدها؛ عبد الواحد ذنون طه، منارة مسجد اشبيلية الجامع، مجلة اليرموك، العدد 52، اربد، جامعة اليرموك، 1996، ص16 ـ 21.

أعجوبة معمارية، وتعد من معالم مدينة اشبيلية الفريدة[78]. وكذلك أنجزت في عهد يعقوب المنصور منارة جامع الكتبية، التي ثبتت هي الأخرى أمام أحداث الزمن، وظلت باقية إلى الآن، وهي تشبه مئذنة جامع اشبيلية إلى حد كبير[79].

وتتميز هذه المباني والمنشات الموحدية بالجمال والروعة، وهذه سمة الفن المعماري الموحدي[80]، الذي مزج بين ما استمده من التقاليد الأندلسية، وما استلهمه من الشرق، وكوّن من هذه العناصر كلها جمالية فريدة من نوعها، جليلة، قوية، مثل هيبة وقوة الخلفاء الأولين. ولكن هذا الفن بدأ بالانحطاط حينما اضطربت أمور الدولة، واختل توازن الأسرة الحاكمة بانشغالها في الصراع على السلطة، ومقاومة الخارجين عليها.

---

(78) ينظر: إيلي لومبير، تطور العمارة الإسلامية في إسبانيا والبرتغال وشمال إفريقيا، ترجمة، عطا الله جليان، بيروت، دار آسيا، 1985، ص219.

(79) جوليان، المرجع السابق، 2/ 165.

(80) للتوسع في المعلومات عن الفن المعماري الموحدي، ينظر: ليوبولد توريس بالباس، الفن المرابطي والموحدي، ترجمة، سيد غازي، الإسكندرية، منشاة المعارف، 1976؛ لومبير، المرجع السابق، ص212فما بعدها؛ جوليان، المرجع السابق، 2/ 165 ـ 167؛ حركات، المرجع السابق، 1/ 340 ـ 349.

جريدة المصادر والمراجع

أ ـ المصادر الأولية:

❊ ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر القضاعي.

1 ـ الحلة السيراء، تحقيق، حسين مؤنس، القاهرة، الشركة العربية للطباعة والنشر، 1963.

❊ ابن الأثير، عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم.

2 ـ الكامل في التاريخ، بيروت، دار صادر، 1979.

❊ ابن الأحمر، إسماعيل.

3 ـ روضة النسرين في دولة بني مرين، الرباط، المطبعة الملكية، 1968.

❊ البيذق، أبو بكر بن علي الصنهاجي.

4 ـ أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، الرباط، دار المنصور للطباعة والوراقة، 1971.

❊ التنسي، محمد بن عبد الله.

5 ـ تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تحقيق، محمود أبو عبد، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985، ص116.

❊ الجزنائي، علي.

6 ـ جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس، الرباط، المطبعة الملكية، 1967.

❊ الحميري، أبو عبدالله محمد بن عبد المنعم.

7 ـ الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق، إحسان عباس، بيروت، مكتبة لبنان، 1975.

❊ ابن خلدون، عبد الرحمن.

8 ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، 1979.

❊ ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد.

9 ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق، إحسان عباس، بيروت، دار

الثقافة (د.ت).

* ابن أبي زرع، علي بن أبي زرع الفاسي.

10 ـ الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط، دار المنصور للطباعة والوراقة، 1972.

11 ـ الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، الرباط، دار المنصور للطباعة والوراقة، 1972.

* السلاوي، أبو العباس أحمد بن خالد.

12 ـ الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصا، الدار البيضاء، 1954.

* ابن صاحب الصلاة، عبد الملك بن صاحب الصلاة.

13 ـ تاريخ المن بالإمامة، تحقيق، عبد الهادي التازي، بيروت، دار الأندلس، 1964.

* ابن عذاري، أبو العباس أحمد بن محمد بن عذاري المراكشي.

14 ـ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب/قسم الموحدين، تحقيق، محمد إبراهيم الكتاني ورفاقه، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1985.

* ابن القطان، علي بن محمد.

15 ـ نظم الجمان في أخبار الزمان، تحقيق، محمود علي مكي، تطوان، 1965.

16 ـ مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية، اعتنى بإصدارها، ليفي بروفنسال، رباط الفتح، 1941.

* مجهول المؤلف.

17 ـ كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق، سهيل زكار وعبد القادر زمامة، الدار البيضاء، دار الرشاد الحديثة، 1979.

* المراكشي.

18 ـ المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، ط7، الدار البيضاء، دار الكتاب، 1978.

ب ـــ المراجع الثانوية:

* بالباس، ليوبولد توريس.

19 ـ الفن المرابطي والموحدي، ترجمة، سيد غازي، الإسكندرية، منشأة المعارف، 1976.

* جوليان، شارل اندريه.

20 ـ تاريخ إفريقيا الشمالية، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، تونس،

الدار التونسية للنشر، 1985.

* حركات، إبراهيم.

21 ـ المغرب عبر العصور، ط2، الدار البيضاء، دار الرشاد الحديثة، 1984.

* دندش، عصمت عبد اللطيف.

22 ـ الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين/عصر الطوائف الثاني، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1988.

* السامرائي، خليل إبراهيم ورفاقه.

23 ـ تاريخ المغرب العربي، الموصل، مديرية دار الكتب للطباعة والنشر، 1988.

* طه، عبد الواحد ذنون.

24 ـ «منارة مسجد اشبيلية الجامع»، مجلة اليرموك، العدد 52، إربد 1996.

* علام، عبد الله علي.

25 ـ الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، القاهرة، دار المعارف، 1968.

* عنان، محمد عبد الله.

26 ـ عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1964، القسم الأول.

* عويس، عبد الحليم.

27 ـ دولة بني حماد، بيروت، دار الشروق، 1980.

* الغناي، مراجع عقيلة.

28 ـ سقوط دولة الموحدين، بنغازي، منشورات جامعة بنغازي، 1975.

29 ـ قيام دولة الموحدين، بنغازي، المكتبة الوطنية، 1971.

* لومبير، إيلي.

30 ـ تطور العمارة الإسلامية في إسبانيا والبرتغال وشمال إفريقيا، ترجمة، عطا الله جليان، بيروت، دار آسيا، 1985.

* لي تورنو، روجي.

31 ـ حركة الموحدين في المغرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، ترجمة، أمين الطيبي، ليبيا ـ تونس، الدار العربية للكتاب، 1982.

* مؤنس، حسين.

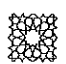
32 ـ معالم تاريخ المغرب والأندلس، مصر، دار مطابع المستقبل، 1980.

* النجار، عبد المجيد.

33 ـ المهدي بن تومرت، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1983.

نصوص مغربية

من تاريخ محمد بن يوسف الوراق



نشر هذا البحث في مجلة البحث العلمي
العدد 38، الرباط، 1988

تمهيد:

اهتم المغاربة منذ زمن مبكر بتدوين تاريخ بلادهم، وظهر منهم في هذا المجال عدد من المؤرخين الذين ألفوا كتبا، معتمدين على رواة من أهل المغرب ممن أخذوا الأخبار التي يروونها بالتواتر، أو كتبوا بعض ما وصل إلى سمعهم من روايات. ومنهم عيسى بن محمد بن سليمان بن أبي المهاجر (القرن الثالث للهجرة/ التاسع الميلادي)، وهو حفيد أبي المهاجر دينار، الذي تولى إفريقية بعد عقبة بن نافع الفهري من سنة 55 ـ 62هـ/ 975 ـ 981م. حيث ألف كتابا في فتوح إفريقية، الذي يعد المصدر الأساسي لتاريخ الفتح العربي للمغرب. وقد اعتمد على هذا الكتاب مؤرخون آخرون من أمثال أبي العرب محمد بن أحمد التميمي (ت333هـ/ 944م)، فأشار إلى

روايات عيسى بن محمد في كتابه طبقات علماء إفريقية[1]. كذلك كتب الحسين بن عبد الرحمن بن عبيد البصري، المعروف بالوكيل (كان حيا سنة 346هـ/ 957م) كتابا بعنوان: الكتاب المعرب عن أخبار إفريقية والمغرب، الذي يعد من أهم المصادر التي تؤرخ للحياة السياسية والأدبية والعلمية، وجميع أوجه النشاط الفكري بإفريقية[2].

ولكن من المؤسف أن هذه الكتب لم تصل إلينا باستثناء بعض النقولات اليسيرة منها، التي نجدها في كتب بعض المتأخرين.ويمكن أن نشير في هذا المجال أيضا إلى مؤرخين آخرين ضاعت مؤلفاتهم من أمثال عبدالله ابن أبي حسان اليحصبي (ت227هـ/ 841 ـ 842م) وفرات بن محمد العبدي (ت292هـ/ 904 ـ 905م)، وأحمد بن إبراهيم بن أبي خالد المعروف بابن الجزار (ت362هـ/ 972م)، ومحمد بن يوسف الوراق (ت363هـ/ 973م)، الذي كتب في تاريخ وجغرافية إفريقية. ولعل الأخير، الذي سنكرس له هذا البحث، من أكثر هؤلاء حظاً، إذ تيسر له من المؤرخين والجغرافيين الكبار من استصفى معظم ما كتبه، لا سيما أبو عبيد عبدالله بن عبد العزيز البكري (ت487هـ/ 1094م)، الذي ضمن كتابه المسالك والممالك كثيرا مما أورده الوراق فيما كتبه عن مسالك إفريقية[3].كذلك ساهم البكري وأبو العباس

(1) تحقيق: علي الشابي، ونعيم حسن اليافي، تونس، 1968، ص57، 65، 69، 71، 67 ـ 77، 78، 179.

(2) ينظر: علي بن أحمد بن حزم، رسالة في فضل الأندلس، نشرت ضمن مجموعة رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق: إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت، 1981: 2/ 175؛ محمد بن عبد الله، ابن الأبار، الحلة السيراء، تحقيق: حسين مؤنس، الشركة العربية للطباعة والنشر، ط1، القاهرة، 1963: 1/ 50، 66، 91، 92، 181، 188، 2/ 337، 338، 357، 362.

(3) يقارن: أغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، نقله إلى العربية: صلاح الدين عثمان هاشم، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط1، القاهرة، 1963: 1/ 169.

أحمد بن محمد بن عذاري المراكشي (كان حيا في سنة 712هـ/ 1312م) في أخذ قطع لا بأس بها من تاريخ محمد بن يوسف الوراق، الذي يعد حجة في تاريخ إفريقية والمغرب.

ولد محمد بن يوسف الوراق بن عبدالله في القيروان سنة 292هـ/ 904م[4]، في أسرة يرجع أصلها إلى مدينة وادي الحجارة Guadalagara في الأندلس، وهي تقع إلى الشمال الشرقي من مدريد Madrid الحالية. وقد نشأ الوراق وترعرع في مدينة القيروان، وأصبح له شهرة واسعة في تاريخ وجغرافية شمال إفريقيا. ويبدو أن الوراق بُهر بالجو العلمي الذي كان يحيط بمدينة قرطبة Cordoba، عاصمة الخلافة في الأندلس، أيام الخليفة الحكم المستنصر (350 ـ 366هـ/ 961 ـ 976م)، الأمر الذي أدى إلى هجرته إليها، والاتصال بالبلاط الأموي، حيث رحب به الحكم الثاني، وقربه إليه. وكان الأخير مهتما بشؤون المغرب، نظرا للظروف السياسية التي كانت تحيط بالمنطقة، ومنها محاولات الفاطميين للسيطرة على المغرب، وتهديد الأندلس، فوجد في الوراق ثروة علمية كبيرة يمكن أن تساعده في التعرف على شؤون المغرب، ودقائق تاريخه، للاستفادة منها وتوظيفها على صعيد السياسة الخارجية الأندلسية إزاء شمال إفريقيا عامة، والدولة الفاطمية بشكل خاص.

ولا تشير المصادر إلى الوقت الذي ترك فيه الوراق القيروان وهاجر إلى الأندلس، وهل كان هذا في فترة حكم الخليفة المستنصر؟ أم عندما كان الأخير وليا للعهد زمن والده الخليفة الناصر لدين الله (300 ـ 350هـ/ 912 ـ 961م). لأن الحكم كان مهتما أيضا بالشؤون العلمية قبل توليه الخلافة، وله

(4) أبو العباس أحمد بن محمد بن عذاري المراكشي، البيان المغرب في تلخيص أخبار الأندلس والمغرب، نشر: كولان وليفي بروفنسال، ليدن، 1948 ـ 1951: 1/ 139؛ ويقارن، كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ترجمة: عبد الحليم النجار، دار المعارف، ط4، القاهرة، 1977: 3/ 91.

محاولات عديدة وجهود كثيرة للاتصال بالعلماء، والحصول على كتبهم من شتى أرجاء الدولة العربية الإسلامية في المشرق والمغرب[5].

وسواء جاء الوراق إلى الأندلس في أثناء خلافة الحكم المستنصر، أم خلال ولايته للعهد، فقد نال حظوة ومكانة مرموقة في البلاط الأموي في قرطبة، جعلت الحكم يعهد إليه بتأليف عدة أعمال تتعلق بتاريخ وأحوال المغرب العربي، وقد أشار ابن حزم إلى هذه المؤلفات وعددها، وهي تشمل الكتب الآتية:[6]

* كتاب مسالك إفريقيا وممالكها.
* كتب كثيرة في أخبار ملوكها وحروبهم والقائمين عليهم.
* كتب أخرى في أخبار: تيهرت، ووهران، وتنس[7]، وسجلماسة، ونكور، والبصرة[8]، وغيرها من مدن شمال إفريقيا.

ويبدو أن محمد بن يوسف الوراق ألف كتبا غير هذه التي أشار إليها

---

(5) ينظر: حازم غانم حسين، الحياة العلمية والثقافية في الأندلس في القرن الرابع الهجري، رسالة ماجستير مرقونة على الآلة الكاتبة، كلية الآداب، جامعة الموصل، أيار 1983، ص73 ـ 77.

(6) ينظر: رسائل ابن حزم الأندلسي، 2/ 175؛ ويقارن: محمد بن أبي نصر الحميدي، جذوة المقتبس، القاهرة، 1966، ص97؛ أحمد بن يحيى الضبي، بغية الملتمس، نشر: فرانسسكو كوديرا، مدريد، 1884، ص131، محمد بن عبدالله، ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، نشر: عزت العطار، القاهرة، 1955 ـ 1956: 1/ 336؛ F. Pons Biogues, Los Historiadores Y Georgrafos Arabigo-Espanoles, Amesterdam, 1972, reprint of Madrid edition, 1898, pp. 80-81.

(7) ورد اسم هذه المدينة في مجموعة رسائل ابن حزم خطأ على أنها تونس، ينظر: رسالة في فضل الأندلس، نقلها: أحمد بن محمد المقري في نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، 1968، 3/ 163؛ ويقارن أيضا: الحميدي، ص97.

(8) البصرة المقصودة هنا، هي مدينة ببلاد المغرب بالقرب من أصيلا، بينها وبين فاس نحو أربعة أيام. ينظر: محمد بن علي بن حوقل النصيبي، صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1979، ص81 ح أبو عبدالله شهاب الدين ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1977: 1/ 440.

ابن حزم، ونقلها عنه بقية المؤرخين، لأنه لقب بـ«التاريخي»[9]، الأمر الذي يدل على كثرة اشتغاله بالتأليف في هذا الفن. وهذا لقب لا يناله المؤرخ إلا إذا وصل إلى درجة عالية من الرفعة والمعرفة، واشتهر بالتأليف. وقد أطلق أيضا على مؤرخ أندلسي كبير معاصر للوراق، هو أحمد بن محمد بن موسى الرازي (ت 344هـ/ 955م)[10]. أما لقب الوراق، فهو على الأغلب قد جاءه من أبيه يوسف بن عبدالله، الذي كان هو الآخر مهتما بالتأليف والنسخ، وله كتاب لم يصلنا في التاريخ[11].

ومما يؤسف له أننا لا نمتلك في الوقت الحاضر الكتب التي أشار إليها المؤرخون، ونسبوا إلى محمد بن يوسف الوراق أمر تأليفها. ولكن من جهة أخرى، عُوض هذا النقص إلى حد ما بكثرة النقولات التي أخذها المؤرخون المتأخرون من كتب الوراق. فعلى سبيل المثال، نجد أن أبا عبيد البكري قد ضمن كتابه المسالك والممالك نصوصا كثيرة من كتاب مسالك إفريقيا وممالكها، وأشار إلى اسم الوراق صراحة في كثير من ثنايا كتابه القيم، وإن كان قد أغفل الإشارة إليه في أحيان أخرى[12].

ولن نتطرق إلى النصوص الجغرافية من كتاب الوراق عن مسالك إفريقية وممالكها، ولا إلى المنهج الذي اتبعه في كتابه هذا، فذلك أمر

---

(9) الحميدي، ص97 ؛ .Pons Biogues, op. Cit., p. 80;

(10) ينظر: الحميدي، ص104؛ عبدالله بن محمد بن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، القاهرة، 1966، ق1، ص42؛ المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس، (برواية ابن حيان): 3/ 111؛ وينظر أيضا: Pons Biogues, Op. Cit., p. 144؛ أنخل جنثالث بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة: حسين مؤنس، القاهرة، 1955، ص197.

(11) يقارن: سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، منشورات منشأة المعارف، الإسكندرية، 1979، 1/ 25.

(12) ينظر على سبيل المثال: أبو عبيد البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، نشر: دي سلان، الجزائر، 1857، ص4، 8، 9، 12، 28، 50، 58، 60، 88، 142، 146، 158.

يختص بدراسة هذا المؤرخ من الناحية الجغرافية[13]. ولكن لابد من الإشارة إلى أنه لم يعتمد في تأليفه على الرحلة أساسا، كما أشار إلى ذلك أحد الباحثين المحدثين[14]، بل اعتمد على السماع أيضا. وقد أشار الوراق إلى ذلك من خلال النصوص التي أوردها له البكري، فسمى اثنين من الرواة الذين اعتمد عليهم في ذكر بعض أخباره عن شمال إفريقيا، وهما: أبو بكر أحمد بن خلوف الفاسي، ومحمد بن قاسم صاحب استجة Ecija[15]. وقد أشرنا إلى هذا الأمر لأنه يتعلق بمنهج الوراق بشكل عام، وهو ينطبق أيضا على رواياته التاريخية، التي كتب معظمها في الأندلس، بعيدا عن شمال إفريقيا، فكان لا بد له من الاعتماد على السماع، والمصادر المدونة، إضافة إلى خبرته الشخصية، ومشاهداته الماضية أيام إقامته في القيروان.

ولننتقل الآن إلى مناقشة مسألة كتب الوراق التاريخية، وما هو نطاق هذه الكتب؟ الواقع أن المصادر لا تسعفنا إلا بمعلومات ضئيلة بهذا الخصوص. فلو رجعنا إلى رواية ابن حزم لوجدنا أنه ينسب للوراق تأليف كتب جمة: «في أخبار ملوكها (يقصد إفريقية) وحروبهم والقائمين عليهم»[16]. ويحتمل أن أحد هذه الكتب، التي لم تصلنا، كان بعنوان تاريخ أفريقية،[17] تميزا له عن كتاب الوراق الجغرافي مسالك إفريقية وممالكها ،أو المسالك والممالك، الذي أشار إليه المؤرخون. ويقوي هذا الاحتمال أن المؤرخين المغاربة والأندلسيين الذين عاشوا في عصر واحد مع الوراق كانوا

(13) يراجع: حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، مدريد، 1967، ص73 ـ 75.

(14) عبد الله يوسف غنيم، مصادر البكري ومنهجه الجغرافي، مطبعة المدني، القاهرة، 1974، ص134 ـ 135.

(15) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص4، 158 ـ 159.

(16) رسائل ابن حزم الأندلسي: 2/ 175.

(17) يقارن: حسين مؤنس، رواية جديدة عن فتح المسلمين للأندلس، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، العدد 18، مدريد، 1974 ـ 1975، ص95.

يميلون إلى مثل هذه التسميات، فمختصر عريب بن سعد القرطبي، (ت370هـ/ 980م) عن المغرب والأندلس، يسمى بـ أخبار إفريقية والأندلس[18]. وكتاب أبي إسحاق إبراهيم بن الرقيق القيرواني (ت بعد سنة 417هـ/ 1026م) يعرف بـ تاريخ إفريقية والمغرب[19].

ولا يمكن الجزم أيضا بنطاق الكتاب ومحتوياته، فالنصوص المتوفرة لدينا منه قليلة جدا، وهي في الغالب عن الفترة التي عاصرها المؤلف. ولكن قياسا على ما سار عليه بقية المؤرخين الذين عاشوا في عصر المؤلف، يمكن القول إنه تناول تاريخ إفريقية والمغرب منذ الفتح العربي الإسلامي إلى ما بعد منتصف القرن الرابع للهجرة/ العاشر الميلادي. فقد تضمن كتاب الرقيق القيرواني على سبيل المثال الأحداث من الفتح حتى أوائل القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر الميلادي. ولا يوجد ما ينفي قيام الوراق بتأليف كتابه على هذا الأساس، بل إن هناك من المؤرخين المحدثين من لا يستبعد أن يكون محمد بن يوسف الوراق هو مؤلف القطعة التي نشرها المنجي الكعبي باسم تاريخ إفريقية والمغرب، واجتهد في نسبتها إلى الرقيق القيرواني[20]. حيث إننا لا نملك دليلا واضحا يؤيد هذه النسبة أو ينفيها[21].

وتؤرخ هذه القطعة لحقبة من الزمن تبلغ قرنا وربع القرن، ابتداء من

(18) ينظر: محمد بن عبد الملك الأنصاري المراكشي، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، السفر الخامس، ق1، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، 1965، ص142.

(19) أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت الحموي، معجم الأدباء، طبعة دار المستشرق، بيروت، دون تاريخ، 1/ 216.

(20) مؤنس، رواية جديدة، ص96.

(21) ينظر مقدمة التحقيق لكتاب تاريخ إفريقية والمغرب، تونس، 1968، ص31 ـ 34. وعن الاختلاف في نسبة هذه القطعة إلى الوراق ينظر أيضا:

Mohamed Talibi, Un nouveau fragment de L'histoire de L'Occident Musulman, L'Epoque d'Al-Kahina, Extrait des Cahiers de Tunisie, tom XIX, 1971, no. 73-74, p. 51، مؤنس، رواية جديدة، ص96 ـ 97.

ولاية عقبة بن نافع الفهري الثانية على إفريقية سنة 62هـ/ 681م حتى ولاية أبي العباس عبدالله بن إبراهيم بن الأغلب التميمي سنة 196هـ/ 785م. ولا تتوفر لدينا نقولات تاريخية للوراق تخص هذه الفترة حتى يمكن مقارنتها بها، والبت في أمرها، بل كل ما لدينا هو نصوص قليلة جاءت ضمن الوصف الجغرافي لبعض المدن، أشار فيها الوراق عرضا إلى أحداث الفتح العربي لبعض مناطق شمال إفريقيا[22]، أو فسر تاريخيا السبب في تسمية إحدى المدن في المنطقة[23]. وهذه النصوص، كما يبدو، جاءت ضمن كتابه الجغرافي المسالك والممالك، لأنها مزجت بمادة جغرافية تتعلق بوصف الطرق والسواحل والمدن.

وللوراق نصان تاريخيان طويلان، أصلهما على الأغلب من كتابه الذي أشرنا إليه عن تاريخ إفريقية، احتفظ لنا ابن عذاري بالأول منهما. وهو يتعلق بقيام الدولة الفاطمية، حيث يبدأ الوراق روايته بمحاولات الفاطميين لتنظيم دعاتهم وإرسال أبي عبدالله الشيعي إلى المغرب، وكيفية التقائه بحجاج من قبيلة كتامة البربرية، ومرافقتهم إلى مصر، ومن ثم إلى المغرب، حيث ابتدأ نشاطه في بث الدعوة للفاطميين.

ومعلومات هذه الرواية ملخصة، لكنها مركزة بشكل جيد، وتقدم مادة أولية أساسية لقيام دولة الفاطميين[24]. وهي لا تختلف كثيرا في الخط العام عن الرواية الفاطمية، إذا ما قورنت بما كتبه القاضي النعمان (ت363هـ/ 947م)[25]. لكن هناك اختلاف في التفاصيل، وفي وجهات النظر، لأن الوراق يخالف الفاطميين في المذهب، ولا يتحرج من بيان رأيه المعادي في

(22) البكري، ص9 ـ 10، 58.

(23) المصدر نفسه، ص28.

(24) البيان المغرب: 1/ 124 ـ 129.

(25) كتاب افتتاح الدعوة، تحقيق: فرحات الدشراوي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1975، ص30، فما بعدها.

هذه الرواية. ويضيف النص أيضا معلومات لا تتوفر في بقية المصادر، منها على سبيل المثال، أن الشيخ الكتامي الذي اصطحب أبا عبدالله الشيعي إلى المغرب، قتل أخاه حينما وقف الأخير ضد الداعي الفاطمي[26].

أما النص الثاني، فقد نقله ابن عذاري أيضا عن الوراق، ولكن بصورة مختصرة. وهو عن دور جعفر ويحيى، ابني علي بن حمدون المعروف بالأندلسي، في أحداث المغرب وموقفهما المعادي للفاطميين، وحلفائهم من بني زيري الصنهاجيين[27]. ولحسن الحظ، احتفظ لنا المؤرخ الأندلسي حيان ابن خلف بن حيان (ت469هـ/ 1079م) بهذا النص دون اختصار، فجاءت روايته مفصلة، حافظ فيها على تكامل عناصرها التاريخية، التي تبين دور هذه الأسرة في أحداث المغرب العربي في حقبة مضطربة من تاريخه[28].

ابتدأ ابن حيان حديثه بالإشارة إلى رواية محمد بن يوسف الوراق، الذي نعته بـ «الحافظ لأخبار المغرب»[29]. وهذه شهادة قيمة، لا سيما وأنها تصدر من مؤرخ قدير له باع طويل في مجال التأليف والعمل التاريخي في الأندلس. ثم ذكر بعد ذلك النص الذي يدور حول جعفر ويحيى، وجدهما الأعلى عبد الحميد الجذامي، الذي دخل مع جند الشام إلى الأندلس واستقر بها، ثم انتقل حفيده حمدون إلى مدينة بجاية في شمال إفريقيا، واتصل بأبي عبد الله الداعي الفاطمي، وساعده في دعوته. وتقدم لذلك في الدولة الفاطمية بعد قيامها، وبنى ابنه علي بن حمدون مدينة المسيلة في الجزائر الحالية، وحكمها هو وابنه جعفر بن علي من بعده.

ولكن الأحوال المضطربة في المغرب اضطرت جعفر بن علي إلى تغيير

(26) البيان المغرب: 1/ 128؛ ويقارن: افتتاح الدعوة، ص54.

(27) البيان المغرب: 2/ 242 ـ 243.

(28) حيان بن خلف، ابن حيان، المقتبس في أخبار بلاد الأندلس، تحقيق: عبد الرحمن علي الحجي، دار الثقافة، بيروت، 1965، ص33 ـ 36.

(29) المصدر نفسه، ص33.

ولائه من الفاطميين إلى الأمويين في الأندلس، لا سيما بعد اشتداد النزاع بين قبائل صنهاجة وزناتة، التي كانت تتصارع على السلطة، وتختلف في موقفها من الفاطميين، والأمويين في الأندلس. ونتيجة لهذه الأحداث، التجأ جعفر وأخوه يحيى إلى بني خزر الزناتيين، ومن ثم غادرا إلى الأندلس، حيث حظيا برعاية الحكم المستنصر.

إن نص الوراق الآنف الذكر على درجة كبيرة من الأهمية، لأنه يشير إلى حقائق وأحداث أثرت في تاريخ المغرب العربي.هذا فضلا عن المعلومات القيمة التي يقدمها عن استقرار قبيلة جذام العربية في الأندلس ممثلة بأحد قادتها، وهو عبد الحميد الجذامي. وهذه الرواية هي الوحيدة عن استقرار الشاميين من جذام في الأندلس[30]. كذلك يشير النص إلى الصراع القائم بين الفاطميين والأمويين في الأندلس، ومحاولة كل منهما كسب إحدى الكتل الكبيرة في المغرب لتعمل على تأييده وحفظ مصالحه. وهكذا مالت صنهاجة إلى الفاطميين، بينما أيدت زناتة سياسة الدولة الأموية في الأندلس. يضاف إلى هذا فإن النص يبين قدرة الوراق التاريخية على استيعاب الأحداث في كل من المغرب والأندلس، وربطها في تناسق يدل على تمكنه من فهم الأحداث في شمال إفريقيا، ومدى تأثيرها على الأندلس، لأنه لا يمكن الفصل بين تاريخ المنطقتين.

أما النصوص التاريخية الأخرى للوراق، فقد أشار إلى قسم منها البكري في كتابه المسالك والممالك، كما لخص ابن عذاري المراكشي الكثير منها في البيان المغرب، لا سيما رسائله عن بعض المدن المغربية وتاريخها، وكيفية نشوئها. ومن الجدير بالذكر أن كلا من البكري وابن عذاري، لا يشيران إلى اسم الوراق عندما يتحدثان عن معظم هذه المدن

(30) ينظر: عبد الواحد ذنون طه، الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال إفريقيا والأندلس، دار الرشيد للنشر، بغداد ـ ميلانو، 1982، ص250.

باستثناء قسم قليل منها. ولكننا نستند في نسبتها إليه إلى أقوال ابن حزم الأندلسي، الذي أشار إليها، وعددها على أنها مدن كتب في تاريخها محمد ابن يوسف الوراق. وقد سبقت الإشارة إلى أسماء ست مدن ذكرها ابن حزم، وأخذها عنه الحميدي وغيره من المؤرخين، وهي: تيهرت، ووهران، وتنس، وسجلماسة، ونكور، والبصرة. حيث لخص ابن عذاري تاريخها جميعا باستثناء مدينتي وهران وتنس، وأضاف إليها مدنا أخرى، مثل أصيلا، التي أشار صراحة إلى أخذه لمعلوماته عنها من كتاب المسالك والممالك لمحمد بن يوسف الوراق القروي[31].

أما البكري، فقد تحدث عن معظم هذه المدن التي أشار إليها ابن حزم، لكنه لم يذكر اسم الوراق صراحة إلا عند حديثه عن مدينة «تاهرت»[32]. وفي الوقت نفسه أشار إلى مدن أخرى، وذكر معلومات تاريخية عنها نسبها إلى محمد بن يوسف الوراق، ومنها على سبيل المثال لا الحصر: رقادة[33]، وطبنة[34]، وأشير[35]. ويشير هذا الأمر إلى أن هذه الفصول أو الرسائل التي كتبها الوراق عن مدن إفريقية والمغرب العربي، ما هي في الحقيقة إلا أجزاء من كتابه الكبير المسالك والممالك. وهي استطرادات تاريخية معترضة ضمن هذا الكتاب، وليست كتباً منفصلة، كما أشار إلى ذلك ابن حزم، وغيره من المؤرخين الذين نقلوا عنه. والدليل على ذلك اعتراف ابن عذاري صراحة بأنه قيد واختصر معلوماته عن أصيلا من كتاب المسالك والممالك لمحمد بن يوسف الوراق القروي[36].

ويبدو أن منهج الوراق في تناوله لهذه الرسائل يعتمد على العرض

(31) البيان المغرب، 1/ 232.
(32) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص68.
(33) المصدر نفسه، ص28.
(34) المصدر نفسه، ص52.
(35) المصدر نفسه، ص60.
(36) البيان المغرب، 1/ 232.

الدقيق لأصل كل مدينة من هذه المدن، والإشارة إلى أنها كانت من المدن القديمة، أو أنها محدثة بنيت في العصور الإسلامية، ثم يورد معلومات دقيقة ومفصلة عن الأسر والجماعات التي سكنتها واستقرت فيها. فيقول عن مدينة تنس مثلا: «وتنس الحديثة أسسها وبناها البحريون من أهل الأندلس»[37]، منهم الكركوني وأبو عايشة والصقر وصهيب وغيرهم وذلك سنة اثنتين ومايتين. وسكنها فريقان من أهل الأندلس من أهل البيرة (Elvira)، وأهل تدمير (في محافظة مرسيه Muricia الحالية). وأصحاب تنس من ولد إبراهيم ابن محمد بن سليمان بن عبدالله بن حسن بن حسين بن علي...[38].

وتشير رواية تأسيس مدينة نكور إلى معلومات دقيقة ومفصلة عن هذه المدينة، وأسرة صالح بن منصور الحميري التي حكمت المدينة، ولعبت فيها دورا مهما منذ الفتح العربي الإسلامي للمنطقة. وتبدأ الرواية بتأسيس المدينة على يد سعيد بن إدريس بن صالح بن منصور الحميري، «وصالح هو المعروف بالعبد الصالح، وهو الذي افتتحها زمن الوليد بن عبد الملك ودخل أرض المغرب في الافتتاح الأول...»[39].ثم تستمر الرواية في عرض أحداث المنطقة، والعلاقة بين هذه الأسرة والسكان المحليين، ثم العلاقة مع الفاطميين بعد دخولهم المغرب، والأمويين في الأندلس. وقد أشار ابن عذاري المراكشي إلى هذه الرواية أيضا ووضعها تحت عنوان: «تلخيص أخبار أمراء مدينة نكور من حين بنائها على الجملة إلى هذه السنة المؤرخة»

(37) كان البحريون الأندلسيون يشكلون قوة بحرية غير نظامية تنتشر في السواحل الشرقية للأندلس، ولهم فيها مراسي ورباطات ودور صناعة. كذلك انتشروا في بعض جهات الساحل الإفريقي الشمالي على شكل جاليات أندلسية متفرقة، ولمعرفة المزيد عنهم وعن نشاطهم، ينظر: السيد عبد العزيز سالم، وأحمد مختار العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1969، ص73 ـ 75، 149 ـ 152.

(38) البكري، ص61.

(39) المصدر نفسه، ص91.

(يقصد سنة 305هـ/ 961م)[40]. وعلى العموم فإن النص عند البكري أوضح وأكثر تفصيلا مما لدى ابن عذاري. وهناك بعض الاختلافات في النصين والتي تشير بوضوح إلى أنهما نقلا عن مصدر ثالث، أي أن ابن عذاري لم ينقل عن البكري، بل استخدم كل منهما نصا خاصا به، أُخذ بالأصل من مؤلفات محمد بن يوسف الوراق.

وتفصل رواية الوراق في ذكر من اتخذ من مدينة أصيلا من الأمراء الأدارسة مقرا وسكنا لهم من أمثال: «القاسم بن إدريس، فإنه ملكها وقامت دعوته بها إلى أن توفي ـ رحمه الله ـ ثم وليها ابنه إبراهيم بن القاسم، فجرت بينه وبين عمر بن حفصون الثائر ببشتر Bobastro من الأندلس مراسلات ومكاتبات في شأن النفاق على الخليفة بقرطبة الأموي، إلى أن هلك، ثم وليها ابن حسين بن إبراهيم بن القاسم، فاضطرب أمره، وضعفت طاعته، وكانت مدته خمسا وعشرين سنة في قبائل لواته...»[41].

يتبين من النص السابق أن الوراق لا يكتفي بالإشارة إلى استقرار القبائل والأسر العربية في المدن التي كتب عن تاريخها، بل يحاول أيضا أن يشير إلى العلاقات السياسية التي دارت بين هذه الأسر، وبقية الكيانات الأخرى، سواء في شمال إفريقيا، أو مع الدولة الأموية في الأندلس. وإشارة الوراق إلى محاولات عمر بن حفصون للاتفاق مع الأدارسة ضد الأمير الأموي بقرطبة، على درجة كبيرة من الأهمية لتوضيح طبيعة العلاقات بين شمال إفريقيا والأندلس[42]. وشبيه بهذا أيضا إشاراته إلى العلاقات مع الأقوام

(40) البيان المغرب، 1/ 176 ـ 180.

(41) المصدر نفسه، 1/ 233.

(42) للاطلاع على تفاصيل حركة عمر بن حفصون في الأندلس، يراجع: أمين توفيق الطيبي «قيام عمر بن حفصون وبنيه ببشتر على الإمارة الأموية بقرطبة»، ضمن كتاب دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، الدار العربية للكتاب، ليبيا ـ تونس، 1984، ص120 ـ 150.

الأجنبية الأخرى التي كان لها دور مهم في التأثير على بعض هذه المدن، لا سيما النورمان أو «المجوس»، كما تسميهم الرواية[43]، حيث تشير إلى أنهم دخلوا مدينة نكور سنة 244هـ/ 858م، وتغلبوا عليها، ونهبوها، وأقاموا فيها ثمانية أيام، ثم خرجوا منها[44].

أما بالنسبة لمعلومات الوراق عن استقرار القبائل العربية والبربرية في هذه المدن، بشكل خاص، وفي شمال إفريقيا عامة، فهي على درجة كبيرة من الأهمية، لأنها تزود المؤرخ بالبيانات الأولية الأصيلة عن كيفية توزيع هذه القبائل والأسر، وتركزها في مختلف المناطق. ويمكن العثور على العديد من الروايات الخاصة في هذا المجال ضمن نقولات البكري عن الوراق. وتمثل هذه الروايات، مع روايات البكري الأخرى المستقاة من مصادر متعددة، مادة أساسية يمكن الاستفادة منها في دراسة علمية لاستقرار العرب في شمال إفريقيا[45].

ومن الملاحظ على النصوص التاريخية التي يوردها الوراق عن مدن شمال إفريقيا، أنه يهتم بالمسائل الاجتماعية والاقتصادية، والأوزان والمكاييل المتداولة في هذه المدن، مع مقارنتها بما هو متوفر في الأندلس، لا سيما مدينة قرطبة. فيذكر عن تيهرت حسبما ينقل عنه البكري ما يلي:

(43) النورمان أو الفيكنج Vikings من الأمم البحرية العريقة التي سكنت بلاد اسكندنافية، أي السويد والنرويج والدانمارك الحالية، وكلمة النورمان تعني سكان الشمال، وهي تحريف لكلمة Norsemen الإنكليزية أو Normandos الإسبانية، وقد وردت تسمية هذه الأقوام في مصادرنا العربية بأشكال مختلفة مثل (الأردمانيون) و (المجوس)، لأنهم كانوا يحرقون جثث الموتى من زعمائهم بسفنهم فظن العرب أنهم يعبدون النار كالزرادشتية والمجوس. وكان من طبيعة هؤلاء النورمان حب المغامرة، وجوب البحار، وقد شمل نشاطهم أماكن عديدة منها، الجزر البريطانية، إضافة إلى الشواطئ الأندلسية والمغربية. ينظر: أحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي، دار النهضة العربية، بيروت، 1972، ص348 ـ 349.

(44) البكري، ص92؛ ويقارن: البيان المغرب، 1/ 176.

(45) ينظر على سبيل المثال: البكري، ص4، 9 ـ 10، 68، 70، 91، 107، 148.

«قال وبتاهرت أسواق عامرة وحمامات كثيرة يسمى منها اثني عشر حماما، وحواليها من البربر أمم كثيرة. ومدهم الذي يكتالون به خمسة أقفزة ونصف قرطبية، وقنطار الزيت وغيره عندهم قنطاران غير ثلث إلا المجلوب من الفلفل وغيره فإنه قنطار عدل، ورطل اللحم عندهم خمسة أرطال»[46].

ويتحدث الوراق عن تجارة وأسواق مدينة أصيلا، فيقول: «فاتخذ الناس موضع أصيلة رباطا فانتابوه من جميع الأمصار. وكانت تقوم فيه سوق جامعة ثلاث مرات في السنة، وهو وقت اجتماعهم، وذلك في شهر رمضان، وفي عشر ذي الحجة، وفي عاشوراء... وتسامع الناس أمرها في الأندلس وأهل الأمصار فقصدوها في الأوقات المذكورة بضروب السلع وخيّموا بها ثم بنوا شيئا بعد شيء فعمرت. . .»[47].

ولم تقتصر المواضيع التي تناولها الوراق على تاريخ بعض المدن في شمال أفريقيا حسب، بل اهتم أيضا بتاريخ بعض القبائل البربرية هناك. وكانت له عناية خاصة بأنسابها، واشتغل بالتأليف فيها. وقد أشار أبو بكر الصنهاجي، الملقب بالبيذق، خادم محمد بن تومرت إلى كتاب بعنوان أنساب البربر، نسبه إلى محمد بن يوسف الوراق القروي، واقتبس منه فيما يخص نسب الخليفة عبد المؤمن بن علي[48]. وهناك بعض النصوص التي اقتبسها ابن عذاري المراكشي، تخص بعض القبائل البربرية، ربما كانت بالأصل من كتاب أنساب البربر المذكور أعلاه. منها نص يخص مساكن صنهاجة ومصمودة في منطقة طنجة، وبطونهما. فبطون صنهاجة، كما يذكر

(46) المصدر نفسه، ص68 ـ 69؛ وينظر أيضا: المصدر نفسه، ص62، 91 عن الأوزان والمكاييل التي يوردها عن مدينتي تنس ونكور.

(47) المصدر نفسه، ص112؛ ويقارن: البيان المغرب، 1/232.

(48) أبو بكر الصنهاجي (البيذق)، المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1971، ص14.

الوراق، كانت تتشعب وتفترق من قبيلتين، وبطون مصمودة تتشعب من أربع قبائل[49].

وهناك نص طويل عن تاريخ قبيلة برغواطة، حيث يورد ابن عذاري فصلا كاملا عن هذه القبيلة بعنوان: «خبر برغواطة»[50]. وهذا الخبر أشبه ما يكون بنص وثيقة عن تاريخ هذه القبيلة، كتبها الوراق للحكم المستنصر لتحفظ في سجلاته. وحسبما يشير النص، فإن هذا الخبر، هو بالأصل، رواية رسول صاحب برغواطة إلى الحكم المستنصر، الذي قدم إلى قرطبة سنة 352هـ/ 963م. ولا بد أن يكون الوراق، كما يرى حسين مؤنس[51]، قد دون هذا الخبر الطويل، لأنه العالم الموكل بهذه الناحية في البلاط الأموي.

ويتحدث هذا النص عن التكون السياسي لقبيلة برغواطة وظهورها على مسرح الأحداث في المغرب الأقصى. ويشير إلى أن: «أبا ملوكها»، كان طريف بن مالك، الذي قاد أول عملية استطلاعية على الأندلس سنة 91هـ/ 709م، ثم أصبح من أصحاب ميسرة المطغري، الذي تزعم تمرد البربر في طنجة على عامل إفريقية في القيروان سنة 122هـ/ 739 ـ 740م[52]. فلما قتل ميسرة وفشلت حركته، التجأ طريف إلى بلاد تامسنا[53]، حيث ولاه البربر على أنفسهم. وقد خلفه ابنه صالح بن طريف، الذي تنبأ فيهم، وابتدع لهم «ديانة» جديدة غير الإسلام، وسمى نفسه بصالح المؤمنين.

(49) البيان المغرب، 1/ 26.

(50) المصدر نفسه، 1/ 223 ـ 227.

(51) تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، ص75.

(52) لمزيد من التفاصيل عن حركة ميسرة، ينظر: عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، نشر: شارلس توري، نيوهيفن، 1922، أعادت طبعه بالأوفست مكتبة المثنى ببغداد، ص217 ـ 220؛ عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي: 1/ 286.

(53) تشمل هذه المنطقة سهول المحيط الأطلسي الممتدة من وادي سبو إلى جنوبي نهر أم الربيع، وكانت تدعى أيضا بالسوس الأدنى. ينظر: البكري، ص87؛ البيان المغرب: 1/ 26، 57؛ ويقارن: طه، الفتح والاستقرار، ص61.

وفي النص معلومات طريفة عن هذه «الديانة»، و«القرآن» الذي ابتدعه لهم، وتفصيل لبعض الشعائر والطقوس التي أمرهم بممارستها، والقيام بها. كما يتضمن أيضا استعراضا لبقية الأمراء الذين خلفوا صالح بن طريف في الحكم، وسياستهم الداخلية إزاء مواطنيهم، وموقفهم من الأمويين في الأندلس، حيث كانوا من الموالين لأمراء قرطبة. وقد وصلت هذه العلاقة ذروتها في عهد سابع أمراء برغواطة المدعو «أبو منصور عيسى بن أبي الأنصار»، الذي بعث رسولا إلى البلاط الأموي في عهد الحكم المستنصر، هو زمور بن موسى البرغواطي. وهذا الرسول هو صاحب رواية هذا النص الذي رجحنا تدوينه من قبل محمد بن يوسف الوراق.

وإذا ما قارنا هذا النص الذي جاء به ابن عذاري مع ما أورده البكري[54]، نجد أن ابن عذاري يأتي به في صورة مشوهة وناقصة، بينما احتفظ لنا به البكري كاملا، وكان المفروض أن يهتم ابن عذاري بهذا النص أكثر من البكري، لأنه مؤرخ، وهذا أكثر علاقة باختصاصه، ولكن يبدو أن منهج ابن عذاري في اختصار هذه الفصول ضيع عليه فرصة الالتفات إلى إيرادها كاملة. بينما أدرك البكري أهميتها بحسه العلمي المرهف، فجاء بها كاملة، مؤديا بذلك خدمة كبيرة لتاريخ المغرب العربي[55]. فحفظ لنا هذا النص الطريف، وغيره من النصوص الأخرى ذات القيمة التاريخية الكبيرة، لمحمد بن يوسف الوراق.

---

(54) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص134 ـ 141؛ ويقارن: كاتب مجهول من القرن السادس الهجري، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق: سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1986، ص197 ـ 200.

(55) ينظر: مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، ص146؛ ويقارن: عبد الواحد ذنون طه، موارد تاريخ ابن عذاري المراكشي عن شمال إفريقيا من الفتح إلى بداية عهد المرابطين، مجلة المجمع العلمي العراقي، ج4، م36 (1985)، ص250.

نماذج لنصوص تاريخية مختارة لمحمد بن يوسف الوراق

1 ـ تاريخ مدينة تيهرت(*)

«وذكر محمد بن يوسف أن عبد الرحمن بن رستم كان خليفة لأبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح بن عبيد بن حرملة أيام تغلبه على إفريقية، فلما قتل محمد بن الأشعث الخزاعي أبا الخطاب وذلك في صفر سنة أربع وأربعين ومابة هرب عبد الرحمن بأهله وما خف من ماله وترك القيروان. فاجتمعت إليه الأُباضية واتفقوا على تقديمه وبنيان مدينة تجمعهم، فنزلوا موضع تاهرت اليوم، وهو غيضة أشبة، ونزل عبد الرحمن منه موضعا مربعا لا شعراء فيه، فقال البربر: نزل تاقدمت، تفسيره الدف، شبهوه بالدف لتربيعه. وأدركتهم صلاة الجمعة، فصلى بهم هنالك، فلما انقضت الصلاة ثارت صيحة عظيمة على أسد ظهر في الشعراء، فأخذ حيًا وأُتي به إلى الموضع التي صلوا فيه وقتل هناك، فقال عبد الرحمن بن رستم: هذا بلد لا يفارقه سفك دم ولا حرب أبدا. وابتدأوا من تلك الساعة فبنوا في ذلك الموضع مسجدا، وقطعوا خشبه من تلك الشعراء، فهو كذلك إلى اليوم، وهو مسجد جامعها، وهو من أربعة بلاطات. قال: وكان موضع تاهرت ملكا لقوم مستضعفين من مراسة وصنهاجة، فأرادهم عبد الرحمن على البيع فأبوا فوافقهم على أن يؤدوا إليهم الخراج من الأسواق ويبيحوا لهم بنيان المساكن، فاختطوا وبنوا، وسمي الموضع معسكر عبد الرحمن بن رستم إلى اليوم. قال: وبتاهرت أسواق عامرة وحمامات كثيرة يسمى منها اثني عشر حماما وحواليها من البربر أمم كثيرة. ومدهم الذي يكتالون به خمسة أقفزة ونصف قرطبية، وقنطار الزيت وغيره عندهم قنطاران غير ثلث، إلا المجلوب من الفلفل وغيره، فإنه قنطار عدل. ورطل اللحم عندهم خمسة أرطال».

(*) البكري، ص68 ـ 69.

2 ـ تاريخ مدينة أصيلا(*)

«ومما قيدته واختصرته من كتاب المسالك والممالك لمحمد بن يوسف القروي ـ رحمه الله ـ قال: ومن المدن القديمة على ساحل بحر الغرب، أصيلا، وهي في سهلة من الأرض، كانت مدينة للأول. ثم تغلب عليها البحر، ثم بنيت بعد ذلك، وكان سبب بنائها أن المجوس خرجوا في مرساها مرتين، أما الأولى، فإنهم قصدوا إليها، زاعمين أن لهم بها مالا وكنوزا، فاجتمع البربر لقتالهم حسبما ذكرت ذلك، وأما خروجهم الثاني، فإن الريح قذفت بهم إليها، وعطبت لهم أجفان كثيرة عليها، حتى كان يعرف ذلك الموضع بباب المجوس. وكان موضعها ملكا لقبائل لواتة، فابتناها قوم من كتامة. فأول ما ابتدأوا به مسجدا. ثم بنى لواته مسجدا ثانيا، وشاع أمرها. فبنى الناس شيئا بعد شيء، فقصدها التجار من الأمصار بضروب المتاجر في أوقات معلومات لأسواق الغبار.

فأول من قدم عليها من الملوك القاسم بن إدريس، فانه ملكها، وقامت دعوته بها إلى أن توفي ـ رحمه الله ـ ثم وليها ابنه إبراهيم بن القاسم، فجرت بينه وبين عمر بن حفصون الثائر ببشتر من الأندلس مراسلات ومكاتبات في شأن النفاق على الخليفة بقرطبة الأموي، إلى أن هلك. ثم وليها ابنه حسين بن إبراهيم بن القاسم، فاضطرب أمره، وضعفت طاعته، وطالت مدته خمسا وعشرين سنة في قبائل لواتة. وكان أخوه أحمد المتولي لأمر كتامة، وكان يعرف بأبي الأذنين. وكان صاحب البصرة حينئذ أخوهما عيسى بن إبراهيم بن القاسم، إلى أن قتله أبو العيش حنون من بني إدريس ـ رحمه الله ـ فتزوج أخوه أحمد الملقب بأبي الأذنين زوجته، وملك مكانه. وقيل إن زوجته سمته، فقتلته. فصار أمر كتامة وأمر البصرة إلى يحيى بن إبراهيم المعروف بابن برهوية، فاختلفت عليه كتامة، وكان ذلك سبب دخول

(*) البيان المغرب: 1/ 232 ـ 235.

بني محمد بلد كتامة وهوارة وتلك الناحية، واستجاشوا بحسن بن محمد المعروف بالحجام، فقام بأمرهم، وهلك القاسم بن حسن بن القاسم بن إدريس صاحب أصيلا.

ودخل بنو محمد من بني إدريس مدينة أصيلا، فاستأثر بها حسن الحجام دون بني عمه، فولى عليها رجلا من خاصته يقال له حجاج بن يوسف، فأحسن السيرة فيها، إلى أن هلك، فطلب ولايتها رجل من أهلها يقال له محمد بن عبد الوارث، فعدا طوره فيها. ويقال إنه أصاب بأصيلا كنزا بداره، ونُهي ذلك إلى حسن المعروف بالحجام، فطمع إلى ذلك المال، وعزله عن أصيلا. ثم وليها إبراهيم بن الغل المكناسي، وكان ساكنا بها، بعدما أعطى مالا لحسن الحجام. فلما وصل إلى أصيلا، سار محمد بن عبد الوارث إلى حسن بمال كثير، فعزل إبراهيم وأعاد ابن عبد الوارث. فسار إبراهيم بهدية إلى حسن، فعزل محمدا وولاه عليها. ثم عزل إبراهيم وولى محمد بن عبد الوارث. وكانت عزلتهما وولايتهما نحو سنتين، إلى أن استقر فيها محمد هذا، وسمي فار الصهريج، يعنون الكنز الذي أصاب فيه. وتبين لابن عبد الوارث رغبة حسن في ماله، فأعطاه. واستقامت له معه جميع أحواله مدة. ثم عزله وولى إبراهيم بن الغل المذكور، فبقي بها إلى أن حصر ابن أبي العافية بني محمد في حجر النسر، فأتاه أهل أصيلا، وطلبوا منه واليا من قبله، فولاها سعيد بن الشيخ الإشبيلي. وهرب إبراهيم بن الغل إلى مَدْين بن موسى بن أبي العافية، فوفد عليه، وهاداه، وانقطع إليه، فولاه أصيلا، فأحسن السيرة، ورفق بالرعية وانصرف إلى تسول، بعدما استخلف على حرب بني محمد رجلا من أصحابه يعرف بأبي قمح، فحاصرهم حصارا شديدا. فلما ضاق عليهم الأمر، هجموا عليه ليلا، فهرب أبو قمح، وملك بنو محمد محلته، واجتمعت قبائل كتامة بقلعة هناك، فزحف إليهم بنو محمد الأدارسة، فحاربوهم حتى دخلوا القلعة، وقتلوا من كان فيها. فكان أول فتح بني محمد بن إدريس الحسني.

وبلغ ذلك إلى أهل أصيلا، فكتبوا إلى ابن أبي العافية، وذلك في سنة 322، في حين خروج ميسور إلى أرض المغرب. فجاوبهم موسى بن أبي العافية، وأمرهم أن يتحصنوا في بلدهم، وكتب إلى قبائل كتامة، ولواتة وهوارة، وصنهاجة، يأمرهم بمعونتهم على البنيان، فانقسموا على سور المدينة، وبنوه في ستة أشهر. فهرب وجوه القبائل إلى أصيلا، واجتمع بها ملأ عظيم منهم، فزحف إليهم بنو محمد الأدارسة بعساكرهم، فكانت بينهم حرب عظيمة، فاستمدوا ابن أبي العافية، فاعتذر إليهم، وقال لهم: «اكتبوا إلى أمير المؤمنين! فأنا وأنتم رعيته وتحت طاعته»، فكتبوا إلى أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر. وكانت مدينة سبتة تحت طاعته. فبعث إليهم الرماة الأنجاد، واتصل ذلك ببني محمد، فحشدوا الأحشاد، وزحفوا إلى أصيلا، فحاربوها أربعين يوما. فخاف وجوه أهلها، فجازوا إلى الأندلس. ودخل بنو محمد أصيلا، وذلك سنة 326، وملكوها، فأمنوا من بقي بها من أهلها. وعاد من جاز إلى الأندلس إليها.

وحولها من القبائل لواتة في القبلة، ومن هوارة قوم يعرفون ببني زياد، بينهم كدية رمل عالية. قال إبراهيم بن محمد الأصلي من قصيدة له (وافر):

سقى غربيّ أرض بني زيادٍ سحائبُ ما يجفُ لها غروبُ

ولا زال النعيمُ يَعمُّ قوماً إزاؤُهم من الشرقِ الكثيبُ

وحولها من القبائل من جهة الغرب هوارة الساحل».

3 ـ رواية جعفر بن علي المعروف بالأندلسي(*)

«ذكر محمد بن يوسف بن عبدالله الوراق الحافظ لأخبار المغرب أن جعفرا وأخاه هذين الهاربين إلى وطن جدهما بالأندلس هما ابنا علي بن حمدون بن سملك بن سعيد بن إبراهيم.... بن أحمد بن عبد الحميد

(*) ابن حيان، المقتبس، تحقيق: عبد الرحمن علي الحجي، ص33 ـ 34.

الجذامي. وعبد الحميد هذا (كان الداخل) إلى بلاد الأندلس من الشام وأرضه... وكان نزوله من الأندلس بكورة البيرة بقرية... من قرى قلعة يحصب، ثم تنقل (حفيده) حمدون جدّهما. . . (إلى بجاية) فنزل بواد بها بقرية تعرف بقسطلنانة فاستقر بها ونسله. وخرج علي وحده إلى المشرق يبتغي الحج وذلك سنة سبع وثمانين ومائتين، وهو ابن ثماني عشرة سنة. فوقع ببلد كتامة وتزوج بها وصحب أبا عبدالله الداعي الظاهر هناك بالدعوة، فاستهواه وغلب على قلبه ودخل في مذهبه، وكان اسمه الذي سماه به أبوه حمدون: ثعلبة، فسماه أبو عبدالله الداعي عليا فاستمر به، وتقدم في صحابته إلى أن ظهر أبو عبدالله الداعي على ابن الأغلب وملك إفريقية وصيّرها إلى إمامة عبيد الله الشيعي، فنفق علي عند عبيد الله بذكاء كان فيه، وأرسل به إلى المشرق في بعض ما ترسل الملوك فيه، فأحكم له شأنه، وقدم فازداد حظوة لديه ولطفت منزلته وخرج معه إلى أرض المغرب سنة خمس عشرة وثلاثمائة فجرب يومئذ أدبه، واخترع بنيان مدينة المسيلة فألزم بنيانها علي بن حمدون هذا وولاه عليها عند كمالها، فاستقر بها وأحسن عمارتها وأقام بها، وابنه جعفر يومئذ مقيم بداره بالمهدية مع أمه ميمونة بنت علاهم الجيلي، قبيل من كتامة، فلما كان بنيان المسيلة وتحصنت بالسور وجه عبيد الله جعفر مع أمه إلى أبيه هناك فجمع شمل علي فيها ولم يزحه عنها وذلك سنة سبع عشر وثلاثمائة. فلما أن هلك عبيد الله وصار أبو القاسم مكانه وذلك سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة توجه علي بن حمدون إلى المهدية معزيا لأبي القاسم عن أبيه ومهنئا له بالولاية، واستخلف ابنه جعفرا بالمسيلة فأقام عنده شهورا ثم انصرف إلى المسيلة وإلى تعهد سلطانه مرات، وابنه جعفر يخلفه بالمسيلة وقد ظهر منه استقلال وضلاعة، ومهارة بخصال من الأدب وبراعة، طار له بها في الناس حديث صار إليه الأفئدة. وظهر آخر ذلك أبو زيد مخلد بن كيداد التاكرني ذو الشأو البعيد في الانغاص بالشيعة، فَصَلِي علي بن حمدون من حروبه نهابير(كذا)

مهولة، اتفق عليه أن تردى في بعض تجواله فيها في بعض من طرقه من جرف هار عال بعيد القعر وسقط فرسه عليه فاندقت يداه ورجلاه، وهلك في مترداه، وذلك في ربيع الآخر سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة، وتولى جعفر ابنه المسيلة من بعده رئاسة، فلم يزل متوليا لها مقيما فيها رفيع المنزلة عند سلطانه شديد النصب لزيري بن مناد الصنهاجي مجاوره ببلد المغرب ومناوئه إلى أن قتل زيري بن مناد المذكور عامل معد بن إسماعيل صاحب إفريقية على عمل المغرب محمد بن الخير بن خزر أمير زناتة القائم بدعوة بني أمية ملوك الأندلس عدوه وأخذ له فرسا من عتاق الخيل كان أمامه معد بن إسماعيل صاحب إفريقية قد حمل عليه جعفر بن علي، فأهداه جعفر إلى محمد بن الخير، فأرسل به زيري إلى معد وبعث إليه بكتب أصابها في بيت ابن خزر بخط جعفر بن علي يكاتب بها زناتة ويطلعهم على عورات زيري ويحذرهم منه متى اطلع أنه يريدهم، فبلغ ذلك من معد أشد مبلغ وتكلم في جعفر أسوأ الكلام وتهدده بالقتل، فكتب بعض عيون المقدمين عنده معلما له بذلك، وكتب معد إلى جعفر بعزله عن المسيلة، ويأمره بالقفول إليه بجميع أهله وولده وماله إلى حضرته. وكتب إليه في فصل من كتابه يعزيه عن محمد بن الخير خليله مترعا له، ويخبره عن الفرس التي ذكرنا صرف زيري إليه فقال له: «أعظم الله أجرك في خليلك فقد أجاد قتالنا على الفرس الذي كنا حملناك عليه وآثرناك به على أنفسنا»، فعند ذلك أسقط في يد جعفر بن علي وأيقن بالموت لا محالة، فبادر بنفسه وخرج من المسيلة مع أخيه يحيى وجميع أهله وولده وعبيده وخاصته وجميع ما قوي على الاستقلال به من ماله ونشبه، في عقب جمادى الآخرة سنة ستين وثلاثمائة، فصار عند بني خزر أمراء زناتة القائمين بدعوة الخليفة المستنصر بالله، وأعلنوا بذكره، ورفعوا الأعلام بريحه، فشق جعفر الصحراء معهم قاصدين لزيري إلى أن صاروا إلى ملوية، فالتقوا بزيري بن مناد وقد احتفل لهم. فجرت بينهم حرب صعبة أصيب بها زيري بن مناد وخلق من رجاله، وذلك

يوم الخميس لعشر خلون من شهر رمضان من هذه السنة بالقرب من ملوية، وكانت هذه الوقيعة من أعظم الوقائع وأبعدها صيتا وأشنعها ذكرا احتوى الزناتيون بها على عسكر زيري وأثخنوا القتل في جموعه وأدركوا ثأرهم المنيم منه».

جريدة المصادر والمراجع

أ ـ المصادر الأولية:

* ابن الأبار، عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي (ت 658هـ/ 1206م).
1 ـ التكملة لكتاب الصلة، نشر: عزت العطار، القاهرة، 1955 ـ 1956.
2 ـ الحلة السيراء، تحقيق: حسين مؤنس، الشركة العربية للطباعة والنشر، ط1، القاهرة، 1963.
* الأنصاري، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك المراكشي (ت703هـ/ 1303م).
3 ـ الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تحقيق: إحسان عباس، السفر الخامس، القسم الأول، بيروت، 1965.
* البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز (ت487هـ/ 1094م).
4 ـ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، نشر: دي سلان، الجزائر، 1857.
* البيذق، أبو بكر علي الصنهاجي (القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر الميلادي).
5 ـ المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1971.
* ابن حزم، علي بن أحمد (ت456هـ/ 1063م).
6 ـ رسالة في فضل الأندلس، نشرت ضمن مجموعة رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق: إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت، 1981، ج2.
* الحميدي، محمد بن أبي نصر (ت488هـ/ 1095م).
7 ـ جذوة المقتبس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، 1966.
* ابن حوقل، محمد بن علي بن حوقل النصيبي (ت367هـ/ 977م).
8 ـ صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1979.
* ابن حيان، حيان بن خلف (ت469هـ/ 1079م).

9 - المقتبس في أخبار بلد الأندلس، تحقيق: عبد الرحمن علي الحجي، دار الثقافة، بيروت، 1965.

* الرقيق القيرواني، أبو إسحاق إبراهيم (ت بعد 417هـ/ 1026م).

10 - تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق: المنجي الكعبي، مكتبة السقطي، تونس، 1968.

* الضبي، أحمد بن يحيى (ت599هـ/ 1202م).

11 - بغية الملتمس، نشر: شارلس توري، نيوهيفن، 1922. أعادت نشره بالأوفست مكتبة المثنى ببغداد.

* ابن عذاري، أبو العباس أحمد بن محمد (كان حيا في 712هـ/ 1312م).

13 - البيان المغرب في تلخيص أخبار الأندلس والمغرب، نشر: كولان وليفي بروفنسال، ليدن، 1948 - 951ج1و2 أعادت دار الثقافة نشره في بيروت.

* أبو العرب، محمد بن أحمد التميمي (ت333هـ/ 944م).

14 - طبقات علماء إفريقية، تحقيق: علي الشابي، ونعيم حسن اليافي، الدار التونسية للنشر، 1968.

* ابن الفرضي، عبد الله بن محمد (ت403هـ/ 1013م).

15 - تاريخ علماء الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، 1966.

* القاضي النعمان، ابن حيون أبو حنيفة النعمان بن محمد التميمي المغربي (ت363هـ/ 947م).

16 - كتاب افتتاح الدعوة، تحقيق: فرحات الدشراوي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1975

* مجهول، كاتب مجهول من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي.

17 - كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق: سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1986.

* المقري، أحمد بن محمد (ت1041هـ/ 1631م).

18 - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968.

* ياقوت، أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت الحموي (ت626هـ/ 1226م).

19 - معجم الأدباء، دار المستشرق، بيروت، بدون تاريخ.

20 - معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1977.

ب ـ المراجع الثانوية:

* بالنثيا، أنخل جنثاليث.

21 ـ تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة: حسين مؤنس، القاهرة، 1955.

* بروكلمان، كارل.

22 ـ تاريخ الأدب العربي، ج3، ترجمة: عبد الحليم النجار، ط4، دار المعارف بمصر، 1977.

* حسين، حازم غانم.

23 ـ الحياة العلمية والثقافية في الأندلس في القرن الرابع الهجري، رسالة ماجستير مرقونة على الآلة الكاتبة، جامعة الموصل، 1983.

* سالم، السيد عبد العزيز سالم، والعبادي، أحمد مختار.

24 ـ تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1969.

* طه، عبد الواحد ذنون.

25 ـ الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال إفريقيا والأندلس، دار الرشيد للنشر، بغداد ـ ميلانو، 1982.

26 ـ موارد تاريخ ابن عذاري المراكشي عن شمال إفريقيا من الفتح إلى بداية عهد المرابطين، مجلة المجمع العلمي العراقي، ج4، م36، (1985).

* الطيبي، أمين توفيق.

27 ـ دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، الدار العربية للكتاب، ليبيا ـ تونس، 1984.

* العبادي، أحمد مختار.

28 ـ في التاريخ العباسي والأندلسي، دار النهضة العربية، بيروت، 1972.

* عبد الحميد، سعد زغلول.

29 ـ تاريخ المغرب العربي، منشورات منشأة المعارف، الإسكندرية، 1979.

* غنيم، عبد الله يوسف.

30 ـ مصادر البكري ومنهجه الجغرافي، مطبعة المدني، القاهرة، 1974.

* كراتشكوفسكي، أغناطيوس يولبانوفتش.

31 ـ تاريخ الأدب الجغرافي العربي، نقله إلى العربية: صلاح الدين عثمان هاشم، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط1، القاهرة، 1963.

* مؤنس، حسين.

32 ـ تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، مدريد، 1967.

33 ـ رواية جديدة عن فتح المسلمين للأندلس، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، العدد18، مدريد (1974 ـ 1975).

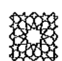
* Pons Biogues, Francisco.

34 - Los Historiadores Y Georgrafos Arabigo-Espanoles, Amesterdam, 1972, reprint of Madrid edition, 1898.

* Talibi, Mohamed.

35 - Un nouveau fragment de l'histoire de L'Occident Musulman, L'Epoque d'AL-Kahina, Extrait des Cahiers de Tunisie, tom XIX, 1971.

دراسة في موارد أبي عبيد البكري
عن تاريخ إفريقية والمغرب



نشر هذا البحث في مجلة دراسات أندلسية
العدد 3، تونس، 1989

تمهيد:

أبو عبيد عبد الله عبد العزيز بن محمد البكري، من علماء الأندلس الكبار الذين نبغوا في القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر الميلادي، وهو موسوعي الاتجاه، اهتم بموضوعات متعددة، أهمها الجغرافية، والتاريخ، وعلوم اللغة، والنبات، والشعر. لكن اهتمامه بالجغرافية غلب على بقية العلوم الأخرى، فكان بحق أعظم جغرافي أنجبته الأندلس قاطبة. ولقد دُرِسَ البكري الجغرافي دراسة مستفيضة، وأُعدت عنه بحوث قيمة ودراسات جليلة الشأن. ونشير في هذا المجال إلى ما كتبه المستشرق الروسي كراتشكوفسكي (1983 ـ 1951)[1]، وإلى الدراسة القيمة التي ضمنها عنه الأستاذ الدكتور

(1) أغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، نقله عن الروسية: صلاح الدين عثمان هاشم، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987،=

حسين مؤنس في موسوعته الجغرافية الفريدة عن الأندلس[2]، وكذلك دراسة الدكتور عبد الله يوسف الغنيم، التي تناولت مصادر البكري، ومنهجه الجغرافي بالتفصيل[3].

وعلى الرغم من أهمية البكري في حقل الدراسات التاريخية، وعنايته الكبرى بالتاريخ، لم تخصص حسب علمي[*] دراسة مستقلة عنه في هذا المجال الرحب، الذي أبدع فيه أيما إبداع، حيث قدَّم في ثنايا كتابه القيم المسالك والممالك معلومات تاريخية على درجة كبيرة من الأهمية للمناطق التي تحدث عن جغرافيتها. وقد جاءت إشارات الباحثين إلى هذه الناحية المهمة بشكل مقتضب، نظرا لتركيزهم على المَلَكَة الجغرافية عند البكري.

إن الحديث عن البكري المؤرخ يتطلب الإحاطة التامة بكل ما كتبه في مؤلفاته، لا سيما المسالك والممالك، الذي تناول فيه جغرافية العالم المعروفة على عهده، حيث وقف عند كل موضع وقعت فيه حادثة تاريخية وتحدث عنها بالتفصيل. ونظرا لضخامة الكتاب، وفقدان بعض أجزائه، وتوزع مادته على شكل قطع منشورة أو في صورة مخطوطات عديدة في مكتبات شتى في العالم[4]، فقد اقتصرت هذه الدراسة على القطعة الخاصة

= ص296 ـ 302، سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: كراتشكوفسكي.

(2) حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، منشورات معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، 1967، ص108 ـ 148، سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين.

(3) عبد الله يوسف الغنيم، مصادر البكري ومنهجه الجغرافي، ذات السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع، مطبعة المدني، القاهرة، 1974.

(*) أنجزت مؤخراً رسالة ماجستير، أعدت من قبل الطالب وميض محمد شاكر إبراهيم، وبإشراف كاتب هذا البحث، بعنوان: أبو عبيد البكري ومنهجه التاريخي في كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب. وقد أُجيزت يوم 19/ 7/ 2003 بكلية التربية/ جامعة الموصل.

(4) للاطلاع على المزيد من المعلومات بشأن مخطوطات الكتاب وأماكن تواجدها ينظر: مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين، ص132 ـ 137؛ الغنيم، مصادر البكري ومنهجه الجغرافي، ص58 ـ 66.

بشمال إفريقيا، التي نشرها المستشرق دي سلان De Slane في الجزائر سنة 1857 بعنوان المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، وأُعيد طبعها مرة أخرى في باريس سنة 1911.

ولغرض التوصل إلى فهم دقيق لجهود البكري التاريخية، تم التركيز في هذا البحث على موارده التي استقى منها معلوماته عن تاريخ إفريقية والمغرب، لأن دراسة هذه الموارد، والإحاطة بها يساعد كثيرا على معرفة المنهج التاريخي الذي سار عليه البكري، ويبين بوضوح الأصول التي اعتمدها لدعم رواياته التاريخية، التي قصد منها استكمال صورة الوصف الشامل للمناطق والبلدان التي تحدث عنها. وقد تبين من خلال هذا البحث أن موارده كانت متنوعة، فهو قد اعتمد الروايات الشفوية، إلى جانب الكتب والوثائق المدونة، والبيانات الرسمية، ولم يقتصر على موارد محددة، بل تنوعت لديه الأصول بين مشرقية ومغربية، حيث تشير ملاحظاته إلى اطلاعه الواسع على معظم الروايات والكتب التي كانت متوفرة في عصره.

عاش البكري في عصر الطوائف في الأندلس، وقضى معظم حياته متنقلا من مكان إلى آخر في ذلك العصر الحافل بالمآسي والقلق وعدم الاستقرار السياسي. وهو ينتمي إلى بيت شرف وإمارة، فكان آباؤه أصحاب ولبة Huelva وشلطيش Saltes على ساحل المحيط الأطلسي إلى الغرب من اشبيلية Seville، اللتين استولوا عليهما بعد انهيار الخلافة الأموية في قرطبة Cordoba، وظلوا فيهما حتى تغلب عليهم المعتمد بن عباد (ت488هـ/ 1095م)، فلجأ والد البكري إلى قرطبة وأقام فيها ومعه ابنه أبو عبيد. وهناك أتم البكري دراسته والتقى بابن حيان المؤرخ القرطبي المعروف (ت469هـ/ 1079م). وانتقل أبو عبيد بعد ذلك إلى مدينة المرية Almeria وعرف حاكمها المعتصم محمد بن صمادح (ت484هـ/ 1091م)، الذي أرسله في مهمة دبلوماسية إلى بلاط المعتمد بن عباد باشبيلية. وقد استقر البكري لفترة من الزمن في اشبيلية، لكنه غادرها إلى قرطبة بعد استيلاء المرابطين عليها،

وظل في قرطبة حتى وفاته عام 487هـ/ 1094م.[5]

ألف البكري كتابه المسالك والممالك في منتصف القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر الميلادي، وفرغ من كتابته في حدود عام 460هـ/ 1068م. وكان وثيق الصلة بمعاصريه من المؤرخين والمحدثين والأدباء، من أمثال ابن حيان، وأحمد بن عمر العذري (ت478هـ/ 1085م)، وأبي عمر بن عبد البر (ت463هـ/ 1070م) وغيرهم. ولم يكتب البكري كتابه هذا وصفا لرحلة قام بها، أو مشاهدات اطلع عليها، فهو لم يزر المغرب أبدا، بل اعتمد غالبا على المعلومات التي وقعت تحت تصرفه، والبيانات التي عثر عليها في الأندلس. لهذا فقد جاء وصفه للمغرب وصفا دقيقا عظيم الفائدة[6]. وقد حاول من خلال مزج التاريخ بالجغرافية أن يقدم صورة واضحة لهذه البلاد مبينا تاريخها منذ أقدم العصور، مستعينا بما توفر لديه من موارد عربية أو أجنبية. ويتمثل اعتماده على المصادر الأخيرة في الحديث عن أولية المدن المغربية، وأصولها الرومانية والبيزنطية، مثال ذلك وصفه لمدينة بونة، عنابة الحالية، بأنها: «أولية وهي مدينة أقشتين العالم بدين النصرانية»[7]. وهو يعني

(5) للمزيد من المعلومات عن حياة أبي عبيد البكري وأسرته ينظر: أبو القاسم خلف بن بشكوال (ت578هـ/ 1183م)، كتاب الصلة، 2م، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، 1966، 1/ 278 ـ 288؛ محمد بن عبد الله بن بكر القضاعي المعروف بابن الأبار (ت658هـ/ 1260م)، الحلة السيراء، 2م، تحقيق: حسين مؤنس، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، 1963، 2/ 181 ـ 184، 186؛ أنخل جنثاليث بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة: حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1955، ص309 ـ 310؛ كراتشكوفسكي، ص297 ؛

Pons Biogues, Los Historiadores Y Georrafos Arabigo-Espanoles, Amesterdam, 1972, reprint of Madrid edition, 1898, pp., 160-162, Encyclopedia of Islam , Second edition, article "ABU UBAYD AL-BAKRI".

(6) ينظر: حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، مكتبة الجماميز، القاهرة، 1947، ص305؛ محمد الطالبي، الدولة الأغلبية، تعريب: المنجي الصيادي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985، ص15.

(7) أبو عبيد عبدالله بن عبد العزيز بن محمد البكري، (ت487هـ/ 1094م)، المغرب في =

به القديس أغسطين (S t. Augstine)، أشهر رجال الكنيسة الكاثوليكية في شمال إفريقيا، المتوفى سنة 430م[8].

ويحرص البكري في وصفه لمناطق المغرب إلى تقديم أحدث المعلومات التاريخية عنها إلى العصر الذي عاش فيه، فيشير إلى الأحداث، ويقرنها بالسنوات المعاصرة. فعندما يتحدث عن الحموديين مثلا، يوصل تاريخهم إلى آخر سنة 460هـ/ 1068م، وهي السنة التي أنجز فيها تأليف كتابه[9]. ومن مزاياه الأخرى أنه لا يكتفي بالحديث عن تاريخ وجغرافية البلد، بل يشير إلى أوضاعه العامة وتجارته أيضا، فيقدم بذلك وصفا دقيقا وشاملا للمنطقة التي يتحدث عنها. فيقول عن قلعة أبي طويل على سبيل المثال إنها: «قلعة كبيرة ذات منعة وحصانة وتمصرت عند خراب القيروان...وهي اليوم مقصد التجار وبها تحل الرحال من العراق والحجاز ومصر والشام وساير بلاد المغرب، وهي اليوم مستقر مملكة صنهاجة وبهذه القلعة احتصن أبو يزيد مخلد بن كيداد من إسماعيل. . . »[10].

وعلى الرغم من هذه المزايا لا يخلو الكتاب من بعض المبالغات، مثل إشارته إلى قتل أبي عبدالله الشيعي (ت299هـ/ 911م) لثلاثين ألف رجل في مسجد مدينة الاربس سنة 296هـ/ 908م، ومن الواضح أن البكري انساق إلى هذه المبالغة لإضفاء صفة القسوة والوحشية على هذا الداعية الفاطمي[11].

= ذكر بلاد إفريقية والمغرب، نشر: دي سلان، الجزائر، 1857، ص54، سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: البكري، المغرب.

(8) ينظر: شارل أندريه جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، جزءان، تعريب: محمد مزالي والبشير بن سلامة، ، الدار التونسية للنشر، تونس، 1985، 1/ 304 ـ 305، 326؛ سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، جزءان، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1979، 1/ 119 ـ 120.

(9) البكري، المغرب، ص134؛ وينظر أيضا ص55، 87.

(10) المصدر نفسه، ص49.

(11) المصدر نفسه، ص46.

كما تضمن الكتاب أيضا بعض الأساطير التي ربما اعتمد البكري في إيرادها على بعض الكتب القديمة التي يسميها بـ «كتب الحدثان»[12]. وعلى أي حال فإن موارد البكري الرئيسة التي اعتمدها في ثنايا مؤلفه تشمل أصولا عديدة أخرى تتصف بالأصالة والوثوق، ويمكن تصنيفها على الشكل الآتي:

أولا: الروايات الشفوية.

ثانيا: الوثائق والكتب المدونة، وهي أما:

أ ـ مشرقية: وتشمل:

1 ـ كتاب فتوح مصر وأخبارها، أو فتوح مصر والمغرب والأندلس لابن عبد الحكم، والأصول الأولى التي اطلع عليها هذا المؤرخ.

2 ـ كتاب الأخبار للنوفلي.

ب ـ مغربية: وتشمل:

مؤلفات محمد بن يوسف الوراق.

كتاب مغازي إفريقية لأبي جعفر أحمد المعروف بابن الجزار.

كتاب تاريخ إفريقية لعبدالله بن أبي حسان اليحصبي.

كتاب فتوح إفريقية لعيسى بن محمد بن سليمان بن أبي المهاجر.

أولا: الروايات الشفوية:

هناك الكثير من الروايات الشفوية التي أوردها البكري معتمدا على سماعه من أشخاص أو جماعات، لكنه نادرا ما يشير إلى اسم الراوي المباشر الذي نقل إليه الخبر، ويكتفي أحيانا بكلمة «قالوا»[13]، ثم يورد

(12) المصدر نفسه، ص31؛ وينظر أيضا ص38، ؛ ويقارن: أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التجاني (ت717هـ/ 1317م)، رحلة التجاني، تقديم حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا ـ تونس، 1981، ص8.

(13) البكري، المغرب، ص112.

الخبر، أو يقول: «وروى الثقات عن» [14]، ثم يسمي الشخص المنقول عنه الخبر، وغالبا ما يكون هذا الشخص قد عاش في زمن بعيد عن البكري، لهذا لا نستطيع أن نتتبع سلسلة الرواة الذين نقلوا الخبر. ومن هؤلاء الذين نقل عنهم بهذه الطريقة عبد الرحمن بن زياد بن أنعم، قاضي إفريقية المتوفى سنة 161هـ/ 777م، وإسحاق بن عبد الملك الملشوني، الذي كان معاصرا للأمير محمد بن الأغلب (226 ـ 242هـ/ 941 ـ 856م). واتبع البكري نفس الطريقة في ذكر بعض الأحاديث النبوية الشريفة عن فضل إفريقية، حيث يستعمل عبارة: «روى جماعة» أو عن فلان، ثم يورد سلسلة الإسناد التي تنتهي بمن سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم[15].

ويذكر البكري روايات عن شهود عيان حدثوه ببعض المظاهر الاجتماعية في مناطق مختلفة من بلاد المغرب، لكن لا يذكر اسم هؤلاء الرواة، بل يكتفي بالإشارة إليهم بعبارات يفهم منها أنه رآهم وحدَّثهم كأن يقول: «وأخبرني غير واحد أنه رأى. . .»[16]، أو «وأخبرني من ضاف منهم رجلا. . .»[17]. ويشير البكري في ذكره لمثل هذه الروايات الشفوية أحيانا إلى اسم شاهد العيان الذي يروي عنه الخبر، ويحاول التعريف به تعريفا مقتضبا، لا يساعد في الغالب على تكوين فكرة متكاملة عنه. مثال ذلك قوله: «. . .وأخبر أبو الفضل جعفر بن يوسف الكلبي، وكان كاتبا لمؤنس صاحب إفريقية. . .»[18]. كذلك قوله: «وذكر محمد بن سعيد الأزدي رجل من أبناء صفاقس أنه دخلها. . .»[19].

ولا توجد في الكتب المعروفة لدينا تراجم لمعظم الرواة الذين يشير

(14) المصدر نفسه، ص45.
(15) المصدر نفسه، ص21.
(16) المصدر نفسه، ص102.
(17) المصدر نفسه، ص49.
(18) المصدر نفسه، ص18 ـ 19.
(19) المصدر نفسه، 14 ـ 15.

إليهم البكري، وربما كان بعضهم من العلماء المهتمين بأخبار المغرب، أو من التجار، أو الرحالة، الذين التقى بهم، مثل مؤمن بن يومر الهواري، الذي يدل اسمه على أنه من قبيلة هوارة البربرية. وقد أخذ عنه البكري مشافهة نصوصا عديدة لا سيما نصه الخاص ببناء مدينة وجدة في المغرب بعد سنة 440هـ/ 1048م[20]. كذلك الفقيه أبو محمد عبد الملك بن نخاس الغرفة، الذي حدثه بأخبار غانة وسير أهلها[21]. كما استفاد البكري أيضا من رجل آخر يدعى أبو العباس فضل بن مفضل بن عمرو المذحجي في رواية أخبار قبيلة برغواطة، وظهورها على مسرح الأحداث في المغرب العربي[22]. وأشار أيضا إلى أسماء رواة آخرين اعتمد عليهم في حديثه عن الأدارسة في المغرب الأقصى، ومن هؤلاء أحمد بن الحارث بن أبي عبيدة اليماني، ومحمد بن إبراهيم بن محمد بن القاسم[23]، والقاضي محمد بن عمر الصدفي[24].

ثانيا: الوثائق والكتب المدونة:

أ ـ المشرقية:

1 ـ كتاب فتوح مصر وأخبارها، أو فتوح مصر والمغرب والأندلس لابن عبد الحكم، والأصول التي اطلع عليها هذا المؤرخ: اعتمد البكري في بعض الروايات التاريخية التي أوردها عن فتح شمال إفريقيا على عبد الرحمن ابن عبدالله بن عبد الحكم، الذي يُعد من المؤرخين المسلمين الأوائل الذين

(20) المصدر نفسه، ص86، 87 ـ 88.

(21) المصدر نفسه، ص180.

(22) المصدر نفسه، ص137 ـ 138.

(23) المصدر نفسه، ص121.

(24) المصدر نفسه، ص126.

دونوا أحداث الفتح العربي الإسلامي لشمال إفريقيا[25]. ومن المعتقد أنه اطلع على كتاب هذا المؤرخ الخاص بفتوح مصر والمغرب والأندلس، لأنه يشير إليه مباشرة في بعض النصوص التي ينقلها عنه بعبارة: «قال ابن الحكم...»[26]. ويُلاحظ بأن البكري لا يدخل في تفاصيل الروايات المتعددة التي يذكرها ابن عبد الحكم، ولا يتبع تسلسله في ذكر الأحداث، بل يكتفي بما يتلاءم مع منهجه في مزج المعلومات الجغرافية بتاريخ المناطق التي يتحدث عنها[27].

ولا يشير البكري في ذكره لبعض الأخبار الأخرى إلى ابن عبد الحكم، ولكنه يسند هذه الأخبار مباشرة إلى المحدثين المصريين الذي اعتمدهم ابن عبد الحكم في سلسلة إسناده، لا سيما الليث بن سعد (ت175هـ/ 791م). وهذه الأخبار التاريخية الخاصة بالفتح تكاد تتفق حرفيا مع ما رواه ابن عبد الحكم مسندا إلى هذا المحدِّث[28]. ومن جهة ثانية يورد البكري روايات تاريخية أخرى دون إسناد، وبالمقارنة مع ابن عبد الحكم يتبين أنها مأخوذة عنه، حيث نجدها لدى الأخير بتفصيل أكبر، ومسندة إلى سلسلة رواته المعروفين[29].

وعلى الرغم من استخدام البكري لكتاب ابن عبد الحكم، وأخذه عنه،

---

(25) عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم (ت257هـ/ 871م)، فتوح مصر وأخبارها، نشر: تشارلس توري، نيوهيفن، 1921، ينظر: مقدمة توري (بالإنكليزية)، ص1. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن عبد الحكم، فتوح؛ وينظر: كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، نقله إلى العربية: عبد الحليم النجار، دار المعارف، القاهرة، 1969، 3/ 75؛ Pons Biogues, op. Cit., pp. 411-412, Encyclopedia of Islam, First edition, article: "IBN ABD AL-HAKAM".

(26) البكري، المغرب، ص12.

(27) يقارن: المصدر نفسه، ص12 ـ 14؛ ابن عبد الحكم، فتوح، ص194 ـ 196.

(28) ينظر: البكري، المغرب، ص5، 8 ـ 9؛ ويقارن: ابن عبد الحكم، فتوح، ص170 ـ 171.

(29) البكري، المغرب، ص10؛ ويقارن: ابن عبد الحكم، فتوح، ص171.

لكنه اطلع أيضا على الأصول الأولى التي كانت في متناول هذا المؤرخ المصري، ويدل على ذلك وجود روايات أخرى لدى البكري لا نعثر عليها عند ابن عبد الحكم، منها مثلا الرواية التي يسندها إلى حنش بن عبدالله الصنعاني (ت100هـ 718م)، الخاصة بفتح جزيرة جربة[30]. وحنش هذا هو أحد شهود العيان الذين شاركوا في فتح المغرب العربي، ويروي عنه بعض المحدِّثين الذين يعتمدهم ابن عبد الحكم في سلسلة إسناده[31]. كذلك يشير البكري، دون إسناد، بصورة مفصلة إلى رواية فتح مدينة سوسة على يد عبدالله بن الزبير (ت73هـ/ 692م)، في حملة معاوية بن حديج السكوني[32]. وهذه الرواية غير موجودة عند ابن الحكم، وهي مذكورة في البيان المغرب حيث ينسبها ابن عذاري[33]، إلى الطبري، ولكن لا يرد في المطبوع من كتاب تاريخ الرسل والملوك للطبري أي ذكر لهذه الرواية[34]. وهي على الأغلب من الأصول المشرقية التي وقعت بيد البكري، الأمر الذي يؤيد اعتماده على هذه الأصول الأولى بالإضافة إلى كتاب ابن عبد الحكم نفسه.

2 ـ كتاب الأخبار لعلي بن محمد بن سليمان النوفلي: لا نعلم شيئا عن حياة هذا المؤرخ، الذي روى عن أبيه وعمه، وعن أبي مخنف

(30) البكري، المغرب، ص19.

(31) ينظر: ابن عبد الحكم، فتوح، ص7، 277، 278.

(32) البكري، المغرب، ص34 ـ 35.

(33) أبو العباس أحمد بن عذاري المراكشي (كان حيا سنة 712هـ/ 1312م)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، 2م، نشر: ج.س. كولان، وليفي بروفنسال، ليدن، 1948، 1/16. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن عذاري، البيان.

(34) ينظر: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت 310هـ/ 922م)، تاريخ الرسل والملوك، 15م، نشر: دي غويه، ليدن، 1879 ـ 1901، 2/84، سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الطبري، تاريخ؛ عبد الواحد ذنون طه، «موارد ابن عذاري المراكشي عن شمال إفريقيا من الفتح إلى بداية عهد المرابطين» مجلة المجمع العلمي العراقي، م36، ج4 (1985)، ص258.

(ت157هـ/ 774م)، وغيرهم[35]. وقد أشار إليه المسعودي، ونقل عن كتابه الأخبار بعض الروايات التي تتعلق بالعصر الأموي[36]. كما كان أيضا من مصادر أبي الفرج الأصفهاني (ت365هـ/ 966م)، ونصر بن مزاحم (ت212هـ/ 872م)، والطبري. وقد اعتمد عليه الأخير في رواية بعض الأخبار عن الخلفاء العباسيين، لا سيما أبي جعفر المنصور (136 ـ 158هـ/ 754 ـ 775م)، والمهدي (158 ـ 169هـ/ 775 ـ 785م)، والهادي (169 ـ 170هـ/ 785 ـ 786م)، والرشيد (170 ـ 193هـ/ 786 ـ 809م)[37]. كما روى عنه البلاذري أيضا بقوله: «حدثني»، الأمر الذي يشير إلى أنه كان من شيوخه[38]. ولكن اهتمام النوفلي بأخبار المغرب إضافة إلى المشرق حمل بعض الباحثين على التساؤل والشك فيما إذا كان هو نفس المؤرخ الذي يعد حجة في تاريخ المغرب؟[39].

اعتمد البكري على هذا المؤرخ، لا سيما في ذكر قيام دولة الأدارسة، والأحداث التي مرت بها منذ إنشائها في عهد إدريس الأول (ت175هـ/

(35) ينظر: فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي (التدوين التاريخي)، نقله إلى العربية، محمود فهمي حجازي، نشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، 1403هـ/ 1983م: م1، ج2، ص136.

(36) علي بن الحسين بن علي المسعودي (ت346هـ/ 957م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، 4م، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط4، مطبعة السعادة، القاهرة، 1964، 1/ 13، 3/ 24، 86، 88، 89، 91، 242.

(37) الطبري، تاريخ، 3/ 328 ـ 329، 346، 390، 414، 418، 422 ـ 423، 450 ـ 455، 506، 509، 515، 516، 533 ـ 534، 536، 541، 543، 548، 550، 563، 590، 596، 608.

(38) أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت279هـ/ 892م)، أنساب الأشراف، تحقيق: الشيخ محمد باقر المحمودي، بيروت، 1974، 2/ 196 ـ 197؛ وينظر أيضا: محمد جاسم حمادي، موارد تاريخ البلاذري، 2م، مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة، 1407هـ/ 1986م، 2/ 670.

(39) فرانتز روزنثال، علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة: صالح أحمد العلي، مكتبة المثنى، بغداد، 1963، ص692.

793م)، الذي فر من معركة فخ سنة 169هـ/ 785م، إلى ترعرعها وتركز دعائمها في عهد خلفاء إدريس الأول. ويشير البكري إلى اسم النوفلي كاملا: «أبو الحسن علي بن محمد بن سليمان النوفلي»[40]. كما يشير إليه في أثناء نقل الروايات عدة مرات[41]. ويروي النوفلي عن أبيه، وعن غيره، ويعتمد أحيانا شهود العيان في رواية أخباره، منها قوله عن قاتل إدريس الأول، سليمان بن حريز الجزري، الذي أصيب بجراح على يد راشد مولى إدريس: «. . .فحدثني من رآه بعد قدومه العراق مكتعا. . .»[42]. ويبدو أنه كان يستقي أخباره عن المغرب من العلماء الذين كانوا يفدون على المشرق لغرض الحج، أو التجارة، أو القيام بالرحلات العلمية، من أمثال القاضي عيسى بن جنون، وغيره من العلماء الآخرين.

وقد اعتمد مؤرخون آخرون على روايات النوفلي المنقولة عن البكري في ذكر أحداث قيام دولة الأدارسة، مثل ابن الأبار (ت658هـ/ 1260م)[43]، والمؤلف المجهول لكتاب الاستبصار[44]، وابن عذاري المراكشي (كان حيا سنة 712هـ/ 1312م)[45]، الذي يشير إلى كتاب باسم: المجموع المفترق، ينسب فيه هذه الأخبار إلى النوفلي، أو الرقيق القيرواني (ت بعد سنة 417هـ/ 1026م). ويحتمل أن هذا الكتاب كان يضم مجموعة من المؤلفات الخاصة بالمغرب العربي، جمعت في مجلد واحد، وكانت معروفة في عهد ابن

(40) البكري، المغرب، ص118.

(41) المصدر نفسه، ص121.

(42) المصدر نفسه، ص122.

(43) الحلة السيراء: 1/ 53 ـ 54؛ وينظر: ليفي بروفنسال، الإسلام في المغرب والأندلس، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، القاهرة، 1956، ص24.

(44) مجهول المؤلف (من القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر الميلادي)، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، دار آفاق عربية، بغداد ـ دار النشر المغربية، 1986، ص194، 196، سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الاستبصار.

(45) ابن عذاري، البيان: 1/ 83.

عذاري بهذا الاسم[46]. وقد اطلع البكري على رواية النوفلي في هذا الكتاب، أو قرأها في كتابه المسمى بالأخبار، والذي كان يضم، كما أسلفنا، روايات مشرقية تتناول تاريخ الأمويين والعباسيين.

ب ـ الوثائق والكتب المغربية:

1 ـ مؤلفات محمد بن يوسف الوراق:

تشكل مؤلفات هذا الجغرافي القيرواني المولد أحد الأصول الفريدة التي اعتمدها البكري في مسالكه، ونخص بالذكر هنا ما دونه الوراق عن مسالك إفريقية وممالكها، وتاريخ بعض مدنها القديمة. يرجع أصل الوراق إلى أسرة كانت تسكن في مدينة وادي الحجارة (Guadalajara) بالأندلس، ثم نزحت إلى شمال إفريقيا، حيث نشأ الوراق وترعرع. لكنه بُهر بالجو العلمي الذي كان يحيط بمدينة قرطبة أيام خلافة الحكم المستنصر (350 ـ 366هـ/ 961 ـ 976م)، فرحل إلى الأندلس، وبقي فيها حتى وفاته عام (363هـ/ 973م)[47]. ولكاتب هذه السطور بحث مفصل عن هذا المؤرخ، وأهمية نصوصه التاريخية الخاصة بالمغرب[48]، لهذا لن يتكرر هنا ما جاء في ذلك

---

(46) يقارن: طه، موارد تاريخ ابن عذاري المراكشي عن شمال إفريقيا، ص254.

(47) ينظر عن الوراق: علي بن أحمد بن حزم (ت456هـ/ 1063م)، رسالة في فضل الأندلس، نشرت ضمن مجموعة رسائل ابن حزم الأندلسي، 3ج، تحقيق: إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1981: 2/ 175؛ محمد بن أبي نصر الحميدي (ت488هـ/ 1095م). جذوة المقتبس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، 1966، ص97؛ أحمد بن يحيى الضبي (ت599هـ/ 1202م)، بغية الملتمس، نشر: فرانسسكو كوديرة، مدريد، 1884، ص131؛ محمد بن عبد الله بن الأبار (ت658هـ/ 1260م) التكملة لكتاب الصلة، 2م، نشر: عزت العطار، مطبعة السعادة، القاهرة، 1955 ـ 1956، 1/ 366؛ كراتشكوفسكي، ص186؛ بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص309؛ مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين، ص73 ـ 76.

(48) ينظر: عبد الواحد ذنون طه، «نصوص مغربية من تاريخ محمد بن يوسف الوراق»، مجلة البحث العلمي، العدد 38، الرباط (1988).

البحث، بل سيكتفى بالإشارة إلى بعض المسائل التي لها علاقة باعتماد البكري على الوراق، الذي يعد حجة في تاريخ إفريقية والمغرب.

تكتسب نقولات البكري عن الوراق أهمية خاصة، نظرا لفقدان كتب الأخير، التي ضاعت شأنها شأن الكثير من المؤلفات التي دونها معاصروه، وبعض من سبقه من المؤرخين الذين اهتموا بتاريخ المغرب العربي. وقد اهتم البكري بشكل خاص برواية الوراق عن مدن شمال إفريقيا، وأورد عنها معلومات تاريخية قيمة نسبها إليه. ومن أهم المدن التي اعتمد فيها البكري على الوراق، مدينة تيهرت، و وهران، وتنس، وسجلماسة، ونكور، والبصرة (في المغرب العربي). لكنه لم يذكر اسم الوراق صراحة إلا عند حديثه عن مدينة تيهرت[49]. وفي الوقت نفسه أشار إلى مدن أخرى، وذكر معلومات تاريخية عنها نسبها إلى محمد بن يوسف الوراق مباشرة، منها مدينة رقادة، وطبنة، وأشير[50].

ويلاحظ على النصوص التي نقلها البكري عن الوراق، أنها تتصف بدقة المعلومات والوضوح والتفصيل، على العكس من نصوص ابن عذاري المنقولة أيضا عن الوراق. وينطبق هذا الكلام على روايته عن تأسيس مدينة نكور، وأسرة صالح بن منصور الحميري، التي حكمت هذه المدينة، ولعبت فيها دورا مهما منذ الفتح العربي الإسلامي للمنطقة[51]. كما تتضح أهمية نقولات البكري أيضا بالنسبة لقبيلة برغواطة البربرية وتاريخها في المغرب العربي، حيث نجد في النص معلومات طريفة عن «ديانة» هذه القبيلة، وما ابتدعه لهم صالح بن طريف (ولد سنة 110هـ/ 728م)، الذي تنبأ فيهم، من شعائر وطقوس خارجة عن الدين الإسلامي الحنيف. وقد احتفظ لنا البكري بهذا النص كاملا عن الوراق، حيث دونه الأخير عن: «أبي صالح زمور بن

(49) البكري، المغرب، ص68.

(50) المصدر نفسه، ص28، 52، 60.

(51) المصدر نفسه، ص91 فما بعدها؛ ويقارن: ابن عذاري، البيان: 1/ 176 ـ 180.

موسى بن هشام بن وارد يزن البرغواطي»، الذي قدم رسولا من أمير برغواطة أبي منصور عيسى بن أبي الأنصار (تولى سنة 341هـ/ 952م) إلى الحكم المستنصر في قرطبة سنة 352هـ/ 963م. وهذا النص أشبه ما يكون بوثيقة عن تاريخ برغواطة، كُتب للحكم المستنصر ليحفظ في سجلاته[52]. ويبدو أن الحس العلمي المرهف للبكري دفعه إلى الاهتمام بهذه الرواية، التي تقدم معلومات مفصلة عن هذه القبيلة وعلاقاتها الداخلية والخارجية، وسياسة أمرائها، فحفظ لنا حلقة متكاملة من حلقات تاريخ المغرب العربي، كما دونها محمد بن يوسف الوراق. ولم يكتف البكري بذلك، بل أضاف إلى هذه الرواية نصا آخر عظيم القيمة عن برغواطة وديانتها، نقله عن أبي العباس فضل بن مفضل بن عمر المذحجي، ولم يرد هذا النص في أصل رواية الوراق، مما يشير إلى اهتمام البكري، وملكته التاريخية المتميزة[53].

2 ـ كتاب مغازي إفريقية لأبي جعفر أحمد بن إبراهيم المتطبب القيرواني المعروف بابن الجزار (ت369هـ/ 980م):

اهتم ابن الجزار إلى جانب ممارسته للطب بالمسائل التاريخية، وألف فيها كتبا مختلفة[54]، لم تصلنا جميعا باستثناء نتف صغيرة احتفظ لنا بها البكري، وبعض الكتّاب المتأخرين. ومن مؤلفاته في التاريخ، كتاب التعريف بصحيح التاريخ، وهو تاريخ مختصر يشتمل على وفيات علماء زمانه، وبعض أخبارهم، وقد اطلع ياقوت الحموي على هذا الكتاب الذي يحتوي

(52) البكري، المغرب، ص134 ـ 141؛ وينظر: الاستبصار، ص197 ـ 200؛ ويقارن: مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين، ص146.

(53) البكري، المغرب، ص137 ـ 138.

(54) أبو داود سليمان بن حسان المعروف بابن جلجل (ت399هـ/ 1008م)، طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق: فؤاد سيد، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، 1955، ص89.

على أكثر من عشر مجلدات[55]. ولابن الجزار أيضا كتاب أخبار الدولة، أو تاريخ الدولة، ويعني به الدولة الفاطمية، حيث يذكر فيه ظهور المهدي بالمغرب وانتشار دعوته في شمال إفريقيا، وسقوط دولة الأغالبة، وما حصل من أحداث في تلك الحقبة[56]. كما ألف أيضا كتاب طبقات القضاة، الذي خصصه لتراجم العلماء الذين تداولوا على قضاء إفريقية إلى عصره، ولم يرد لهذا الكتاب ذكر عند ابن أبي أُصيبعة، لكن القاضي عياض أشار إليه، ونقل منه[57].

أما كتابه عن مغازي إفريقية أو التعريف في أخبار إفريقية، فلم يذكره أحد من الكتاب والمؤرخين، باستثناء أبي عبيد البكري[58]، وابن حيان القرطبي[59]. ويرى الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب[60]، أن البكري نقل ما

(55) شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الحموي (ت626هـ/ 1226م)، معجم الأدباء، 20م، دار المستشرق، بيروت، بدون تاريخ، 2/ 136 ـ 137.

(56) ينظر: أحمد بن القاسم بن خليفة المعروف بابن أبي أُصيبعة (ت668هـ/ 1269م)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق: نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1965، ص481 ـ 482؛ حسن حسني عبد الوهاب، ورقات من الحضارة العربية بإفريقية التونسية، 3ج، مكتبة المنار، تونس، 1965: 1/ 318.

(57) القاضي عياض بن موسى بن عياض السبتي (ت544هـ/ 1149م)، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، 8م، تحقيق: عبد القادر الصحراوي وآخرون، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية، الرباط، 1968، 3/ 102، 3/ 67؛ عبد الوهاب، ورقات: 1/ 319.

(58) المغرب، ص42.

(59) أبو مروان حيان بن خلف بن حيان (ت469هـ/ 1079م)، المقتبس في أخبار بلد الأندلس، تحقيق: عبد الرحمن علي الحجي، دار الثقافة، بيروت، 1965، ص36، سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن حيان، المقتبس.

(60) ورقات، 1/ 319؛ وينظر أيضا: سالم محمود عيسى الجبوري، الرقيق القيرواني: كتابه في التاريخ ومنهجه، رسالة ماجستير على الآلة الكاتبة، أُعدت بإشراف كاتب هذا البحث/ الجامعة المستنصرية، معهد الدراسات القومية والاشتراكية، بغداد، 1988، ص71.

جاء في هذا الكتاب عن الرقيق القيرواني، فيقول: «ولا شك أن البكري نقل عن إبراهيم الرقيق الذي استفاد من هذه المغازي ما أورد من أخبار الفتح في تاريخه الكبير لإفريقية»، وعلى الرغم من هذا الاحتمال، ليس من المستبعد أيضا أن يكون البكري قد اطلع على كتاب ابن الجزار بنفسه، دون أن يعتمد على الرقيق القيرواني، لا سيما وأننا لا نجد ذكرا لاسم الرقيق، أو كتابه بين ثنايا المسالك والممالك للبكري. يضاف إلى ذلك أن النصوص التي أوردها البكري، تتميز بتناسق الرواية ووحدة الموضوع، بينما نجدها مشوشة ومرتبكة عند الرقيق[61]، الأمر الذي لا يشجع على ترجيح أخذها من قبل البكري عنه مباشرة.

ولدى دراسة بعض النصوص التي نقلها البكري عن ابن الجزار، نجد أنها تتصف بالميل إلى الأساطير، من ذلك مثلا النص الآتي الذي يشير إلى أصل مدينة قرطاجنة:

«قال أبو جعفر أحمد بن إبراهيم المتطبب القيرواني في مغازي إفريقية أن موسى بن نصير لما دخل الأندلس فأتى على ما أراد منها قال لهم دلوني على أسن شيخ فيكم، فأتي بشيخ قد وقعت حاجباه عن عينيه من الكبر فقال له موسى من أين أنت يا شيخ قال من قرطاجنة إفريقية فقال له موسى فما الذي أصارك إلى هنا وكيف كان خبر قرطاجنة قال له الشيخ إن قرطاجنة بناها قوم من بقية العاديين الذين هلك قومهم بالريح فبقيت بعدهم خرابا ألف سنة حتى بناها أردمين بن لاودين بن نمرود الجبار وجلب إليها الماء العذب...»[62].

---

(61) ينظر: أبو اسحق إبراهيم بن القاسم المعروف بالرقيق القيرواني (ت بعد سنة 417هـ/1026م)، تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق: المنجي الكعبي، نشر: رفيق السقطي، تونس، 1968، ص81 ـ 83، سيشار لهذا المصدر فيما بعد هكذا: تاريخ إفريقية والمغرب.

(62) البكري، المغرب، ص42؛ وينظر كذلك ص33؛ ويقارن: الاستبصار، ص124 ـ 125، الذي نقل النص عن البكري مع بعض الاختلاف.

وعلى الرغم من هذه المسحة الأسطورية، لا يمكن القول جزما بأن ابن الجزار «كان يعتني بجمع الأساطير»[63]، لأنه قدم رواياته استنادا إلى الأخبار التي كانت رائجة في عهده عن أصول بعض المدن القديمة، لا سيما قرطاجنة. ولو تتبعنا رواية ابن الجزار لوجدنا أنه يستمر في سرد تاريخ هذه المدينة، ويبين الصراع الذي جرى بينها وبين مدينة رومة، وهجوم (هانيبال، حنبعل Hannibal) الذي يسميه «انبيل» عليها، ودور القائد (شيبيون أو سيبيون Scipion ويسميه «شبيون»)، في هذا الصراع. يقول ابن الجزار كما ينقل عنه البكري:

«. . . وكان سبب خراب قرطاجنة أن انبيل ملك إفريقية وكانت قرطاجنة دار ملكه مضى إلى بلد إيطالية الذي فيه مدينة رومية ولاقى قواد رومية...فهزمهم انبيل وقتلهم في عدة مواطن. . . فأقام في بلاد إيطالية محاربا لمدينة رومية ومضيقا على نواحيها نحو من ستة عشر سنة فركب قائد من قوادهم يقال له شبيون المراكب خفية حتى أتى صقلية فحشر من اجتمع له بها ثم مضى إلى بلد إفريقية وترك انبيل محاصرا لبلد رومية فنصر على الأفريقيين وعم بلد إفريقية قتلا وسبيا وإحراقا وبقي محاصرا لقرطاجنة فبعث أهلها إلى أميرهم انبيل يعلمونه بما دهمهم من أهل رومية. . .»[64].

وهذه الرواية قريبة جدا، بل مطابقة لما يذكره المؤرخون المحدثون عن هذا الصراع[65]. ويبدو أن ابن الجزار قد اعتمد على أصول قديمة، ربما كانت لاتينية، للتعرف إلى هذا الصراع، وتدوينه على هذه الشاكلة، واستفاد

(63) يقارن: عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي: 1/25.

(64) البكري، المغرب، ص42 ـ 43.

(65) ينظر: جوليان، المرجع السابق، 1/100 ـ 106؛ وينظر: محمد البشير شنيتي، الاحتلال الروماني لبلاد المغرب، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص25 ـ 26؛ محمد الهادي الشريف، تاريخ تونس، تعريب، محمد الشاوش ومحمد عجينة، لسراس للنشر، تونس، 1985، ص21 ـ 22.

منه البكري بالتأكيد، وضمنه في حديثه عن مدينة قرطاجنة وأوليتها. ومن جهة أخرى هناك دليل آخر ينفي أن كتاب مغازي إفريقية أو التعريف في أخبار إفريقية تضمن فقط روايات أسطورية، حيث ينقل عنه ابن حيان القرطبي نصوصا تاريخية عظيمة القيمة عن خروج جعفر بن حمدون الأندلسي عن طاعة المعز لدين الله الفاطمي (341 ـ 365هـ/ 953 ـ 975م)، ومحاربته لزيري بن مناد الصنهاجي (ت360هـ/ 970م)، ومن ثم عبوره إلى الأندلس واتصاله بالخليفة الحكم المستنصر[66].

كما ينقل ياقوت أيضا أخبارا تاريخية صرفة عن ابن الجزار، من ذلك مثلا، ما دونه في النص الآتي: «قال أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد بن الجزار في تاريخه: في سنة 208 ثار منصور بن نصر الطبنذي (ت211هـ/ 826م)على زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب (201 ـ 223هـ/ 817 ـ 838م) في إقليم المحمدية في موقع يقال له طبنذة، وبه لقب الطبنذي. . .»[67]. وتدلّ هذا النص والنصوص التاريخية الأخرى التي اقتبسها البكري وابن حيان، على اهتمام ابن الجزار بالأحداث التاريخية التي مرت بالمغرب العربي منذ الفتح إلى الحقبة التي عاش فيها. وتكتسب الأخبار المعاصرة لحياته أهمية خاصة نظرا لمعايشته للأحداث، واعتماده على شهود العيان في ذكرها، مما هيأ له مادة تاريخية عظيمة القيمة، استفاد منها البكري، وغيره من المؤرخين والكتاب المتأخرين.

3 ـ كتاب تاريخ إفريقية وحروبها لعبد الله بن يزيد بن عبد الرحمن المعروف بابن أبي حسان اليحصبي:

ينتمي ابن أبي حسان المتوفى سنة 227هـ/ 841م إلى بيت من أشراف

(66) ابن حيان، المقتبس، ص36 ـ 38.

(67) شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الحموي (ت626هـ/ 1226م)، معجم البلدان، 5م، دار صادر، بيروت، 1977، 4/ 43.

إفريقية، وكان يسكن في حارة يحصب بالقيروان، لهذا سمي باليحصبي. عُرف بفقهه وأدبه وعلمه بالتاريخ وأنساب العرب وأيامها، وله رحلة إلى المشرق لقي فيها الإمام مالك بن أنس (ت179هـ/ 795م)، وكتب تاريخ إفريقية وحروبها[68]. وينسب البكري نصا واحدا إلى ابن أبي حسان، وهو يتعلق بفتح موسى بن نصير (ت 98هـ/ 716م) لمنطقة سقوما، وكتابته إلى الوليد بن عبد الملك (86 ـ 96هـ/ 705 ـ 715م) بذلك[69]. وهذا النص موجود تقريبا كما هو عند الرقيق القيرواني[70]. والواقع أن الرقيق ينقل كثيرا عن ابن أبي حسان اليحصبي حيث تتصف بعض روايات الأخير بالأصالة، لأنه عاصر أحداثها، أو أن أباه حدثه عنها نقلا من شهود عيان[71]. فهل أخذ البكري ما أخذه عن ابن أبي حسان اليحصبي مباشرة، أم نقلا عن الرقيق القيرواني؟ الواقع لا يمكن الإجابة القاطعة على هذا السؤال، فقد يكون البكري أخذ ذلك عن الرقيق، أو أنه اطلع فعلا على كتاب تاريخ إفريقية وحروبها لليحصبي، لا سيما وأنه لا يشير إلى اسم الرقيق، في حين سمى معظم من أخذ عنهم رواياته التاريخية، أو الجغرافية.

---

(68) ينظر عنه: محمد بن أحمد التميمي المعروف بأبي العرب (ت333هـ/ 944م)، طبقات علماء إفريقية وتونس، تحقيق: علي الشابي ونعيم حسن اليافي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1968، ص155 ـ 156، سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: أبو العرب؛ أبو بكر عبد الله بن محمد المالكي (ت474هـ/ 1081م)، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية، 3م، تحقيق: بشير البكوش، ومحمد العروسي المطوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983: 1/ 284 ـ 289؛ عياض، ترتيب المدارك: 3/ 310؛ عز الدين علي بن أبي الكرم المعروف بابن الأثير (ت630هـ/ 1233م)، الكامل في التاريخ، 13م، دار صادر، بيروت، 1979: 6/ 530؛ ابن عذاري، البيان: 1/ 108.

(69) البكري، المغرب، ص117 ـ 118.

(70) تاريخ إفريقية والمغرب، ص77.

(71) المصدر نفسه، ص107، 121، 141.

4 ـ كتاب فتوح إفريقية لعيسى بن محمد بن سليمان بن أبي المهاجر:

يشير البكري إلى أخذه عن مؤرخ يسميه بأبي المهاجر، وبطبيعة الحال لا يمكن أن يكون أبا المهاجر هذا هو «أبو المهاجر دينار» والي إفريقية الذي تولى سنة 55 ـ 62هـ/ 674 ـ 681م، لأن البكري ينسب إليه رواية أحداث وقعت بعد وفاته. فمن المتفق عليه أن أبا المهاجر دينار استشهد مع عقبة بن نافع الفهري في معركة تهوذة، في أثناء رجوعهما من حملة على المغرب الأقصى سنة 63هـ/ 682 ـ 683م، أو أواخر سنة 64هـ/ 684م. لهذا فإن البكري يقصد بالتأكيد عيسى بن محمد بن سليمان بن أبي المهاجر، حفيد أبي المهاجر دينار، الذي عُرف عنه أنه ألف كتابا في فتوح إفريقية، وهو يعد من المصادر الأساسية في تاريخ المغرب العربي. وعيسى هذا هو أحد تلاميذ أبي خارجة الغافقي (ت210هـ/ 825م)، وعبد الله بن وهب (ت197هـ/ 812م)[72]. ويعد الأول من علماء إفريقية الأجلاء في الحديث، أمّا الثاني، فهو من المحدثين المصريين، وهو مؤسس أول مدرسة تاريخية مصرية[73].

ولا يقتصر اعتماد عيسى بن أبي المهاجر على رواة من إفريقية ومصر حسب، بل يعتمد رواة آخرين من أمثال محمد بن عمر الواقدي (ت207هـ/ 823م)، وابن مهدي بن يزيد القيسي، وزريق بن هلال الخشني، وعمر بن سمك بن حميد مولى موسى بن نصير، وشهر بن حوشب، وغيرهم من أشياخ عرب إفريقية[74]. ويبدو أن عيسى بن أبي المهاجر قد اطلع أيضا على أصول مكتوبة، مثل كتاب أبي بكر عتيق السوسي، وهو من أهل القيروان، حيث أخذ منه رواية عن خروج عبدالله بن سعد بن أبي سرح إلى

(72) ينظر: أبو العرب، ص206.

(73) عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، 1/ 23.

(74) أبو العرب، ص65، 68، 71، 179؛ البكري، المغرب، ص73.

إفريقية[75]. ومن المؤسف أنه لا يشير إلى اسم الكتاب، ولا يذكر طبيعة محتوياته، ولكنه كما يبدو من الخبر الذي أخذه عنه، كان يهتم بفتوح العرب لإفريقية.

اعتمد البكري مباشرة على ما دوَّنه عيسى بن أبي المهاجر في كتابه فتوح إفريقية، الذي كان يضم دون شك روايات عن الفتح الإسلامي للمغرب، إضافة إلى معلومات أخرى عن فتح الأندلس، نقلها عنه المؤرخ ابن عذاري المراكشي[76]. وقد ركز البكري على نصين، الأول؛ يتعلق بعقبة ابن نافع الفهري، ومعركته الأخيرة في تهوذة، حيث استشهد، هو وجماعة من صحبه على يد تكتل كبير من السكان المحليين وأنصارهم من البيزنطيين[77]. أما النص الثاني؛ فيتعلق بأعمال حسان بن النعمان الغساني العسكرية والإدارية، التي نفذها في أثناء ولايته على إفريقية (74 ـ 85هـ/ 694 ـ 704م). وهو نص عظيم القيمة، لأنه يعد من أقدم النصوص التي وصلتنا. وفضلا عن قدمه، فإن قيمته وأهميته تتركز في تقديمه معلومات مفصلة عن تحرير منطقتي قرطاج وتونس، وموقف الخلافة الإيجابي من دعم حسان بن النعمان، في سبيل حماية المكتسبات العربية في المنطقة، وذلك بإرسال ألف أسرة قبطية للعمل في دار صناعة السفن الحديثة التي أنشأت في تونس. كذلك يقدم النص تفصيلات قيّمة عن بناء السفن، وإنشاء هذه الدار في تونس، التي أصبحت قاعدة عربية إسلامية للأسطول العربي الناشئ في شمال إفريقيا[78].

(75) المصدر نفسه، ص78، وينظر: عبد الواحد ذنون طه، «موارد تاريخ ابن عذاري عن الأندلس من الفتح إلى نهاية عصر الطوائف»، مجلة المجمع العلمي العراقي، ج4، م37، بغداد، 1986، ص 368 ـ 369.

(76) ابن عذاري، البيان، 2/ 6 ـ 7.

(77) البكري، المغرب، ص73 ـ 74.

(78) المصدر نفسه، ص37 ـ 39.

وقد أشار مؤرخ آخر إلى هذه المعلومات، وهو الرقيق القيرواني، لكن روايته مختصرة وفيها خلط بين اسم الخليفة عبد الملك بن مروان (65 ـ 86هـ/ 685 ـ 705م)، والوليد بن عبد الملك[79]. وتشير الرواية أيضا إلى أن عم الوليد بن عبد الملك، أي عبد العزيز بن مروان، هو الذي أرسل الأسر القبطية في خلافة الوليد، وهذا مخالف للواقع، لأن عبد العزيز بن مروان توفي في حياة أخيه عبد الملك سنة 86هـ/ 705م. ويشير اختيار البكري للنص الصحيح في هذا المجال إلى طريقته في الاستفادة من الموارد التي يعتمدها، وتحريه لصدقها، ودقتها، لتوظيفها في دعم المادة الجغرافية التي يقدمها في كتابه المسالك والممالك.

(79) تاريخ إفريقية والمغرب، ص65 ـ 66.

جريدة المصادر والمراجع

أ ـ المصادر الأولية:

* ابن الأبار، محمد بن عبدالله بن بكر القضاعي.

1 ـ الحلة السيراء، تحقيق، حسين مؤنس، القاهرة، الشركة العربية للطباعة، 1963.

2 ـ التكملة لكتاب الصلة، نشر، عزت العطار، مطبعة السعادة، القاهرة، 1955 ـ 1956.

* ابن الأثير، عز الدين علي بن أبي الكرم.

3 ـ الكامل في التاريخ، بيروت، دار صادر، 1979.

* ابن أبي أُصيبعة، أحمد بن القاسم بن خليفة.

4 ـ عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق، نزار رضا، بيروت، دار مكتبة الحياة، 1965.

* ابن بشكوال، أبو القاسم خلف.

5 ـ كتاب الصلة، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1966.

* البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز.

6 ـ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، نشر: دي سلان، الجزائر، 1857.

* البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر.

7 ـ أنساب الإشراف، تحقيق: الشيخ محمد باقر المحمودي، بيروت، 1974.

* التجاني، أبو محمد عبدالله بن محمد بن أحمد.

8 ـ رحلة التجاني، تقديم حسن حسني عبد الوهاب، ليبيا ـ تونس، الدار العربية للكتاب، 1981.

* ابن جلجل، أبو داود سليمان بن حسان.

9 ـ طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق: فؤاد سيد، القاهرة، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، 1955.

* ابن حزم، علي بن أحمد.

10 ـ رسالة في فضل الأندلس، نشرت ضمن مجموعة رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق، إحسان عباس، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1981.

* ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد الله.

11 ـ فتوح مصر وأخبارها، نشر: شارلس توري، نيوهيفن، 1921.

* ابن حيان، أبو مروان حيان بن خلف.

12 ـ المقتبس في أخبار بلد الأندلس، تحقيق: عبد الرحمن علي الحجي، بيروت، دار الثقافة، 1965.

* الحميدي، محمد بن أبي نصر.

13 ـ جذوة المقتبس، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1966.

* الرقيق القيرواني، أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم.

14 ـ تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق: المنجي الكعبي، تونس، 1968.

* الضبي، أحمد بن يحيى.

15 ـ بغية الملتمس، نشر، فرانسسكو كوديرة، مدريد، 1884.

* الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير.

16 ـ تاريخ الرسل والملوك، نشر، دي غوية، ليدن، 1879 ـ 1901.

* ابن عذاري، أبو العباس أحمد بن محمد.

17 ـ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، نشر، كولان وليفي بروفنسال، ليدن، 1948.

* أبو العرب، محمد بن أحمد التميمي.

18 ـ طبقات علماء إفريقيا وتونس، تحقيق، علي الشابي ونعيم حسن اليافي، تونس، الدار التونسية للنشر، 1968.

* عياض، القاضي عياض بن موسى بن عياض.

19 ـ ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق، عبد القادر الصحراوي وآخرون، الرباط، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، 1968.

* المالكي، أبو بكر عبد الله بن محمد.

20 ـ رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية، تحقيق، بشير البكوش ومحمد العروسي المطوي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1983.

* مجهول المؤلف،

21 ـ كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، بغداد، دار آفاق عربية ـ دار النشر المغربية، 1986.

* المسعودي، علي بن الحسين بن علي.

22 ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق، محمد محيي الدين عبد الحميد، ط4، القاهرة، مطبعة السعادة، 1964.

* ياقوت، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي.

23 ـ معجم الأدباء، بيروت، دار المستشرق، (د.ت).

24 ـ معجم البلدان، بيروت، دار صادر، 1977.

ب ـ المراجع الثانوية:

* بالنثيا، أنخل جنثاليث.

25 ـ تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة، حسين مؤنس، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1955.

* بروفنسال، ليفي.

26 ـ الإسلام في المغرب والأندلس، ترجمة، السيد محمود عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي، القاهرة، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، 1956.

* بروكلمان، كارل.

27 ـ تاريخ الأدب العربي، ترجمة، عبد الحليم النجار، القاهرة، دار المعارف، 1969.

* الجبوري، سالم محمود عيسى.

28 ـ الرقيق القيرواني: كتابه في التاريخ ومنهجه، رسالة ماجستير على الآلة الكاتبة، الجامعة المستنصرية، معهد الدراسات القومية والاشتراكية، بغداد، 1988.

* جوليان، شارل أندريه.

29 ـ تاريخ إفريقية الشمالية، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، ط5، تونس، الدار التونسية للنشر، 1985.

* حمادي، محمد جاسم.

30 ـ موارد تاريخ البلاذري، مكة المكرمة، مكتبة الطالب الجامعي، 1986.

* روزنثال، فرانتز.

31 ـ علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة، صالح أحمد العلي، بغداد، مكتبة المثنى، 1963.

32 ـ تاريخ التراث العربي (التدوين التاريخي)، ترجمة، محمود فهمي حجازي، الرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1983.

* الشريف، محمد الهادي.
33 ـ تاريخ تونس، تعريب، محمد الشاوش ومحمد عجينة، تونس، لسراس للنشر، 1985.
* شنيتي، البشير.
34 ـ الاحتلال الروماني لبلاد المغرب، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985.
* الطالبي، محمد.
35 ـ الدولة الأغلبية، تعريب، المنجي الصيادي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1985.
* طه، عبد الواحد ذنون.
36 ـ «موارد تاريخ ابن عذاري المراكشي عن شمال إفريقيا من الفتح إلى بداية عهد المرابطين»، مجلة المجمع العلمي العراقي، م36، ج4، بغداد، 1986.
37 ـ «موارد تاريخ ابن عذاري المراكشي عن الأندلس من الفتح إلى نهاية عصر الطوائف»، مجلة المجمع العلمي العراقي، م37، ج4، بغداد، 1986.
38 ـ «نصوص مغربية من تاريخ محمد بن يوسف الوراق»، مجلة البحث العلمي، العدد 38، الرباط، 1988.
* عبد الحميد، سعد زغلول.
39 ـ تاريخ المغرب العربي، الإسكندرية، منشاة المعارف، 1999.
* عبد الوهاب، حسن حسني.
40 ـ ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية، تونس، مكتبة المنار، 1965.
* الغنيم، عبد الله يوسف.
41 ـ مصادر البكري ومنهجه الجغرافي، القاهرة، مطبعة المدني، 1974.
* كراتشكوفسكي، أغناطيوس يوليانوفتش.
42 ـ تاريخ الأدب الجغرافي العربي، نقله عن الروسية، صلاح الدين عثمان هاشم، ط2، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1987.
* مؤنس، حسين.
43 ـ تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، مدريد، معهد الدراسات الإسلامية، 1967.
44 ـ فتح العرب للمغرب، القاهرة، مكتبة الجماميز، 1947.



أثر الطبري على المؤرخين المغاربة
دراسة تطبيقية مقارنة
مع ابن عذاري المراكشي

ألقي هذا البحث في ندوة الإمام الطبري التي عقدت في القاهرة
تموز (يوليو) 1989، ونشر في وقائع الندوة: بعنوان «الإمام الطبري
في ذكرى مرور أحد عشر قرنا على وفاته»
دمشق، مطبعة الكاتب العربي، 1992

أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (225 ـ 310هـ/ 840 ـ 922م)، علم من أعلام التاريخ الإسلامي، نبغ في علم الحديث، حتى عدّه شمس الدين الذهبي (ت748هـ/ 1347م) من رجال الطبقة السادسة. كذلك يعد كتابه جامع البيان عن تأويل القرآن من أروع التفاسير المعروفة. أما مؤلفه تاريخ الرسل والملوك، فهو يمثل قمة ما وصل إليه التدوين التاريخي عند العرب في فترة التكوين والنشأة. فالطبري محدث، وفقيه، ومؤرخ، ابتدأ حياته العلمية بالدراسة في طبرستان بالمشرق، ثم في الري، وبغداد، والكوفة، والبصرة، والشام، ومصر. وقد استقر أخيرا في بغداد، حيث انتهت إليه الرئاسة في التفسير، والفقه، والتاريخ.

ويعد ما قام به الطبري من إنجاز في مجال التاريخ على درجة كبيرة من الأهمية. فقد اعتمد عليه المؤرخون اللاحقون في العصور التالية في كل ما يتصل بالقرون الثلاثة الأولى من تاريخ الإسلام. ولم يقتصر أثر كتابه في التاريخ على المشرق حسب، بل انتشر في مختلف أرجاء العالم الإسلامي. وتتابع الوراقون على نسخه، وتنافس العلماء والأمراء في اقتنائه، حتى يقال أنه كان بخزانة كتب العزيز بالله الفاطمي ما يزيد على عشرين نسخة منه، إحداها بخط المؤلف نفسه، كما تتابع المؤرخون في التذييل عليه، واختصاره. وقد أصبح لما يمتاز به من شمول ووفرة في المادة، يمثل نموذجا يحتذى به من قبل المؤرخين الذين جاؤوا بعده، إيمانا منهم بدقة الطبري، ونزاهته، وموضوعيته، وموقفه الحيادي.

ولم يشذ المؤرخون في مغرب العالم الإسلامي عن بقية إخوانهم في الاطلاع والاستفادة من هذا السفر الجليل، الذي ألفه الإمام الطبري، بل كان أحدهم سباقا إلى الاهتمام به واختصاره، والتذييل عليه، فور وصوله إلى الأندلس، وهو العالم القرطبي عريب بن سعد (ت370هـ/ 980م)[1]. وكان لمختصره أثر واضح فيما كتبه ابن عذاري المراكشي فيما بعد، حيث اعتمده بالإضافة إلى تاريخ الطبري الأصلي. ويجدر بنا قبل الاسترسال في تبيان كيفية تأثر هؤلاء المؤرخين المغاربة بتاريخ الطبري، أن نبين في نبذة مختصرة نطاق هذا التاريخ، ومنهج مؤلفه، إضافة إلى التعريف بابن عذاري وكتابه، ليتسنى لنا عقد المقارنة بين الاثنين، وبيان مدى الأثر الذي تركه الطبري على هذا المؤرخ المغربي.

يحمل تاريخ الطبري اسم تاريخ الرسل والملوك، ويعرف أيضا بـ تاريخ الأمم والملوك، وهو من أهم المصادر وأغزرها مادة بالنسبة للقرون الأولى

(1) انظر: أنخل جنثاليث بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة: حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1955، ص206 ـ 207.

للعلم في المجتمع الإسلامي[2]. ويمكن أن يقسم هذا السفر الكبير إلى قسمين أساسين: ما قبل الإسلام، وما بعده. وقد تعرض الطبري في القسم الأول إلى بدء الخليقة، وهبوط آدم وحواء، وإبليس، وقصة هابيل وقابيل، ثم عرض للأنبياء إلى الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم. كما أرخ للأمم القديمة كالساسانيين، وبني إسرائيل، والبيزنطيين، وعاد وثمود، وطسم وجديس وجرهم، وملوك اليمن. ثم تحدث عن أجداد الرسول تمهيدا لعصر الرسالة. وقد أورد حوادث هذا القسم على أساس المواضيع.

ويبدأ القسم الثاني بعهد الرسول صلى الله عليه وسلم حتى سنة 302هـ/ 914م، ويمكن تقسيم هذا القسم أيضا إلى ثلاثة أقسام:

أ ـ عصر الرسالة والخلفاء الراشدين إلى سنة 40هـ/ 660م.

ب ـ عصر الدولة الأموية من سنة 41 ـ 132هـ/ 661 ـ 749م.

ج ـ عصر الدولة العباسية من سنة 132 ـ 302هـ/ 749 ـ 914م[3].

لقد تأثرت نظرة الطبري إلى التاريخ في هذا القسم بدراسته وثقافته كمحدث وفقيه[4]، لذلك فإن قيمة الروايات في نظره تعتمد على قوة أسانيدها، ويمكن أن يُلخص منهجه في التأليف في نقطتين رئيسيتين:

1 ـ الاعتماد على الروايات، والتأكيد على أنه ناقل فقط لهذه الروايات، التي تحرى أن تكون عن طريق الثقات من الرواة والمؤرخين، لكنه وضع العهدة عليهم في صحتها، وذلك بقوله: «. . . فما يكن في

---

(2) فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي، م1، ج2، التدوين التاريخي، نقله إلى العربية: محمود فهمي حجازي، جامعة الإمام محمد بن مسعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، 1403هـ/ 1983م، ص159.

(3) ينظر: شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، ط2، دار العلم للملايين، بيروت، 1979: 1/ 263؛ عبد الرحمن حسين العزاوي، الطبري، ط1، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1988، ص94.

(4) عبد العزيز الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1960، ص55.

كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه أو يستشنعه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجها في الصحة ولا معنى في الحقيقة فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا وإنما أتي من قبل بعض ناقليه إلينا وإنا إنما أدينا ذلك على نحو ما أُدي إلينا»[5].

2 ـ الحرص على الإسناد، وكلما كانت بداية الإسناد أقرب إلى الحادثة، كان ذلك أفضل للوصول إلى شاهد العيان. وربما كان اعتماد الطبري على الإسناد سببه وفرة المصادر المتيسرة في عهده. لكن الطبري لم يكن يفضل رواية على أخرى، وإنما يكتفي بعرض الروايات، وينتقي رواتها. وهو في كل ذلك يتميز بالحياد التام، ويتجنب إعطاء حكم معين في الأحداث التي يتطرق إليها. ويبدو أن حياده هذا كان عن ورع ودقة علمية[6].

وقد سار الطبري في تنظيم مادته في القسم الخاص بالتاريخ الإسلامي على ترتيب السنين، وهو ما يدعى بالنظام الحولي، أو الحوليات (Annals)، الذي كما يدل اسمه، يخضع لتعاقب السنين المفردة. ويعد الطبري أول مؤلف مسلم دوّن التاريخ على هذه الطريقة وبقي لنا كتابه. وهناك إشارات إلى مؤلفين آخرين سبقوا الطبري في هذا المجال، ولكن فقدت معظم مؤلفاتهم ولم تصل إلينا[7]. وقد سار العديد من المؤرخين الذين جاؤوا بعد

(5) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، نشر: دي غوية، ليدن، 1879 ـ 1901، 1/7.

(6) مصطفى، المرجع السابق، 1/256؛ وينظر: محمد عبد الغني حسن، علم التاريخ عند العرب، مؤسسة المطبوعات الحديثة، القاهرة، 1961، ص8.

(7) من أمثال كتاب «تاريخ سني العالم» لأحمد بن علي بن يحيى المعروف بأبي عيسى بن المنجم، و«كتاب التاريخ على السنين» للهيثم بن عدي (ت206هـ/ 821م). ينظر: محمد ابن اسحق ابن النديم، الفهرست، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، 1978، ص207، 146؛ ويقارن: فرانز روزنثال، علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة: صالح أحمد العلي، مكتبة المثنى، بغداد، 1963، ص101 ـ 105؛ السيد عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، دار النهضة العربية، بيروت، 1981، ص87 ـ 88.

الطبري على المنهج، أو النظام الحولي، من أمثال: مسكويه (ت421هـ/ 1030م)، وابن الجوزي (ت579هـ/ 1200م)، وابن الأثير (ت630هـ/ 1233م)، وأبو الفداء (ت732هـ/ 1331م)، والذهبي، وغيرهم. وهكذا نلاحظ أن الطبري سار على طريقتين في التدوين، الأولى، حسب الموضوعات، وقد اتبعها في القسم الذي أرخ فيه لما قبل الإسلام، وهو قسم صغير لا يتجاوز العشر من كتابه الكبير. والطريقة الثانية، هي طريقة الحوليات، التي طبقها على تاريخ الإسلام منذ الرسالة، إلى سنة 302هـ/ 914م.

وكان الطبري يسير على قواعد أخرى ضمن منهجه التاريخي، منها، الإكثار من ذكر النصوص الأدبية، من خطب، ورسائل، وحوار، وشعر، في مختلف المناسبات التاريخية. كذلك كان يختتم عهد كل خليفة بالأخبار العامة عنه، مما لا يندرج ضمن النظام الحولي، مثل ذكر صفاته الجسمية، وأولاده، وأهله، ورجال دولته. وكان اهتمام الطبري منصبا، لا سيما في القسم الإسلامي من تاريخه على استقصاء أخبار الخلفاء والأمراء والولاة، والتركيز على الجوانب الشخصية من حياتهم. وبعبارة أخرى، فإنه جعل من الفرد القوة المحركة، والمحور الذي تدور حوله الأحداث، ولم يول الشعوب اهتماما كبيرا، ولا تحدث عن تقاليدها، أو عاداتها، وأنشطتها، وحرفها، وأعمالها. وقد تركزت اهتماماته على الجانب السياسي من حياة الدولة العربية الإسلامية، دون أن يعير الجوانب الاقتصادية والاجتماعية اهتماما يذكر[8]. كما أهمل أحداث عصره، وأوجز فيها كثيرا، وكان يمكن أن يكون أكثر فائدة وتفصيلا لتلك الأحداث التي عايشها، وكان شاهد عيان فيها[9].

---

(8) راشد البراوي، قادة الفكر الإسلامي في ضوء الفكر الحديث، ط1، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1969، ص24.

(9) مصطفى، المرجع السابق، 1/ 256.

اعتمد الطبري في كتابه على موارد عديدة سجلها في إسناد أخباره[10]، وهي في معظمها مستمدة من كتب مدونة أُتيح له الاطلاع عليها، وروايتها، أو الأخذ منها. وهي كتب جامعة كانت قد أُلفت في القرنين السابقين عليه، أي الفترة ما بين 50 ـ 250هـ/ 670 ـ 894م على وجه التقريب. وهو بصفة عامة، كما يرى الأستاذ فؤاد سزكين[11]، لم يستخدم كتب معاصريه، كذلك فإن الأسماء الأخيرة في سلاسل إسناده ليست أسماء مؤلفين، بل أسماء رواة المصادر. وعلى أي حال، فقد احتفظ لنا الطبري في كتابه بكثير من النصوص التاريخية المبكرة، والتي ضاع رواتها ومؤلفاتهم، ولا نستطيع العثور عليها اليوم إلا في كتابه، الذي حاول فيه أن يصنف كافة هذه الروايات العربية التي سبقته، فأنهى بذلك العصر الأول في تطور الكتابة التاريخية ولم يحاول أحد بعده أن يعيد فحص هذه المصادر التاريخية للحقب التي كتب عنها الطبري. وظل المؤرخون اللاحقون في العصور التالية معتمدين على كتابه في كل ما يخص تاريخ الإسلام في القرون الهجرية الثلاثة الأولى[12].

أما أبو العباس أحمد بن محمد بن عذاري المراكشي، الذي عاش في النصف الثاني من القرن السابع وأوائل القرن الثامن للهجرة/ الثالث عشر والرابع عشر للميلاد، فيعد من المؤرخين النوابغ الذين برزوا في مغرب العالم الإسلامي، لما يمثله من تراث فكري، لا يمكن الاستغناء عنه في دراسة تاريخ المغرب والأندلس. ويتمثل هذا التراث بالدرجة الأولى في تاريخه القيم الموسوم بـ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، الذي

(10) ينظر تفصيلات هذا الموضوع: جواد علي، «موارد تاريخ الطبري»، مجلة المجمع العلمي العراقي، ج1، 1950، ص143 ـ 231، ج2، 1952، ص135 ـ 190، ج3، 1954، ص6 ـ 56.

(11) تاريخ التراث العربي، م1، 2/ 160.

(12) ينظر: الدوري، المرجع السابق، ص56؛ مصطفى، المرجع السابق، 1/ 261.

ألفه في مراكش، أو في المنطقة الجبلية القريبة منها، في حدود سنة 712هـ/ 1312 ـ 1313م.

كان ابن عذاري على درجة كبيرة من الثقافة، نتيجة لاطلاعه على مؤلفات معاصريه ومن سبقه من المؤلفين، ولاختلاطه مع العلماء والأخيار في عصره. وقد تميز العصر الذي عاش فيه بنهضة ثقافية شاملة، انتعشت في ظل الدولة المرينية (حكمت للفترة من 668 ـ 875هـ/ 1268 ـ 1470م)، التي شجع أمراؤها الحركة الثقافية العامة في المغرب العربي، وسلكوا طريق العلم كمبدأ لازم منذ نشأة هذه الدولة، حتى قيل: «إنهم لم يوفقوا في السياسة كما توفقوا في نشر العلم»[13].وقد نال علم التاريخ نصيبا كبيرا من الاهتمام في هذا العصر، حيث نبغ مؤرخون كبار اهتموا بتاريخ المغرب منذ الفتح العربي الإسلامي إلى القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر الميلادي، كان من أهمهم، أبو الحسن علي بن عبدالله الفاسي، المعروف بابن أبي زرع (ت741هـ/ 1340م)، ولسان الدين ابن الخطيب (ت776هـ/ 1374م)، وعبد الرحمن بن خلدون (ت808هـ/ 1405م)، وغيرهم[14]. ولم تكن هذه الحركة الثقافية في المغرب بمعزل عن المشرق وبقية العالم الإسلامي، فقد كان هناك تواصل فكري، وتلاحم وثيق بين هؤلاء ونظرائهم في المشرق. وكانت الأحداث الجارية في كل بلد من بلدان الإسلام، هي محط اهتمام وحوار ومناقشة بين هؤلاء العلماء. وكان ابن عذاري مهتما إلى درجة كبيرة بأخبار الخلفاء والأئمة والأمراء في المشرق والمغرب، وقد عُرف عنه حبه للمناظرة مع زملائه العلماء الذين يشاطرونه نفس الاهتمام. وكان تأليفه لكتاب البيان

(13) عثمان عثمان إسماعيل، تاريخ شالة الإسلامية، دار الثقافة، بيروت، 1975، ص274؛ وانظر عن ازدهار الحركة الثقافية في هذا العصر: محمد المنوني، ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1979، ص193 ـ 197.

(14) إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ط2، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1984، 2/ 194 ـ 153.

المغرب تلبية لدعوة لا يمكن ردها من أحد هؤلاء الزملاء[15].

وعلى الرغم من تأخر زمن تأليف هذا الكتاب (أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن للهجرة)، لكنه يحتوي على أخبار كثيرة وروايات نادرة تجعله يرقى إلى مستوى الأصول الأولى التي لا يمكن الاستغناء عنها في دراسة تاريخ شمال إفريقيا والأندلس. إن هذه المادة التي يقدمها ابن عذاري تفوق كل ما كُتب بعده من التواريخ المغربية والأندلسية، سواء من حيث الوفرة، أو التنوع، أو الرجوع إلى كتب التاريخ التي سبقته، وهنا تكمن أهمية كتاب ابن عذاري. وهو في هذا يشابه تاريخ الطبري، لأن كلا منهما يعتمد على أصول مفقودة، لا يمكن العثور عليها إلا في كتابيهما. ولهذا فإن قيمة البيان المغرب بالنسبة لتاريخ المغرب والأندلس، تضاهي قيمة تاريخ الرسل والملوك بالنسبة لتاريخ المشرق في القرون الهجرية الثلاثة الأولى.

ويتألف كتاب ابن عذاري، حسب تقسيم المؤلف، من ثلاثة أجزاء[16]. بحث في الجزء الأول تاريخ شمال إفريقيا منذ الفتح العربي الإسلامي حتى ظهور المرابطين والموحدين. وتناول ابن عذاري في الجزء الثاني أخبار الأندلس مبتدءا بالفتح، وعصر الولاة، ثم بعهد الأمويين في عصري الإمارة والخلافة، وما أعقبهما من قيام الدولة العامرية، والفتنة في قرطبة، وملوك الطوائف، إلى دخول الأندلس ضمن الحكم المرابطي سنة 478هـ/ 1085م. وتحدث في الجزء الثالث عن أخبار الدولة المرابطية اللمتونية، منذ أول نشأتها في المغرب حتى توسعها وسيطرتها على الأندلس. كما تناول قيام الدولة الموحدية، والصراع بينها وبين المرابطين، وتمكنها من دحرهم، وانضواء المغرب والأندلس تحت لوائها، إلى أن سقطت على يد المرينيين

(15) أبو العباس أحمد بن محمد بن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، نشر: كولان وليفي بروفنسال، ليدن، 1948، أعادت دار الثقافة نشره في بيروت، 1/1 ـ 2.

(16) البيان المغرب، 1/3 ـ 5.

في سنة 668هـ/ 1268م. وقد نُشرت معظم أقسام كتاب البيان المغرب في طبعات متعددة، فأصبح متداولا بين أيدي الباحثين[17].

إن الجو العلمي الذي أشرنا إليه في عصر ابن عذاري، يدل دلالة واضحة على انتشار المعارف والعلوم الإنسانية في البيئة التي عاش فيها هذا المؤرخ. ويظهر مما كتبه ابن عذاري أنه كان واسع الاطلاع على الكثير من المؤلفات التي سبقته، سواء في المشرق أو في المغرب، وأنه كان كلفاً بأخبار هذه البلاد جميعا. ولا بد أن يكون هذا الاهتمام قد دفعه إلى المزيد من الاطلاع والبحث والتعرف على أساليب المؤرخين ومدارسهم في كتابة التاريخ. وتكفي القائمة الطويلة التي أوردها في مقدمة كتابه، والتي يذكر فيها المصادر التي نقل منها أخباره، لتأييد هذا الأمر. ويأتي تاريخ الطبري في مقدمة هذه الموارد التي أشار إليها ابن عذاري، حيث ابتدأ به، باعتباره أول المظان التاريخية التي اطلع عليها، ونقل منها[18].

كان ابن عذاري إذن على معرفة بالمدارس التاريخية وأساليب الكتابة التي سادت قبله، والتي يأتي في مقدمتها أسلوب الحوليات، الذي اتبعه محمد بن جرير الطبري، فسار ابن عذاري على هذه الطريقة، لكنه لم يتوقف عندها، بل حاول أن يُطعِّمها بما كان معروفا من أساليب أخرى في التدوين التاريخي، والتي تطورت واستمرت إلى عهده، مثل أسلوب الرواية، أي اختصار الأخبار وروايتها كحادثة واحدة متصلة بغض النظر عن السنين التي وقعت فيها الحادثة التاريخية. كذلك فقد استفاد ابن عذاري من الأسلوب الآخر الذي كان شائعا في التدوين، وهو الكتابة عن تاريخ المدن بشكل منفصل. وتختلط في هذه الحالة المعلومات التاريخية بالمعلومات الجغرافية. وكانت هذه الظاهرة أمرا مألوفا، لأن المؤرخين المسلمين، لا

(17) ينظر: محمد المنوني، المصادر العربية لتاريخ المغرب من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الحديث، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1983، 1/ 66 ـ 67.

(18) البيان المغرب، 1/ 2.

سيما في المغرب والأندلس، كانوا يبدأون تاريخهم بالحديث عن جغرافية البلد الذي يؤرخون له[19].

حاول ابن عذاري أن يوفق بين هذه الأساليب كافة في تدوين كتابه البيان المغرب، فاتخذ، متأثرا بتاريخ الطبري، مبدأ الحوليات أساسا في الترتيب، حيث ابتدأ بسنة 21هـ/ 641 ـ 642م، التي افتتح فيها عمرو بن العاص مدينة الإسكندرية[20]. ثم سار على هذا النسق، الذي أطلق عليه اسم «نسق التاريخ»[21]. لكنه طوَّر في هذا الأسلوب ليجعله ملائما للتدوين، فمزجه بالأسلوبين اللذين أشرنا إليهما أعلاه، أي الرواية، وكتابة تاريخ المدن والجماعات. وقد خدمته هذه الطريقة في عرض الأحداث بشكل أفضل. فحينما لا يكون المؤلف متأكدا من السنين، يختصر الأحداث ويرويها كحادثة واحدة خشية أن ينقطع السياق. كذلك كان يتخذ أسلوب الرواية في المجالات التي يتوفر فيها معلومات كثيرة، ويتضح ذلك من العنوانات التي يضعها والتفريعات التي يقوم بها لتفصيل الأحداث. وخلال رواياته هذه يقوم أيضا بتسجيل الأخبار حسب السنين. وهذه الطريقة المزدوجة في تسجيل التاريخ سمحت له أن يقدم معلومات مختصرة عن أحداث أقل أهمية، ولا تتوفر لديه عنها روايات كافية، فخصها بسطر، أو ببضعة أسطر، أو أكثر، على الطريقة الحولية، بينما أسهب في الأحداث الأخرى بشكل روائي تفصيلي حينما توفرت له المادة الكافية لذلك[22].

ويشابه ابن عذاري الطبري في التزام جانب الحياد بالنسبة لذكر

---

(19) ينظر: حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، 1967، ص54 ـ 55.

(20) البيان المغرب، 1/ 8.

(21) المصدر نفسه، 1/ 227، 256.

(22) ينظر: عبد الواحد ذنون طه، «موارد تاريخ ابن عذاري المراكشي عن شمال إفريقيا من الفتح إلى بداية عهد المرابطين»، مجلة المجمع العلمي العراقي، ج4، م36 (1985)، ص215.

الأحداث التي يتكلم عنها، والأشخاص الذين يدوّن تاريخهم. وهو لا يتورط في المديح، أو الذم، أو استخدام عبارات التملق التي أكثر غيره من المؤرخين استخدامها. وقد ترك مهمة الإشادة، أو الانتقاص لمن ينقل عنهم من الرواة والمؤرخين. وهو في هذا يساير منهج الطبري، الذي أعلن عنه في مقدمة كتابه تاريخ الرسل والملوك، وذلك بوضع المسؤولية التاريخية بالنسبة إلى صحة الأخبار، على الرواة الذين نقل عنهم[23]. ولكن ابن عذاري يقوم في بعض الحالات بتأييد بعض المسائل التاريخية التي يكون مقتنعا بصحتها، فيدعمها بوجهة نظره، ويقدم عليها الأدلة والبراهين. ففي حديثه عن الخليفة الموحدي يعقوب المنصور (580 ـ 595هـ/ 1184 ـ 1199م)، يقول: «وأما ما ذُكر عنه من قتل أخيه وعمه فقد تضطر الملوك إلى هذا. . .»، ثم يشير إلى عدد كبير من الملوك والأمراء والحكام الذين قتلوا إخوتهم، أو أبنائهم، أو أعمامهم، ويختتم كلامه بالقول: «وسياسات الملوك لا تعرض للامتحان ولا تحتمل التمحيص»[24].

كذلك ضمَّن ابن عذاري كتابه الكثير من النصوص الأدبية، التي تشمل الأشعار، والخطب، والرسائل. وهو لا يختلف عن الطبري أيضا في ذكره لبعض الأخبار العامة، بعد انتهاء عهد معظم الخلفاء والأمراء الذين يتناول الحديث عنهم، لا سيما في العهد الموحدي، فيذكر نبذة عنهم، وعن أولادهم، وشخصياتهم، ورجال دولتهم، مما لا يندرج ضمن الأسلوب الحولي. ولكن يتميز ابن عذاري عن الطبري في ذكره لبعض المسائل الاجتماعية والاقتصادية، والتعرض لحياة الشعوب التي يتحدث عنها، فهو وإن كان يكتب تاريخا سياسيا بالدرجة الأولى، لكن هذا التاريخ كان مطعما

(23) تاريخ الرسل والملوك: 1/ 7.

(24) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب/ قسم الموحدين، تحقيق: محمد إبراهيم الكتاني وآخرون، دار الغرب الإسلامي ببيروت، ودار الثقافة بالدار البيضاء، 1985، 2234.

ببعض الجوانب الأخرى التي تكشف طبيعة الحياة العامة للناس في شمال إفريقيا والأندلس، ضمن الحقب التي تعرض إليها في تاريخه الكبير.

وهناك ناحية أخرى، ربما كان فيها ابن عذاري أيضا متأثرا بالمنهج الذي سار عليه الطبري. وهي قلة الحديث عن الأحداث التي عاصرها المؤلف فعلا. فإن كان الطبري قد ضنّ علينا بالتفصيلات الخاصة بالفترة التي عاصرها في العصر العباسي، فإننا نجد أن ابن عذاري يتوقف تماما عن تدوين الأحداث التي أعقبت استيلاء المرينيين على مدينة مراكش، وسقوط دولة الموحدين سنة 668هـ/ 1268م، علما أنه عاش بعد هذا التاريخ بفترة طويلة قد تصل إلى نصف قرن من الزمن[25]. وهكذا حرمنا من رواية شاهد عيان للأحداث التي عاصرها المؤلف. ويبدو أن ابن عذاري تعمد هذا الإجراء للتخلص من الإحراج الذي قد تسببه الكتابة عن أحداث ما يزال أبطالها على قيد الحياة.

وإذا ما انتقلنا إلى كيفية استفادة ابن عذاري المراكشي من مادة كتاب تاريخ الرسل والملوك للطبري، نجد أنه اعتمد عليه في بعض النصوص الخاصة، التي تتعلق بالمشرق بالدرجة الأولى. ولنا أن نتوقع أن هذا الاعتماد لم يكن كبيرا جدا نظرا لاقتصار البيان المغرب على أحداث المغرب والأندلس. ولكن ابن عذاري يشير إلى قيامه بتأليف تاريخ عن المشرق، أسماه البيان المشرق في أخبار المشرق[26]. ولم يصلنا هذا الكتاب، أما الإحالات القليلة التي أشار فيها ابن عذاري إلى كتابه هذا، فتتضمن معلومات عن العصر الراشدي[27]، والدولة العباسية[28]، والفاطميين في

(25) ينظر: المصدر نفسه، ص447.

(26) البيان المغرب، 1/ 14.

(27) المصدر نفسه، 1/ 14، 15.

(28) المصدر نفسه، 1/ 66، 80.

مصر[29]. كما وردت إشارات أخرى عن أخبار مشرقية، يعتقد أنه استلها من كتابه عن المشرق، لكنه لم يشر إلى ذلك صراحة، مثل فتوح عبد الله بن عامر في أرض فارس[30]، وذكر وفيات عدد كبير من الصحابة في سنوات متفرقة[31]، وولادة الحجاج بن يوسف الثقفي[32]، ووفاة محمد بن جرير الطبري[33]، وأبي الطيب المتنبي[34].

ويتضح من هذا أن كتاب البيان المشرق في أخبار المشرق يمكن أن يكون كتابا جامعا، تناول فيه ابن عذاري أخبار المشرق العربي الإسلامي، والدول التي قامت فيه. وقد عدّ مصر من ضمن المشرق، فذكر أخبار أمرائها هناك. فعلى سبيل المثال، لم يفصل في الحديث عن العزيز بالله الفاطمي (نزار بن معد) في أخبار سنة 365هـ/ 975م، بل أحال القارئ إلى كتابه عن المشرق بالقول: «وقد ذكرنا بعض أخباره في أمراء مصر في أخبار المشرق»[35]. ويحتمل جدا أن ابن عذاري اعتمد في تأليفه لهذا الكتاب اعتمادا كبيرا على تاريخ الطبري، لا سيما في الأحداث التي تقع ضمن الحقبة التي تناولها الطبري. وأنه سار في البيان المشرق أيضا على طريقة الحوليات، متأثرا بالطبري، وذلك قياسا على ما وردنا من أخبار مرتبة حسب السنوات، وعلى ما جاء في كتابه الثاني الذي وصل إلينا، وهو البيان المغرب.

أما اعتماد ابن عذاري على تاريخ الطبري في هذا الكتاب الأخير،

---

(29) المصدر نفسه، 1/ 299.

(30) المصدر نفسه، 1/ 14.

(31) المصدر نفسه، 1/ 14.

(32) المصدر نفسه، 1/ 15.

(33) المصدر نفسه، 1/ 88.

(34) المصدر نفسه، 1/ 288.

(35) المصدر نفسه، 1/ 229.

فكان محدودا، كما أسلفنا، ولكنه مع ذلك لم يغفل جهد هذا المؤرخ المشرقي القدير، بل أورده على رأس قائمة موارده المتعددة، التي أشار إليها في مقدمة كتابه، لما له من أهمية خاصة. ومن المؤكد أن ابن عذاري قد اطلع على نسخة كاملة من تاريخ الطبري. لكنه مع ذلك اعتمد أيضا على المختصر الذي أعده عريب بن سعد القرطبي لهذا التاريخ، الذي وصل إلى الأندلس على أيدي علماء رحلوا إلى المشرق وسمعوا الطبري وأخذوا عنه كتبه ومصنفاته في التاريخ والتفسير[36]. وقد أشار ابن عذاري إلى اعتماده لمختصر عريب بن سعد في أماكن متفرقة من كتاب البيان المغرب. وتتركز معظم النصوص التي أشار إليها في هذا المجال على محاولات العرب العسكرية الأولى في شمال إفريقيا. وقد أوردها ابن عذاري على الطريقة الحولية مسندة إلى مختصر عريب للطبري بالشكل الآتي:

1 - «وفي سنة 33 كانت غزوة عبدالله بن أبي سرح إفريقية، مرة ثانية، حين نقض أهلها العهد. هكذا ذكر عريب في مختصره»[37].

2 - «وفي سنة 41. . . وفيها غزا معاوية بن حديج إفريقية المرة الثانية. قال عريب في مختصره: ذكر أهل العلم بأخبار إفريقية أن معاوية بن حديج نزل جبلا فيها، فأصابه فيه مطر شديد، فقال: إن جبلنا هذا لممطور! فسمي البلد ممطورا إلى الآن. وقال: اذهبوا بنا إلى ذلك القرن. فسمي ذلك الموضع قرنا. وكانت لمعاوية هذا إلى إفريقية ثلاث غزوات»[38].

3 - «وفي سنة 43...قال عريب في مختصره للطبري: فيها غزا عقبة بن نافع المغرب، وافتتح غدامس. . . »[39].

---

(36) أبو الوليد عبد الله محمد بن يوسف الأزدي المعروف بابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، 1966، 1/ 62، 2/ 207.

(37) البيان المغرب: 1/ 14.

(38) المصدر نفسه، 1/ 15.

(39) المصدر نفسه، 1/ 15.

4 ـ «وأغزى معاوية بن حديج جيشا في البحر إلى صقلية في مائتي مركب، فسبوا وغنموا وأقاموا شهرا، ثم انصرفوا إلى إفريقية بغنائم كثيرة...وبعث ابن حديج بالخمس إلى معاوية بن أبي سفيان. هكذا نص عريب في مختصره للطبري»[40].

وباستثناء النص الأول، الخاص بسنة 33هـ[41]، لا يمكن العثور على هذه النصوص في نص الطبري المطبوع. وربما كان عريب بن سعد ينقل أو يختصر من نسخة أخرى موسعة لم تصل إلينا. أما نصوص ابن عذاري المنقولة عن تاريخ الطبري مباشرة، فهي مختصرة في غالب الأحيان. وهي تتألف من أخبار صغيرة من جملة الحوداث التي يرويها الطبري في نهاية كل عام. ومن مقارنة النصوص مع الطبري، نجد أحيانا بعض الاختلافات اليسيرة، مثل إضافة كلمة، أو تصحيف في لفظة. فعلى سبيل المثال، ينقل ابن عذاري قول الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه لعبد الله بن سعد بن أبي سرح، حين وجهه لفتح إفريقية بقوله:

«إن فتح الله عليك إفريقية فلك مما أفاء الله على المسلمين خمس الخمس نفلا»[42].

أما نص الطبري، فهو كما يأتي:

«. . . إن فتح الله عز وجل عليك غدا إفريقية فلك مما أفاء الله على المسلمين خمس الخمس من الغنيمة نفلا. . .»[43].

وينقل ابن عذاري من حوادث سنة 28هـ/ 648م ما يأتي:

«غزا حبيب بن مَسْلَمة قورية من أرض الروم، ذكر ذلك الطبري وغيره»[44].

(40) المصدر نفسه، 1/ 16 ـ 17.

(41) ينظر: تاريخ الرسل والملوك، 2/ 2907.

(42) البيان المغرب، 1/ 13.

(43) تاريخ الرسل والملوك، 1/ 2814.

(44) البيان المغرب، 1/ 14.

بينما النص عند الطبري، برواية الواقدي، بالشكل آلاتي:

«وفي هذه السنة غزا حبيب بن مَسْلَمة سورية من أرض الروم»[45].

وأحيانا لا نجد في تاريخ الطبري الخبر ضمن السنة التي يشير إليها ابن عذاري، مثال ذلك: يسند الأخير إلى الطبري خبر غزوة معاوية بن حُدَيْج الكندي لإفريقية عام 45هـ/ 665م[46]. وهو خبر لا يرد في المطبوع من تاريخ الطبري، وإنما ورد بصيغة أخرى في حوادث سنة 47هـ/ 667م، حيث يشير الطبري إلى ذلك بقوله:

«وفيها عُزل عبدالله بن عمرو بن العاص عن مصر، ووليها معاوية بن حديج، وسار فيما ذكر الواقدي في المغرب...»[47].

وينسب ابن عذاري إلى الطبري قوله أن الخليفة هارون الرشيد عقد لابنه محمد ولاية العهد في شعبان سنة 173هـ/ 789م، وسماه الأمين. أما النص عند الطبري فيختلف قليلا، ويرد برواية محمد بن يزيد عن إبراهيم بن محمد الحجي[48]، كما يرد أيضا ضمن أحداث سنة 175هـ/ 791م[49].

وعلى أي حال، فإن بقية الروايات التي يشير فيها ابن عذاري إلى اعتماده فيها على الطبري، لا تتعدى بعض الأخبار الأخرى، مثل ذكر خبر صغير عن صاعقة وقعت في المسجد الحرام سنة 185هـ/ 801م، وقتلت رجلين. وكذلك عن حج الخليفة هارون الرشيد إلى الكعبة في السنة التالية 186هـ/ 802م، وكتابته لعقد البيعة لابنيه الأمين والمأمون، وتعليقه في الكعبة المشرفة[50]. ويلاحظ على هذه النصوص، أنها أُخذت باختصار، مع عدم

(45) تاريخ الرسل و الملوك، 1/ 2827.

(46) البيان المغرب، 1/ 16.

(47) تاريخ الرسل والملوك، 2/ 84.

(48) ينظر: البيان المغرب، 1/ 93؛ ويقارن: تاريخ الرسل والملوك، 3/ 652.

(49) تاريخ الرسل والملوك، 3/ 610.

(50) البيان المغرب، 1/ 93؛ تاريخ الرسل والملوك، 3/ 651، فما بعدها.

الإشارة إلى القصائد الشعرية التي قيلت في تلك المناسبات، وأوردها الطبري في تاريخه.

كذلك فقد نقل ابن عذاري عن تاريخ الطبري بعض النصوص التي تتعلق بفتح الأندلس، فيقول في مسألة أول من دخل هذه البلاد من المسلمين ما نصه:

وقال الطبري: أتوها من برها وبحرها، ففتحها الله تعالى على المسلمين هي وافرنجة، وازداد في سلطان المسلمين مثل إفريقية، ولم يزل أمر الأندلس لإفريقية حتى كان زمن هشام بن عبد الملك، فمنع البربر أرضهم، وبقي من في الأندلس على حالهم. هذا نصه، وإن ذلك كان سنة 27 من الهجرة الكريمة»[51].

وليس هناك مجال مناقشة مدى صحة هذه الرواية، التي ينقلها ابن عذاري، في معرض تعداده للأقوال التي ذكرت عن دخول المسلمين إلى الأندلس. ولكن الذي يعني البحث هنا، هو طريقة التعامل مع الرواية، وكيفية أخذها من قبل ابن عذاري، الذي استلها من تاريخ الطبري، وأكد ذلك بقوله: «هذا نصه». ولكنه مع ذلك، أسقط نحو ثلاثة أسطر من قول الطبري، تتعلق ببعض التغييرات التي أجراها الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، في القيادات الإدارية في شمال إفريقيا ومصر[52].

وينسب ابن عذاري إلى الطبري قوله، أن التقاء موسى بن نصير وطارق ابن زياد في الأندلس «كان على قرطبة»[53]. وبمراجعة تاريخ الطبري، الذي يشير إلى هذه الأحداث سنة 93هـ/ 711م، لا نجد أثرا لهذا القول. بل نجد نصا فيه إشارة إلى عبور موسى بن نصير إلى الأندلس، والتقائه بطارق بن

---

(51) البيان المغرب، 2/ 4.

(52) تاريخ الرسل والملوك، 1/ 2817.

(53) البيان المغرب، 2/ 16.

زياد، في مكان لم يحدده الطبري، ومن ثم توجه طارق إلى مدينة طليطلة لاستكمال الفتح[54]. وعلى أي حال، فإن اهتمام الطبري كان قليلا جدا بالأحداث في المغرب والأندلس. لهذا فان استفادة ابن عذاري منه في هذا المجال كانت محدودة للغاية. ولكن هذا لا يمنع تطرق الطبري إلى ذكر بعض الأحداث المهمة في شمال إفريقيا، والتفصيل فيها، منها على سبيل المثال، مسألة مقتل يزيد بن أبي مسلم، والي إفريقية سنة 102هـ/ 720م[55]. ونلاحظ أن ابن عذاري، الذي اطلع على هذه الرواية، وأشار إلى ذكرها من قبل الطبري، لكنه مع ذلك لم يأخذ بالتفاصيل التي قدمها الأخير، واكتفى بأن أشار إلى ذلك إشارة عابرة، ضمن حديثه عن ولاية عنبسة بن سحيم الكلبي في الأندلس[56].

يتضح مما تقدم أن أثر الإمام محمد بن جرير الطبري كان واضحا على ابن عذاري المراكشي، لا سيما في اتباع الأخير لأسلوب الحوليات في تدوين التاريخ، وفي طريقة معالجة بعض الأحداث، وتقسيم مادة الكتاب، والمنهج المتبع في التأليف. لكن تطور الكتابة التاريخية بعد عصر الطبري، أوجدت أساليب جديدة في التدوين. وقد أثرت هذه الأساليب على المؤرخين المغاربة، ومنهم ابن عذاري، فمزج بين مختلف هذه الأساليب التي كانت سائدة في عصره. ولكن السمة الغالبة على سفره الضخم ظلت متأثرة بشيخ المؤرخين في المشرق الإمام محمد بن جرير الطبري. وقد اعتمد ابن عذاري على كتابه تاريخ الرسل والملوك ضمن موارده، سواء كان ذلك الاعتماد عن طريق الاستفادة من مختصره، الذي أعده العالم القرطبي عريب بن سعد، أو الاستخدام المباشر لتاريخ الطبري. وعلى الرغم من قلة النصوص التي أوردها الأخير بالنسبة للمغرب والأندلس، قياسا إلى كتابه الكبير، الذي اختص

(54) تاريخ الرسل والملوك، 2/ 1254.
(55) المصدر نفسه، 2/ 1435.
(56) البيان المغرب: 2/ 27.

بتاريخ المشرق الإسلامي بالدرجة الأولى، فقد استطاع ابن عذاري أن يستفيد من هذه النصوص، ويوظفها لخدمة تاريخ المغرب والأندلس. وقد أكد بهذا على وحدة الثقافة العربية الإسلامية في المشرق والمغرب، وأن جهود علماء المسلمين متكاملة، وإن تباعدوا في الزمان والمكان.

جريدة المصادر والمراجع

أ ـ المصادر الأولية:

* الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير.
1 ـ تاريخ الرسل والملوك، نشر: دي غوية، ليدن، 1879 ـ 1901.

* ابن عذاري، أبو العباس أحمد بن محمد.
2 ـ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، نشر: كولان وليفي بروفنسال، ليدن، 1948، ج1و2.

* ابن عذاري،
3 ـ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب/ قسم الموحدين، تحقيق: محمد إبراهيم الكتاني وآخرون، دار الغرب الإسلامي ببيروت، ودار الثقافة بالدار البيضاء، 1985.

* ابن الفرضي، أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي.
4 ـ تاريخ علماء الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، 1966.

* ابن النديم، محمد بن إسحاق.
5 ـ الفهرست، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، 1978.

ب ـ المراجع الثانوية:

* إسماعيل، عثمان عثمان.
6 ـ تاريخ شالة الإسلامية، دار الثقافة، بيروت، 1975.

* بالنثيا، أنخل جنثالث.
7 ـ تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة: حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1955.

* البراوي، راشد.
8 ـ قادة الفكر الإسلامي في ضوء الفكر الحديث، ط1، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1969.

* حركات، إبراهيم.
9 ـ المغرب عبر التاريخ، ط2، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1984.
* حسن، محمد عبد الغني.
10 ـ علم التاريخ عند العرب، مؤسسة المطبوعات الحديثة، القاهرة، 1961.
* الدوري، عبد العزيز.
11 ـ بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1960.
* رونثال، فرانز.
12 ـ علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة: صالح أحمد العلي، مكتبة المثنى، بغداد، 1963.
* سالم، السيد عبد العزيز.
13 ـ التاريخ والمؤرخون العرب، دار النهضة العربية، بيروت، 1981.
* سزكين، فؤاد.
14 ـ تاريخ التراث العربي، التدوين التاريخي، نقله إلى العربية: محمود فهمي حجازي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، 1403هـ/ 1983م.
* طه، عبد الواحد ذنون.
15 ـ «موارد تاريخ ابن عذاري المراكشي عن شمال إفريقيا من الفتح إلى بداية عهد المرابطين»، مجلة المجمع العلمي العراقي، ج4، م36 (1985)، ص201 ـ 262.
* العزاوي، عبد الرحمن حسين.
16 ـ الطبري، ط1، سلسلة نوابغ الفكر العربي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1988.
* علي، جواد.
17 ـ «موارد تاريخ الطبري»، مجلة المجمع العلمي العراقي، ج1، (1950)، ص143 ـ 231، ج2، (1952)، ص135 ـ 190، ج3 (1954)، ص6 ـ 56.
* مصطفى، شاكر.
18 ـ التاريخ العربي والمؤرخون، ط2، دار العلم للملايين، بيروت، 1979.
* مؤنس حسين.
19 ـ تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، 1967.

※ المنوني، محمد.

20 ـ المصادر العربية لتاريخ المغرب من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الحديث، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1983.

※ المنوني،

21 ـ ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1979.

المحتويات

د. عبد الواحد ذنون طه



دراسات في تاريخ وحضارة المغرب الإسلامي

كان للمغرب الإسلامي دور فاعل في تاريخ وحضارة الدولة العربية الإسلامية، لاتصاله الوثيق بالمشرق من جهة، وبالأندلس من جهة أخرى.

وما الأحداث التي مرت به إلا صدى للأوضاع العامة في الطرفين.

وهذه الدراسات في تاريخ وحضارة هذا الجزء الهام من الدولة العربية الإسلامية، تعبر بشكل لا يقبل اللبس عن هذه الدور، وهذه الفعالية.

فتتنوع بين التأصيل التاريخي والبحث عن الجذور وبين الجهود العسكرية التي بذلتها الجيوش العربية الإسلامية في بلدان المغرب معرجة على الدول التي حكمت هناك في سرد تاريخي يجمع بين المتعة والفائدة العلمية.

من مواليد مدينة الموصل 1943.

حصل على البكالوريوس في التاريخ بدرجة جيد جداً (قسم الشرف)،من كلية التربية بجامعة بغداد عام 1965.

نال شهادة الدكتوراه في تاريخ المغرب والأندلس من جامعة اكستر(Exeter) بالمملكة المتحدة عام 1978 م.

مؤلفاته :

- العراق في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي
- الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال أفريقيا و الأندلس
- أصول البحث التاريخي
- دراسات أندلسية
- دراسات في التاريخ الأندلسي
- دراسات في حضارة الأندلس وتاريخها
- دراسات في تاريخ وحضارة المغرب الإسلامي
- دراسات في تاريخ وحضارة المشرق الإسلامي
- موسى بن نصير
- ابن عذارى المراكشي
- حركة المقاومة العربية الإسلامية في الأندلس
- نشأة تدوين التاريخ العربي في الأندلس
- الرحلات المتبادلة بين الغرب الإسلامي والمشرق
- تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس / بالاشتراك مع اخرين
- تاريخ المغرب العربي / بالاشتراك مع اخرين

المدار الإسلامي

موقعنا على الانترنت:
www.oeabooks.com

ردمك ISBN 9959-29-211-8



9 789959 292117 >